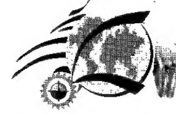
الإسلام والأديان

دراسة مقارنة

تأليف
الدكتور مصطفى حلمي
الأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الدعوة

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4252-6



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي لـــه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن هذه الصفحات تتضمن محاضرات في علم مقارنة الأديان، ألقيتها على طلاب الدراسات العليا بقسم العقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة أثناء العامين ١٤٠٩ و١٤١٠ هـ ، وقد التزمت فيها اختصار المادة العلمية مكتفيًا بالمسائل الرئيسية، مع الإحالة إلى المراجع والمصادر المختصة، والعناية بإجراء الموازنات بعد عرض الآراء المختلفة في تعريف الدين والترجيح بينها، مستندًا إلى الدراسة المستوعبة لأصولها وفروعها للدكتور محمد عبد الله دراز -رحمه الله تعالى- في كتابه «الدين» .

وإزاء سيل الكتب التي تصدرها المطابع بلا انقطاع عن موضوع الدين وما يتصل به من قضايا رئيسية أو فرعية، فإن التساؤلات المطروحة دائمًا وتحتاج إلى عناية خاصة هي:

(١) بأي منهج يدرس أصحاب هذه الكتب قضايا الدين؟

(٢) ثم، هل يستطيع المؤلف التخلص من عقيدته عندما يكتب عن دينه؟

(٣) ويبقى استفسار أخير عن مفهوم الدين في تصورات الكتاب والمؤلفين؛ ذلك لأن الدين مفاهيم مختلفة في أذهان الناس، ففي الغرب يعني الدين بصورة رئيسية نظام إيمان وعبادة يتميز عن الولاء الوطني والسياسي، أما بالنسبة للمسلمين فالدين يعني أكثر من ذلك بكثير، فالإسلام يشمل في معناه ما نعنيه في الغرب كلمة الحضارة المسيحية والدين المسيحي مجتمعين[1].

---

(١) ص ٣٢ من كتاب الغرب والشـــرق الأوسط -برنارد لويس- ترجمة نبيل صبحي: كتاب المختار -بدون تاريخ- سلسلة: نحو طلائع إسلامية واعية.

ونفهم من هذا التعريف -على إيجازه- أحد سمات الكمال للإسلام.

وليس يعني ذلك أننا ندافع عن الإسلام، فهو غني عن ذلك، ولكم إذا استندنا إلى الأصول المشتركة بين الأديان، وعرضناها بمنهاجية علمية مقارنة تلتزم بتوثيق المصادر ومخاطبة العقل واستخدام أساليب الجدل المنطقي، إذا فعلنا ذلك سيظهر الترجيح الذي لا يقبل المكابرة.

بمثل هذه الرؤية الواضحة نرى أن لافتة «الحيدة العلمية» لم تعد تقنع أحداً عند البحث في الأديان، فما من باحث إلا وهو حامل عقيدته التي لا يستطيع التخلي عنها مهما زعم ارتداء ثوب «الحيدة»

يقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق:

«إن الواقع يشهد بأن حرية الرأي مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء في مسائل معينة.. ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه قد عاش فيهم دهورًا طويلة، حتى أصبح جزءاً من كيانهم»[(١)].

ومع هذا، فإذا أردنا البحث عن أفضل الطرق لتحييد المواقف بقدر الإمكان، فيجب علينا إقامة بحوثنا على عناصر محايدة- كالأرقام الرياضية- معترف بها في دائرة مصطلحات الأديان، وعلى ضوء مفاهيم علمائها ورجالها، فما من دين إلا وله كتاب ونبي «يختلف بشأنه في الأديان الوضعية» ومعتقدات وعبادات وشرائع ونظام للقيم وتصور للحياة والنفس الإنسانية.

فتعالوا إلى التعرف على ما يتميز به الإسلام بأدلة عقلية مجردة.

-القرآن كلام الله المنزل، لم يكتبه بشر ولم تتدخل الأيدي لنسخه وتبديل معانيه وتغييرها حسب الأهواء.

-إثبات خصائص النبوة والرسالة لمحمد ﷺ إذا قورنت بالأنبياء والرسل جميعًا «وهو القياس الذي التزمه هرقل ملك الروم كما سيأتي». ويبقى ملزمًا لأهل الكتاب لإيمانهم بالرسل والأنبياء قبله، فهو لا يخرج في أخلاقه وأعماله ودعوته عما فعله الرسل السابقون عليه.

---

(١) أوروبا والإسلام ص ١٣٥- طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م.

-عقيدة التوحيد -وهي ميزة الإسلام الكبرى وغايته القصوى- لا تشوبها شائبة من عبادة مخلوق أياً كان -سواء في السماء: كالشمس والقمر والكواكب، أو في الأرض من أوثان أو كهنة أو رجال دين.

-إن شريعته بالمقارنة بغيرها تجمع بين الفضل والعدل.

-وقيمه الخلقية البالغة في الرقي حدًا لا يجارى، إذ لو لم نقرأ عمن طبقها وما زلنا نعيش مع من يفعل -لظننا أنها مجرد مثل عليا تصلح لكائن آخر غير الإنسان.

-بيان حقيقة الإنسان ودوره فى القيام «بالخلافة» بشروطها، والهداية إلى طريق الحياة الطيبة فى الدنيا، الموصل إلى السعادة فى الآخرة.

-وعلى الإجمال فإن الإسلام يشخص الإنسان بذاتيته المتفردة، فلا هو كائن «حيواني» بحت، ولا هو كائن ملائكي نوراني بحت، بل أصله من طين ثم نفخ فيه الروح [(١)].

-والإنسان يظل منذ ولادته فموته ثم بعثه، مستقلاً بذاته لا يفنى في الكل خلافًا لعقائد الهنادكة والبوذية.

-وهو حر الإرادة مسئول عن أفعاله، ولا يتحمل أخطاء غيره، أو يولد حاملاً للخطايا كما يعتقد النصارى.

-والناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط، ولكن يتفاضلون بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، خلافًا لليهود الذين يتوهمون أنهم وحدهم شعب الله المختار.

ويحذرنا الإسلام من إبليس العدو اللدود وأعوانه، ويعرفنا بطرق محاربته ويضعه في حجمه الحقيقي تصحيحًا لعقائد المجوس.

-أمته بتاريخها -وأكثر صفحاته ناصعة البياض فلا تجاريها أمة أخرى في جهادها

---

(١) يقول نجم الدين البغدادى: "إن العالم على ثلاثة أضرب: عقل محض كالملائكة، وشهوة محضة كالبهائم ، ومركب من الأمرين، وهما الثقلان. فالطرفان لا مشقة عليهم؛ أما الملائكة فلعدم الشهوة المعارضة لعقولهم، وأما البهائم فلعدم التكليف. والثقلان (الجن والأنس) واسطة عليها المشقة لتنازع العقل والشهوة في مراديهما. فيبعث الإنسان بينهما كالمخلص بين متخاصمين".

ص ٢٠٤ من كتاب الانتصارات الإسلامية في علم مقارنة الأديان -نجم الدين البغدادي الطوفى (٧١٦ هـ)- تحقيق د/ أحمد حجازي السقا - مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣م.

وتضحياتها وبذلها الأنفس والنفائس، لا لغرض إلا لتكون كلمة الله هي العليا آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر -لا للسيطرة أو الاستعمار أو استعباد الشعوب وقهرها وسلب خبراتها والاستعلاء عليها.

-وربما يندهش ويتعجب الباحثون والمراقبون من غير المسلمين، ولكننا لا نفعل [(١)]، إنهم لم يتنبهوا إلى أن الأمة الإسلامية هي ثمرة الإسلام، كانت تقود حضارة العالم في حالة قوتها وازدهارها، وظل الإسلام هو درعها تقاوم بها أعداءها، وهي في حالات الضعف وتكالب الأمم عليها، وآية ذلك انتصار المجاهدين الأفغان الدال على أن عرق الأمة ما زال -بالرغم من ضعفها- ينبض بقوة ليطرد عنها الأعداء.

-وحري بالعالم الإسلامي أن يواصل دعمه لهذا الجهاد العظيم، ويستفيد من آثاره لتقوية حركة الصحوة وامتدادها إلى الجمهوريات الإسلامية الواقعة تحت نير الاستعمار الروسي؛ لأن حركة المقاومة قد بدأت ولابد من استمرارها، إذ لا يخفى أن حملات القمع تشتد لأن أهلها مسلمون، وأكد كبيرهم ذلك عندما صرح بأن معضلاته اثنان: الإسلام والأزمة الاقتصادية.

-كذلك يعطينا الإسلام التصورات الكاملة عن الحياة الآخرة؛ لأنها الحياة الحقيقية ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فاقتضت طبيعتها وصفها وصفًا دقيقا كاملا لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وعرفنا بها، ترغيبا في حياة النعيم المقيم، وتحذيرًا من الجحيم.

* * *

وإننا لعلى يقين من أن أي باحث يستخدم العقل المجرد والضمير الحي في مراجعة ما قررناه بالأدلة، فسيسهل عليه رؤية الحق والإذعان له.

وإذا كانت الأديان هي موضوع دراستنا، فإن واقع العصر الذي نعيشه الآن، يفرض علينا تناول بعض الظواهر البارزة بالعرض والتحليل:

---

(١) ينظر كتابنا (الصحوة الإسلامية: عودة إلى الذات) دار الدعوة بالإسكندرية.

سقطت أقنعة المذاهب والأيديولوجيات [١]، وظهرت الوجوه سافرة، فلم يعد يخفى على المتابع للأحداث العالمية الأخيرة عودة العقائد الدينية مرة أخرى شرقًا وغربًا وراء التصريحات والتحركات والقرارات السياسية، وتحول الصراع من مجال المذاهب إلى مجال الدين.

إن هذه الظواهر الطارئة على العصر في السنوات الأخيرة -وما زالت تتوالى- لا تكاد تخفى على أحد، منها: استرداد الكنيسة لسلطانها الذي فقدته منذ بدء النهضة وقيادتها لمجريات الأمور السياسية، [٢] ومحاولة استرداد دورها الذي فقدته منذ الثورة الفرنسية، وحملات التبشير [٣] ونشاط الاستشراق كطلائع للغزو العسكري في البداية، ثم استمراره تغذية الغزو الثقافي والحرب الفكرية، والكتابات العدائية المغرضة ضد الإسلام

---

(١) ومن مظاهر تهاوي المذاهب والنظريات أننا رأينا الماركسية يكيل لها أتباعها الطعنات في مواطن قاتلة، وعلى رأسها إباحة تعدد الأحزاب وإقامة السوق الحر، والسماح للكنائس بأداء دورها والانفتاح على الغرب.. ونتساءل: أين القوميات الآن وفي مقدمتها (العربية) التي استخدمت طوال سنوات لطعن الوحدة الإسلامية، وضرب الإسفين بين الأمة الواحدة؟ وأين الحياد الإيجابي وهناك في كشمير يذبح المسلمون ويقتل أبناؤهم وتنتهك أعراض نسائهم على أيدي الهندوكيين، وتتسرب أيضًا أنباء مفجعة عن اضطهاد المسلمين في الصين.

وفي أوروبا المتحضرة التي ترفع شعار الحريات وحقوق الإنسان، كشفت عن نفسها حيث كانت تعني (الإنسان الغربي وحده) وها هي مذعورة ترفع رايات التحذير من الإسلام والمسلمين، لا لسبب إلا بدافع الحقد المتوارث من الحروب الصليبية!

(٢) أمر بابا الفاتيكان في أواخر إبريل ١٩٩٠م بعقد اجتماع غير عادي لكبار الأساقفة في روما لبحث الموقف في أوربا الشرقية، وصرح بأنه يجب على الكنيسة أن تسعى لملء هذا الفراغ على المستوى الرسمي. (مجلة المختار الإسلامي العدد٩١ المحرم ١٤١١- أغسطس ١٩٩٠ م ص ٧٥).

(٣) كتب (رايتي دافيد) على أثر اعتناقه للإسلام يقول: (كانت المدارس والمعاهد التي درست بها تحارب الإسلام وتحاول صدنا عن سبيله) ص ٩١، وعرف التبشير ببلاده أنه (التعرض للمبادئ الإسلامية والتنكر للقرآن). أي أن نشاط المعاهد التبشيرية لم يقتصر على البلدان الإسلامية؛ بل كان دأبها في أوربا السيطرة على العقول. ص ٩٧ من كتاب (الإسلام يتحدى المذاهب والأديان) محمود حمدي الجريسي ط دار التراث العربي ١٩٧٦م.

والرسول ﷺ [١] وتحريك العملاء وتشجيع الأقلام الحاقدة لتنفث سمومها لإجهاض حركة اليقظة الإسلامية، والتحام المذهب البروتستنتي في النصرانية مع الصهيونية لإنشاء وتدعيم إسرائيل على أساس عقيدة دينية، تغذيها أحلام توراتية يشترك في الإيمان بها كل من اليهود والنصارى البروتستانت ومعظمهم من الأمريكيين [٢]، ويأتي التطور الأخير غير

(١) ويؤسفنا أن هيئة اليونسكو انضمت إلى زمرة المهاجمين للإسلام، وخانت بذلك رسالتها. (انظر التفاصيل بكتاب: مفتريات اليونسكو على الإسلام- محمد عبد الله السمان- المختار الإسلامي ١٣٩ هـ - ١٩٧٦م).

(٢) وهناك أيضًا نحو أربعين مليون أمريكي يؤمنون بعقيدة معينة تسمى (عقيدة العصر الألفي السعيد) وخلاصتها أن الله قد وعد بني إسرائيل أن تقوم لهم في آخر الزمان دولة، وهم يؤمنون أن يوم القيامة سيأتي، ومن الخير أن يأتي يوم القيامة سريعًا، بعده ستقوم معركة بين قوى الخير وقوى الشر، وأن المسيحيين سيبتهجون عندما تنتصر قوى الخير، وتتم إبادة كل اليهود، وتسود المسيحية. ص ٦٧ - ٦٨ من كتاب (العرب وإسرائيل- شقاق أم وفاق) للأستاذ أحمد ديدات وترجمة علي الجوهري- ط دار الفضيلة بمصر ودبي ١٩٩٠ م.

وإذا تتبعنا مواضع التحام المذهب البروتستانتي بالصهيونية، فسنلاحظ أنه أثر الخطوات السياسية المتدرجة نحو إنشاء إسرائيل وتدعيمها، وكان معظم الزعماء السياسيين المسئولين عن ذلك في بريطانيا وأمريكا من البروتستانت.

وآية ذلك أن مارتن لوثر مؤسس الحركة قد وصف بأنه شبه يهودي أو نصف يهودي، واعتبرت المبادئ البروتستانتية في القرن السادس عشر بمثابة بعث (عبري) أو يهودي. وحتى عندما تغير موقف لوثر من اليهود كتب يقول: (من الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى أرضهم في يهودا؟ لا أحد. إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون لرحلتهم لا لشيء إلا لنتخلص منهم. إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا).

وفي ظل الاستعمار البريطاني لبلدان العالم العربي والإسلامي، كان مارك سايكس -الذي تحول للصهيونية وأحد مساعدي لويد جورج- القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين والتي أدت إلى وعد بلفور، ثم أعطت معاهدة "سايكس بيكو" فلسطين هوية جغرافية لأول مرة في التاريخ الحديث.

كذلك فإن التعليل الصحيح لانحياز أمريكا لإسرائيل لا يقتصر على اللوبي الصهيوني، ولكن يرجع إلى تغلغل الأفكار العريضة للصهيونية في التفكير الأمريكي، فأثمرت شخصيات لعبت دورها بدافع عقائدي- أمثال ترومان وكارتر الذي كانت خلفيته البروتستانتية وآراؤه الدينية مرتبطة بسياسته- =

المتوقع من قبل- أي زوال العداء بين المعسكرين الشيوعي والغربي، والتكتل العدائي نحو الأمة الإسلامية الذي بلغ أشده في هذه الأيام.

كذلك لم يعد بمقدور أحد أن يشكك في تحول اليهودية إلى دين سياسي يغذي الإسرائيليين بأحلام إقامة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، واتخاذ بروتوكولات حكماء صهيون دليلاً للعمل، ووضع محتويات العهد القديم والتلمود موضع التنفيذ للسيطرة على العالم، فإن هذه البروتوكولات «موجودة في المعابد اليهودية في كل أنحاء العالم، بما في ذلك مصر، وأن حاخامات المعابد يحفظونها عن ظهر قلب؛ ولأنها بروتوكولات سياسية فإن الحاخام يشرح الكثير منها في أيام السبت دون أن يذكر أن هذه هي البروتوكولات»(١).

هذا، وإذا كان الإسلام في غير حاجة للدفاع عنه كما أسلفنا، فإننا سنلتزم- كأحد طرفي الاستدلال- بالموازنة بينه وبين غيره من الأديان، سواء أكانت وضعية أو سماوية، وعندئذ ستظهر مزاياه تباعًا كلما انتقلنا من مبحث إلى آخر، وسيتضح بجلاء الإشعاعات المضيئة للآية الكريمة: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا**﴾ [الفتح: ٢٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في ٧ من المحرم سنة ١٤١١ هـ

٢٨ يوليو سنة ١٩٩٠ م.

= ينظر كتاب (الصهيونية غير اليهودية -جذورها في التاريخ الغربي) تأليف ريجينا الشريف وترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز- سلسلة عالم المعرفة - ١٤٠٥هـ ١٩٨٥ م الكويت (٩٦) صفحات ١٨- ١٩- ٤٥- ٤٧- ١٦٩- ١٧٠- ٢٠٤- ٢٧٥).

وقد كتبت في مقدمة بحثها تقول: «وحتى نضع الأمور في نصابها، سنبين كيف أصبح التيار الخفي للحضارة والثقافة الغربية ملوثًا بالأساطير الصهيونية الملوثة، سواء الدينية منها أو العلمانية، ص ١٨.

(١) (الإرهابيون الأوائل -جيراننا الجدد) ص ١٨، وجيه أبو ذكري -المكتب المصري الحديث بالقاهرة ١٩٨٧ م. وقد جاء هذا التصريح على لسان طبيب أسنان يهودي مقيم في مصر ورفض الهجرة إلى إسرائيل.

تمهيد

«الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد».

فإن ظاهرة «التدين» قد اجتذبت الكثير من العلماء والباحثين في مجال العلوم الإنسانية لتحليلها وتأصيلها، وبيان أوجه الاختلاف بين العقائد والأديان، إما بمنهج تاريخي، أو بمنهج مقارن، أو بمنهج تحليلي لبيان النشأة والتطور، وعلاقة العقائد بينها وبين بعض بالتأثير والتأثر.

ولاشك أن علم «مقارنة الأديان» قد حقق نتائج باهرة تجعلنا في موقف أفضل من أهل القرون السابقة، حيث ظهرت كثير من الأبحاث والدراسات والمخطوطات والأديان، ولعل في مقدمتها التساؤل عن أي العقائد والأديان أحق بالاتباع؟، وتزداد أهمية السؤال إذا عرفنا أننا نعيش عصر العقائد الدينية بعد فشل الأيديولوجيات.

وإذا ثبت إخفاق الأيديولوجيات [1] بسبب عدم تلبيتها لحاجات النفس الإنسانية، أو تحقيقها للسعادة المرجوة على مستوى الجماعات والأمم وفشلها في تحقيق النتائج المنتظرة عندما ثبتت في أذهان أصحابها، بعد ذلك كله يحق للعقيدة الدينية أن تتربع على عرش القلوب، وأن تتخذ منهاجًا لتحقيق الحياة الطيبة للأفراد والمجتمعات، وفي عصر حضارة متأزمة تضخمت بالمشاكل وأصبح أهلها يضجون بالشكوى. فأي دين أحق أن يتبع ليحقق السعادة المرجوة؟

لنتفق -أولاً- على التعريف المتكامل للدين في ضوء الدراسات التي أجراها المتخصصون في هذا الميدان.

يعرف الدكتور محمد عبد الله دراز الدين بأنه «الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة» - هذا من حيث هو حالة نفسية. ومن حيث حقيقة خارجية فهو «جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم

---

(١) ينظر كتابنا (الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة) ص ٧٠- ٧٤- ط. دار الدعوة بالإسكندرية - ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

طريق عبادتها) [1].

والدين الحق بهذا التعريف لا تجده متحققًا إلا في الإسلام، ونضيف القول بأنه ليس مجرد فكرة أو فلسفة، وليس طقوسًا وعبادات روحية منقطعة الصلة بطبيعة الإنسان، ومكوناته العاطفية، وغرائزه ووجدانه، ولكنه يجمع في إطاره الكامل عقيدة التوحيد مع جانب تنظيم أنشطة الإنسان في ميادينها المختلفة في الأسرة والمجتمع والدولة، وباقي الأمم في علاقته بغيره في شئون الاقتصاد والمال وقواعد الحكم السياسية، ومبادئ السلوك والأخلاق في العلاقات الإنسانية كلها، مع تعريفه بالسنن الإلهية، وحكمة خلقه كإنسان له مكانته وهدفه ومصيره بالمقارنة بباقي المخلوقات التي تشاركه حياته الدنيوية؛ لأنه أكرمها.

أضف إلى ذلك تصويب نظرة الإنسان إلى نفسه ومكوناته الروحية والجسدية وتعريفه بالحياة الدنيا وطبيعتها والغرض منها كدار ابتلاء، ومعبر للحياة الآخرة الخالدة، وضم كل هذا كتاب ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾، ونفذت تعاليمه وأحكامه وتشريعاته بواسطة خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب ٢١]. كما قامت طائفة من أمته -وستظل إلى قيام الساعة- ظاهرة على الحق لا تنحرف عنه ولا تغير ولا تبدل في أصوله وأحكامه أو تعاليمه.

وسنرى بمشيئة الله -تعالى- أن دراستنا ستجيب على التساؤلات التي تدور في خلد الإنسان، وهي كثيرة ومتشعبة مثل: «ما هو مبدأ هذا الكون ومصيره؟» هل هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة؟ فإن كانت فما هي طبيعتها؟ وما هي تعليماتها ووصاياها في هذه الحياة؟، ثم ما هي مكانة هذا الكون من حيث المجموع؟ ومن الذي يديره بمثل هذه الدقة والنظام والحكمة البالغة الشاملة والقانون المحكم المتين، وما هي صفاته وصلته بالإنسان وماذا ينبغي للإنسان أن تكون علاقته به؟ وهل هناك قانون خلقي عدا قوانين الطبيعة الدائرة في العالم، فإن كان فما هي تفاصيله، وما هي مكانة الإنسان الصحيحة ومنصبه في هذا الكون؟ هل هو حر طليق لا يتقيد بقيود وأحكام أم هو تابع محكوم؟ هل هو مسئول أمام

---

(١) د. دراز الدين ص ٢٥ (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) -دار القلم- الكويت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م.

أي قوة ومحكمة أخرى، أم أنه حر طليق لا مسئولية عليه؟ ثم ما هو أسمى مطلوبه [١]؟

ومن معالم منهجنا أيضًا التحقق من حقيقة «التطور» الذي يردده الغربيون عن حضارتهم باعتبارها تعبر عن أرقى الحضارات وأكثرها تطورًا، حيث نرى أن التطور الصحيح لا يقتصر على التقدم العلمي التكنولوجي فحسب، بل ينبغي أن يصاحبه أيضًا «تطور» عقائدي وأخلاقي. وإذا بحثنا في عقائد القوم نراها قد ثبتت على عقائد الشرك والوثنية للأديان المحرفة أو الوضعية، أو بمعنى أدق هي امتداد لها، ومن ثم فإن العقائد قد انتكست من «التوحيد» الذي أتى به الأنبياء والرسل عليهم السلام. ولا سبيل للتطور الإنساني الحقيقي إلا بالعودة إلى الارتقاء إلى عقائدهم الموحي بها من الله عز وجل.

إن عالم اليوم يعيش في «ردة» حقيقية عن الدين الإلهي الصحيح إذ خضع الإنسان بإرادته إلى مذلة وهوان عبادة غيره من الكائنات، بينما في الأصل هي مسخرة ومذللة له، ولنلقي نظرة إلى القارة الأسيوية أيضًا ذات الكثافة السكانية الهائلة، وفي مقدمتها اليابان المتقدمة علميًا وتكنولوجيًا، «فقد عبد اليابانيون مظاهر الطبيعة والأسلاف. وما «الشنتوية» إلا مزيج من عبادة الشمس ومظاهر الطبيعة وعبادة الأسلاف وعبادة الامبراطور المسمى «ابن السماء» [٢].

والبوذية التي تعمل على جذب الكثيرين من الأوروبيين والأمريكيين بحثًا عن غذاء للروح في الشرق، هذه البوذية عبارة عن ديانة هندية انتقلت إلى الصين، ونعجب للإنسان المتحضر المعاصر الذي ينزل إلى درك عبادة صنم، إذ من المعروف أن في «لاسا» معبداً بوذياً فيه تمثال بوذا من الذهب الخالص، والمعبد محلى بأغلى الجواهر ويعبد هذا الصنم ويحج إليه من قبل من يعبدونه [٣].

---

(١) أبو الحسن الندوي: بين الدين والمدنية ص ٩ مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ /١٩٨٥م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفار عطار- ج ١ ص ١٨٥- ط مكة المكرمة ١٤٠١ هـ ١٩٨١م.

(٣) نفسه ص ١٧٥/ ١٨٢.

الفصل الأول

منهجنا في البحث

وإذا وصفنا الإسلام بأنه ليس فلسفة. فإننا نعني بذلك اختلافه عن فلسفة الفلاسفة منهجًا وموضوعًا، حيث يبني الفلاسفة أفكارهم على تأملات محضة وتصورات شخصية فيختلفون فيما بينهم أشد الاختلاف، ومهما وصلوا من نتائج وحققوا من نظريات ومذاهب فإنها سرعان ما تخفق عند التجارب، لأنها صادرة عن عقول إنسانية وهي -مهما أوتيت من ذكاء وعبقرية- قاصرة عن فهم حقيقة الإنسان وما يحقق له السعادة أو يسبب له الشقاء، وما فشل الأيديولوجيات- وهي ألوان من الفلسفات والنظم من ابتكار واضعيها- إلا دليل ساطع على قصور العقل البشري عن وضع الأنظمة للحياة الإنسانية، وها نحن نحيا واقع الماركسية المنهار.

ونخلص من هذا أن بني آدم في حاجة إلى مصدر آخر للمعرفة، ونظم الحياة خارج نطاق العقل الإنساني وأسمى منه، وهذا ما نعنيه بالوحي الذي أتى به الأنبياء والرسل عليهم السلام [(١)].

وربما نحتاج إلى وقفة لنميز بين «الفلسفة» كنتاج إنساني كان ثمرة الفكر اليوناني القديم والأوربي الحديث، وبين «الاستدلال العقلي» الذي يعتمد على البديهيات والأوليات المنطقية، ويستخدمه المسلم المعاصر متحررًا من آصار الفكر الفلسفي الذي فرض علينا فرضًا عقب الاستعمار الأوربي.

أجل فقد فرضت أوربا المنتصرة أرسطو «أستاذاً للفكر الإنساني إلى يومنا هذا دون أن ينتبه أحد إلى أن تعاليم «الأستاذ» أو «المعلم الأول» لم تنجب إلا جنرالاً فاتحًا مستعمرًا وغازيًا، وإمبراطورية قامت على أنقاض الاستقلال وحرية وإرادة الشعوب.. إلا

---

(١) يعرف أسبينوزا النبوة بقوله: (النبوة أو الوحي هي المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شيء ما) ص ١٢٣ ونحن لا نقره على آرائه الأخرى عن الأنبياء، ولكن يكفينا إقراره بأن الوحي معرفة يقينية، وبذلك يختلف عن (الظن) عند الفلاسفة. كتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) ترجمة تقديم د/ حسن حنفي- ومراجعة د/ فؤاد زكريا- المطبعة الثقافية ١٩٧١ م.

أن هذا العمى لم يكن عن غفلة وإنما لكي يتبع، وهو أيضًا الذي صاغ جوهر الفكر الغربي ومفاهيم الحضارة الغربية عن الخير والشر والإنسان وحقوق الإنسان.. فالحرية والتحرر والعدل.. إلخ لا تتعارض في المفهوم الغربي منذ أرسطو إلى اليوم مع غزو واسترقاق أو حتى إبادة البرابرة «أي شعوب الشرق» ومن يومها والحضارة الغربية تؤمن بأن رسالتها الإنسانية، ونشر الحضارة يتطلب إدخال «المتخلفين» عنوة تحت سيطرة هذه الحضارة. فقد كان حلم الإسكندر كما يؤرخه الغربيون إلى اليوم، وعلى سبيل الفخر ومدح الإسكندر بأنه كان (أول زعيم عالمي يأمل أن يتوحد العالم يومًا تحت حكومة واحدة)[١].

يقتضي التحرر الحقيقي -إذن- أن نتخلص من الاستعباد العقلي والثقافي الذي كبل المسلمين لعدة أجيال، ومن ثم يصبح هدفنا الأول هو التحرر الحقيقي بالعودة إلى الذات، ومعرفة حقيقة أمتنا ورسالتها بناء على المعرفة الصحيحة لعقائدنا بالمقارنة بغيرها.

ولتحقيق هذا الهدف فأمامنا طريقان:

الأول:

الخضوع لحقائق الوحي والعمل على ضوئه، بدل الفكر الفلسفي بقصوره وضعفه وأهوائه الذي فرض على مناهجنا التعليمية، وأقحم على ثقافتنا أيام الهيمنة الاستعمارية.

الثاني:

اتباع المنهج العلمي الصحيح لمقارنة الأديان الذي خطه علماؤنا، وسبقوا به غيرهم فاعتمدوا على حقائق الوحي الإلهي فحافظوا عليه وصانوه بأدق مناهج علمية عرفتها البشرية، وميزوا بين الدين الحق وغيره؛ -فإننا- كما يحدد ابن حزم- «لا نصدق في ديننا بشيء أصلاً إلا ما جاء في القرآن، وما صح بإسناد الثقاة، ثقة عن ثقة، حتى يبلغ إلى رسول الله ﷺ فقط، وما عدا هذا فنحن نشهد أنه باطل»[٢].

---

(١) مقال بعنوان (المواجهة الأبدية بين الإسلام والغرب)، محمد جلال كشك مجلة (رسالة التوحيد) ص ١١ ربيع ثان ١٤٠٦هـ القاهرة.

(٢) الفصل ج ١ ص ٢٢٤ مكتبة المثنى - بغداد.

وأتى ابن الجوزي «٥٩٧هـ» بعد ابن حزم ليؤكد ضرورة الاستناد على الأدلة في البحث عن الدين الحق -لا على مجرد العادات وتقليد الآباء، فالبدليل أن نميز في الشرائع بين ما يصح وما لا يصح، وإذا أثبتنا الإله، فينبغي أن نعرف بالدليل ما يجوز عليه مما لا يجوز[١].

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٢٤٩ تحقيق (عبد القادر عطا) مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٩م.

العودة إلى العقائد الدينية من جديد

قلنا إن فشل الأيديولوجيات يعني أن الفكر البشري -الذي أثمر الماركسية والوطنية والديمقراطية والقومية وغيرها- عاجز عن تحقيق الحياة المحققة للإنسان سعادته، ولا سيما بعد أن أخذت هذه الأيديولوجيات أشكالاً جديدة في النصف الأخير من هذا القرن، كما يصفها الدكتور رشدي فكار.

وما دامت التجارب التي استغرقت عدة أجيال قد باءت بالفشل، فقد عادت البشرية إلى العقائد الدينية من جديد، وأصبحنا نعيش في ظل «اليقظة الدينية»، حيث تتطلع المجتمعات الإنسانية إلى ما هو خارج عن نطاق العقل، والتجارب التي خضعت للأهواء والمصالح، ولم تعد تعبر عن قيم ومعنويات.

ويذكر الدكتور رشدي فكار «أن الأيديولوجيات أخذت تتجه أكثر فأكثر في الدولة المتقدمة إلى «المصلحية»، بمعنى أنه لم يعد لها هدف قيمي إنساني بقدر ما هي مجرد تبرير لمصلحة أي نفع استهلاكي أو ريع إنتاجي» ويقول: «لنتدبر ونعمق النظر في المجتمعات الصناعية الكبرى.. تجرى الانتخابات تلو الانتخابات وتنتصر شعارات على شعارات وحقائق المجتمع هي هي.. المحافظون والعمال في إنجلترا، الديموقراطيون والجمهوريون في الولايات المتحدة، وحتى في المجتمعات التي تزاول ما يسمى بالديمقراطية المباشرة في ظل النظم الموجهة نجد أيضًا أن الأيديولوجيات تبريرية مصلحية» وهكذا، إلى أن يوضح في النهاية أن القضية تحولت إلى مجرد شعارات.

ويختتم عبارته بقوله: «ومستودعات الشعارات موجودة تخرج منها الشعار المناسب للوقت المناسب»[(١)].

وإذا كان الدين هو الذي يتقدم في العصر الحاضر لكي ينقذ البشرية من أزماتها، فأي دين يحمل الرسالة الصحيحة المحققة لأهداف الإنسان في هذه الحياة وما بعدها؟

إننا نحتكم إلى العقل وأحكامه في إثبات الوحي والنبوة، وما يتصل بهما من بناء عقائدي وأخلاقي يرتقي بالإنسان إلى المكانة اللائقة به، ويضع لـه الأنظمة في مسالك حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الكفيلة بتحقيق الحياة الطيبة في هذه الدنيا.

ولنصل إلى نتائج في هذا الغرض علينا أن نتدرج في تقديم البراهين، واضعين نصب

---

(١) د/ رشدي فكار: الشباب وحرية الاختيار. ص ٩ (كتاب المختار) بدون تاريخ رقم (٤) سلسلة (نحو طلائع إسلامية واعية).

أعيننا اجتياز المراحل الثلاث الآتية:

(١) نظرية المعرفة ووسائل الإدراك الإنساني:

إذا كانت المعارف والعلوم الدنيوية تحتاج إلى التجارب القائمة على الحس والمشاهدة والعقل، فهل تسري على الحقائق الدينية نفس الوسائل؟

تتطلب الإجابة على هذا السؤال تشخيص وسائل الإدراك الإنساني لكي نقتنع بأن القضايا الدينية تسمو بحقائقها ووسائل إدراكها الأرقى والأوثق من الحس والمشاهدة والعقل.

ومن المقرر بين العلماء أن علم الإنسان «جزئي: زمنيًا فإنه حادث لم يكن من قبل فإنه لا يدوم ولا يبقى، بل يزول بأضداده، وبآفات: مثل بطلان الحاسة والنسيان. وجزئي في البعد والمسافة، لا يرى ولا يسمع إلا من قريب، ولا يرى إلا المقابل. وجزئي من حيث المتعلق، لا يعلم الإنسان إلا بالصورة والمثال »(١).

هذا فيما يتعلق بوسائل الإدراك، أما عن المصدر فإن الله -تعالى- هو خالق الإنسان، وهو سبحانه الذي علمه ما لم يعلم.

يقول الأستاذ جار الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] أن علم الإنسان وعلم الملك بالأسامي فقط، أما الحقائق فلا يعلمها لا بشر ولا ملك، لأن التعليم والإنباء لم يتعلق إلا بالأسامي في الآية الكريمة (٢).

وما دامت وسائل الإنسان قاصرة عن معرفة الحقائق، وفي قمتها عالم الغيب فلابد من وسائل أخرى للمعرفة، بما يدخل في نطاق عالم الغيب.

ثم جاء العلم الحديث ليدعم فكرة قصور وسائل الإدراك في الإنسان مما ينبثق عنه ضرورة وجود عالم آخر، ومن ثم فقد المحتجون بالعلم إنكار عالم الغيب أمضى أسلحتهم،

---

(١) موسى جار الله: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة -ص ١٢: ١٣/ ط لاهور- باكستان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م. ويقول ابن خلدون (واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادئ رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه) ثم يضرب أمثلة بالأصم والأعمى وينتهي إلى تقرير أن إدراكاتنا مخلوقة محدثة، وخلق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقًا من ذلك، والله من ورائهم محيط..) الفصل العاشر- في علم الكلام.

(٢) موسى جار الله: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة -ص ٩- علم الملك: (نوع من الإدراك وليس المقصود به الأسماء).

إذ لا يستندون إلى دليل «علمي».

ويقرر (وحيد الدين خان) أن مقولة أنه لا إيمان إلا بالمشاهدة مقولة مجردة من النظرة العلمية، ثم يستطرد فيرى أن «القول بأننا لن نؤمن بالآخرة والوحي والإله ما لم نشاهدها بأعيننا في وضح النهار.. أن كل ذلك مخالف للعلم الحديث، فإنه لأول مرة في التاريخ المعلوم حدث أن العلم الإنساني أثبت بنفسه أن «علم الإنسان محدود»، وأنه سيظل «محدودًا».

ثم يبين أثر ذلك على الإيمان الديني حيث يريد الإنسان الوقوف على حقيقة الكون، ولكنه يعجز بسبب محدودية إدراكه، مما يدل على أن الإنسان يحتاج مرشداً أعلى «وبتعبير آخر: إن هذا الاعتراف الذي أثبته العلم أكد ضرورة الرسل والرسالات السماوية للإنسانية كلها»[1]، وذلك كما رأينا سبب قصور وسائل الإدراك الإنساني.

ونحن نرى أن الإقرار بهذه النتيجة الواقعية الملموسة لا يتعلق بعصر دون آخر، ولا بأمة دون أخرى، بل هي ثابتة في تاريخ الإنسان قديمًا، وثابتة في واقعه المعاصر، كذلك فإنها تتعلق بالإنسان بما هو إنسان، أي: خارج حدود الأوطان والقوميات والحضارات.

وما دام تاريخ البشرية المدون قد أثبت وجود الرسل والأنبياء بالتواتر وآخرهم موسى وعيسى ومحمد، صلوات الله عليهم، فإن المصدر الأصلي للدين الصحيح هو الوحي، وليس خيالات الفلاسفة الزاعمين التلقي عن طريق الإشراق، أو الاتصال بالعقل الفعال، ولا تنبؤات الكهنة الذين أفسدوا العقائد والأديان.

وإذا اتضح ضرورة الوحي كمصدر للعقائد الدينية الصحيحة ومتعلقاتها من معارف يقينية، وأوامر ونواهي إلهية لتقويم الإنسانية، فما هي عوامل الانحراف عن الدين

---

(١) وحيد الدين خان: قضية البعث الإسلامي. المنهج والشروط. ص ١٤٩ دار الصحوة -ترجمة محسن عثمان الندوي -ومراجعة د/ عبد الحليم عويس - ١٤٠٥ هـ /١٩٨٤م. ينظر أيضًا كتاب (السموات السبع) للدكتور/ محمد جمال الدين الفندي حيث يقول: (إذا لم تعد الغيبيات التي نعبر عنها بعالم ما وراء الطبيعة من الأشياء المنبوذة علمياً، أو التي يمجها العلماء، كما كان الحال من قبل، خصوصًا وأن العلم يعجز عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وعن كشف اللثام عن أصل الأشياء وكنهها) ص ٩ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م.

الصحيح، وأشكاله التي نراها في المجتمعات؟

(٢) بعض عوامل انحراف الأديان وأشكاله:

إن ما يثير التأمل عند الحديث عن الكهنة « أو رجال الدين الزاعمين بأنهم وسطاء بين الله والناس» أن بعض الانحرافات في العقائد الدينية أفسدت بسبب هؤلاء.

(أ) فقد قالوا العبارة المشهورة: الكاهن نائب الله، والملك ظل الله في أرضه»، والأمثلة على ذلك نلاحظها في الهند حيث كان الإله تحت اسم «برهما»، ولكن انحدرت العقيدة هنالك إلى الظن بأن «برهما» حل في "الرهماثان»، وهو رئيس الكهنة حلولا وراثيًا يتوارثونه بعد الكاهن الأعظم من يحل محله. وبتوالي الأجيال أصبحت هذه الطبقة أعلى من غيرها، ثم اخترعوا نظام الطبقات.

ولما جاء «بوذا» ليحارب نظام الطبقات ثم مات، ظهر الكائن الذي ينوب عنه «ولم يقف الأمر عند هذا الحد أيضًا، بل أقيم لبوذا تماثيل وأصنام تعد بالآلاف، وطبعًا حلت روح بوذا- ليس في الكاهن فقط -وإنما في الكاهن والصنم» [١].

(ب) ومن فكرة الحلول انبثقت عقيدة تناسخ الأرواح والشرك في آن واحد حيث تحل روح الميت المقرب للكهنة -وهو مقرب بالضرورة للآلهة- في جسد نقي طاهر، «بعكس الأشرار الذين ليسوا بكهنة وأبناء كهنة، فإن أولئك يتقمصون أجساد الحيوانات» [٢].

كذلك نرى تجسيد تميز طبقة دينية على غيرها سلطانًا ونفوذًا، نراه في النظام الكنسي الذي يوسط رجال الدين بين الله والعباد، حيث جاء الإسلام بإبطاله.

يقول جارودي: «لقد استبعد القرآن على سبيل المثال ملكية الحق الإلهي الاستبدادي، بالمعنى الغربي للكلمة؛ لأنه لا يوجد في الإسلام كهنة ولا كنيسة مؤهلة

(١) الدين والفلسفة والعلم - السيد محمود أبو الفيض المنوفي ص١٠١ ط. دار الكتب الحديثة بالقاهرة (بدون تاريخ).

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٢.

جارودي: الإسلام دين المستقبل ص ٨٤- ترجمة عبد المجيد بارودي -دار الإيمان-بيروت / دمشق ١٩٨٣م.

قانونيًا بالتكلم وبالحكم باسم الله»[١].

(ج) ويلحق بالكهنة أيضًا المتنبؤن الكذبة [٢] وهم أحد منابع الفساد في الأديان، حيث يزعمون أنهم كالأنبياء، وأنهم يأتون بالخوارق والمعجزات ويفتنون الأتباع بأعمال السحر وخوارق العادات.

وكان ذلك دافعًا لعلماء الإسلام من تحذير المسلمين من فتنتهم، ونذكر منهم على سبيل المثال (ابن تيمية) الذي أوضح بإسهاب الفروق بين الأنبياء وبين الكهان والسحرة وغيرهم، نجملها باختصار فيما يلي:

أولا:

يخبر الأنبياء بالصدق، ولكن الكهان يكذبون.

ثانيًا:

أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل ولا تفعل إلا العدل، وهؤلاء المخالفون لابد لهم من الظلم.

---

(١) ويقول المهتدي إلى الإسلام أحمد سامي عبد الله: (ولقد تركت الركوع للمسيح وبعض البشر من الكهنة والأساقفة والبطاركة والقمامصة الزاعمين أنهم أكثر قرابة إلى الله وأنهم الوسطاء في مغفرة ذنوب البشر..) ص ٢٧ من كتابه (لماذا وكيف أسلمت) ط. رابطة العالم الإسلامي ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

وينظر ص ١٤٤ الكهنة والعامة -التحليل والتحريم بين البشر.

(٢) وبعض دجاجلة الصوفية، وتحت عنوان (الغش والتدليس في الديانات) يذكر ابن تيمية ألوانا منها، ويضيف إليها الذين يظهرون الخزعبلات السحرية والشعبذة الطبيعية وغيرها التي يضاهي بها ما للأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات ليصد بها عن سبيل الله أو يُظن بها الخير فيمن ليس من أهله. ص٥٤ من كتاب (الحسبة ومسئولية الحكومة الإسلامية) -تحقيق صلاح عزام- دار الشعب فبراير ١٩٧٦م.

كما ينطبق التحذير أيضا على كلّ من يخالف طرق الأنبياء والرسل في العصور المختلفة، بما في ذلك العصر الحاضر، كما سيأتي، وإذا كان جلّ نقد شيخ الإسلام مقتصراً على ما عرفهم في عصره كشخصيات الكهنة والمشركين وأهل البدع من أهل الملل، فقد ظهرت شخصيات أخرى، لا تتبع نفس الطرق والحيل، ولكنها تشترك مع أسلافها في الهدف والمرمى، حيث تصرف الشعوب والأمم عن طريق الأنبياء والرسل، وتدعو لاتباع مذاهبها وفلسفاتها ونظمها المخترعة.

ثالثًا:

تأتي آيات الأنبياء دالة على خبر الله -تعالى- وأمره على حكمه، فتدل على أنهم أنبياء، وعلى صدق من أخبر بنبوءتهم، سواء كانوا هم المخبرين أو غيرهم، ولكن السحر والشعوذة التي يأتي بها الكهان أمر معتاد لغير الأنبياء.

رابعًا:

لو افترضنا جدلاً أن آيات الأنبياء والنبوة تنال بالاكتساب، فإنما تنال بعبادة الله تعالى وطاعته، وهي مستلزمة لالتزام الصدق والعدل، بينما تحصل الخوارق لمخالفيهم مع الكذب والإثم.

خامسًا:

إن أفعال الكهان والمشركين أمور مقدورة للإنس والجن، وآيات الأنبياء يقدر على مثلها لا الإنس ولا الجن، كما قال تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء: ٨٨].

سادسًا:

إمكان معارضة ما يأتي به السحرة والكهان، وآيات الأنبياء لا يمكن لأحد معارضتها.

سابعًا:

تأتي آيات الأنبياء مؤيدة لصدق أصحابها، وتأتي آيات مخالفيهم دالة على كذب أصحابها.

ثامناً:

إن آيات الأنبياء لا يقدر عليها مخلوق -حتى الصالحون- أي أن آيات الأنبياء التي يختصون بها خارقة لعادة الصالحين.

تاسعًا:

لا تأتي خوارق الأنبياء بناء على أفعالهم، بل الله -تعالى- يفعلها آية وعلامة لهم،

فأمر الآيات إلى الله -تعالى- لا إلى اختيار مخلوق. والله -سبحانه وتعالى- يأتي بها بحسب علمه ومشيئته ورحمته كما ينزل ما ينزله من آيات القرآن، وكما يخلق من يشاء بحسب علمه ومشيئته ورحمته كما ينزل ما ينزله من آيات القرآن، وكما يخلق من يشاء من المخلوقات. ولكن الخوارق ليست آيات، فتارة تكون بدعاء العبد، والله -تعالى- يجيب المضطر- وإن كان كافرًا، وتارة تكون بسعيه في أسبابها مثل توجهه بنفسه وأعوانه وبمن يطيعه من الجن والإنس في حصولها، وأما آيات الأنبياء فلا تحصل بشيء من ذلك.

عاشرًا:

أن النبي قد خلت من قبله أنبياء يعتبر بهم، فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء من عبادة الله -تعالى- وحده، والعمل بطاعته والتصديق باليوم الآخر، والإيمان بجميع الكتب والرسل، فلا يمكن خروجه عما اتفقت عليه الأنبياء. وأما الكهان والسحرة والمشركون، وأهل البدع من أهل الملل، فإنهم يخرجون عما اتفقت عليه الأنبياء. فكلهم يشركون مع تنوعهم، ويكذبون ببعض ما جاء به الأنبياء.

حادي عشر:

أن النبي هو وسائر المؤمنين لا يخبرون إلا بحق، ولا يأمرون إلا بعدل، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، ولا يأمرون بالفواحش ولا الظلم ولا الشرك، ولا القول بغير علم، فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها، فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول، الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول.

وكما أنهم لا يختلفون، فلا يناقض بعضهم بعضًا، بل دينهم واحد- وإن تنوعت الشرائع -فهم أيضًا موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلة العقلية الصحيحة التي كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم، وآيات الله السمعية والعقلية العيانية والسماعية كلها متوافقة متصادقة متعاضدة، لا يناقض بعضها بعضًا، والكهنة يأتون بخلاف ذلك [١].

---

(١) النبوات ص ٣٠٠- ٣٠٣ -المطبعة السلفية بمصر.

تكفينا إذن هذه الموازين أو بعضها لنستخدمها في التمييز بين الرسل وأتباعهم من هداة البشرية إلى الحق والخير، وبين المضللين أيا كانت صفاتهم وأفعالهم.

ومهما اختلفت شخصيات المعاندين للرسل فإن المعارك ما زالت دائرة، كل ما هنالك أنها تأخذ أشكالاً وصورًا أخرى على مدى العصور: فإذا كان الإمام ابن تيمية يصور المعارك الدائرة في عصره، ويحذر من مدعي النبوة والكهنة الكذبة، فإن الإمام أبا الحسن الندوي في عصرنا الحاضر يحذرنا من صنوف جديدة من البشر تحاول بدورها أيضًا أن تسلك بالأمم والشعوب طرقًا غير طرق الأنبياء والرسل «فليس شقاء الإنسانية وأزمة المدنية الحاضرة، مع تملكها لجميع أسباب السعادة والسلام والرفاهية والهناء -إلا بثورة قادتها على تعاليم النبوة والأنبياء وتخطيطهم للمدنية والحياة -على غير الأسس التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، واستغنائهم وبالأصح استكبارهم -عن ما أكرم الله به النبي العربي الأمي ﷺ» [1].

وفي ضوء هذه الإيضاحات يتحصن المسلم فيميز بين الحق والباطل مهما تعددت صوره، ويفلت من خداع الكهنة والدجاجلة وأمثالهم الذين يفتنون الناس بحيل الدجل والسحر.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رأي فريد أيضًا في تفسيره لدعاء الاستعاذة من المسيح الدجال في الصلاة أثناء التشهد الأخير، وكأنه يريد به التحذير الشديد من كافة الدجاجلة المشابهين للدجال المعني بالحديث -وهو كبيرهم- ويتوسع في تعميم فتنته، فيجعلها تشمل كل باطل مخالف للشريعة ومقرون بباطل فيقول «وفتنته لا تحصى بالموجودين في زمانه» بل حقيقة فتنته الباطل المخالف للشريعة المقرون بالخوارق، فمن أقر بما يخالف الشريعة لخارق، فقد أصابه نوع من هذه الفتنة، وهذا كثير في كل زمان ومكان، لكن هذا المعين

---

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، الندوي ص ١٠ ط المختار الإسلامي سنة ١٩٧٤ م. ويذكر الإمام الندوي السمات التي يتميز بها الأنبياء:

١ – علومهم مصدرها الوحي ٢- قيامهم بتصحيح العقائد وإفراد الله تعالى بالعبادة.

٣- التشديد على جانب الآخرة. ٤- الإيمان بالغيب. ٥- البعد عن التكلف نفس المرجع ص ٣١، ٣٥،٤٢، ٤٧، ٥٢.

فتنته أعظم الفتن، فإذا عصم الله عبده منها، سواء أدركه أو لم يدركه كان معصومًا مما دون هذه الفتنة، ويمضي فيحذرنا من صنوف البشر المدعين للألوهية أو النبوة أو الولاية أو المهدية [١] ويستند إلى حديث الرسول ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يكون فيكم ثلاثون دجالون كذابون، كلهم يزعم أنه رسول الله»** [٢].

(٣) عقيدة التوحيد هي الأصل:

إذا عدنا لتناول العقيدة الدينية وبيان نشأتها، فمن اليسير استنتاج أن عقيدة التوحيد هي الأصل، ثم طرأ «الشرك» على البشرية، وكلما انحرفت عن طريق التوحيد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل لتذكير بني آدم مرة جديدة بعقيدة التوحيد.

ومما يؤيد ذلك قصة الخلق في القرآن الكريم، حيث يذكر الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وكان نبيًا، وهو أول من سكن الأرض من البشر.

وعندما انتكست المجتمعات وتدهورت، أخذت في عبادة المخلوقات الأخرى فعبدوا الشمس لظهورها الدائم والمنافع التي تعود عليهم منها، وما زالت تحتل مكان القداسة عند اليابانيين، إذ يعتقدون أن «الميكادو» تجسيد لإله الشمس، كما عبدت بعض المجتمعات السماء؛ لأنها تحتوي على الشمس والقمر والنجوم، ومنها يسقط المطر. والبعض عبد الأرض لأنها تنبت الزرع ويعيشون عليها [٣].

كذلك عبدوا الإنسان في شخصية الأب -أولاً- لأنه رمز النعمة والقدرة، ثم تحولت إلى عبادة رئيس القبيلة لأنه أكبر قوة وقدرة، وعبد قدماء المصريين فرعون مصر، كما يذكر القرآن الكريم ﴿**فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ [الآيتان ٢٣، ٢٤] من سورة النازعات. وإلى يومنا هذا ما زال ملك اليابان معبود الكثير من أبناء شعبه.

---

(١) بغية المرتاد ص٤٨٣ تحقيق د. موسى بن سليمان الدوين مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

وأصل الدّجل: التغطية والتمويه والتلبيس ص ٤٨٥.

(٢) جامع الرسائل ص ١٩٧ تحقيق د/ رشاد سالم رشاد والحديث رواه البخاري ومسلم. كما رواه الإمام أحمد في (المسند).

(٣) الإيمان بالغيب -بسام سلامة- مكتبة المنار بالأردن ص٤٤ - ط ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

ويقول الأستاذ أحمد عبد الغفور: «ومن أثر عبادة الإنسان الباقية على المتدينين تقديس البطولة والعظمة، فهو مظهر يتفق مع التقدم الحضاري، ومن آثارها عبادة «المعشوقة» التي نجد في آثار الشعراء في عصرنا من يقول لها في أشعاره أو كتابه أو خطابه: أنا عبدك، معبودتي [(١)].

إن هذا التدرج في العبادة، أو بمعنى أدق «التدني» من الأعلى إلى الأدنى، تتضافر على تأييده الوقائع التاريخية، بالإضافة إلى التفسير النفسي للظاهرة، وكان مؤرخنا الشهرستاني من أوائل من تعرض لها بالتحليل [(٢)].

فبعد أن أرخ الشهرستاني لبعض ديانات الهند، حيث ذكر أن منهم من عبد الشمس زاعمين أنها ملك من الملائكة، ولها نفس وعقل، ومنها نور الكواكب وضياء العالم، ثم اتخذوا لها صنمًا.

ومنهم من زعموا أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة وينسبون إليه تدبير هذا العالم السفلي، والأمور الجزئية فيه، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات، ثم اتخذوا له صنمًا يعكفون عليه.

وقام الشهرستاني بدراسة الصلة بين عبَّاد الأصنام وأصول العقائد وتفسيرها تفسيرًا نفسيًا، حيث وضعوا الأصناف المعبرة عن معبود غائب، إذ الصنم المعمول على صورته وشكله وهيأته نائبًا منابه وقائمًا مقامه.

وفي هذا الصدد يقول: «وألا فنعلم قطعًا أن عاقلاً ما، لا ينحت جسمًا بيده، ويصوره صورة ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وإله الكل وخالق الكل. لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، وكان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها. وعن هذا كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] [(٣)].

أما عن الانحدار عن عقيدة التوحيد التي أتى بها الأنبياء والرسل، فيرجعه باحث

---

(١) باختصار من كتاب (الديانات والعقائد في مختلف العصور) -أحمد عبد الغفور عطار- ص ٧٢: ٧٣ج١ - ط١٤٠١هـ/ ١٩٨١م/ مكة المكرمة.

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل - ج٢ ص٢٥٩ تحقيق محمد سيد كيلاني ط الحلبى ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

معاصر إلى أن سبب نشر لواء الوثنية يرجع إلى الجهل الذي أصاب الأجيال تلو الأجيال بعد أن بث فيهم «سام ابن نبي الله نوح عن شيث وإدريس فأضاعوها لما طال عليهم العهد، فضلوا السبيل الإلهي المرسوم» (١).

وهناك من يدافع عن الوثنية بزعم أنها تعبر في مرحلة ما عن حاجة البشر الفطرية، ثم تتعداها إذا ما نضجت البشرية وبلغت سن الرشد، فحينئذ يستغني الإنسان عن الوثنية، فتصبح التماثيل علامات ورموزاً (٢).

ولكن سرعان ما يتهافت هذا الرأي أمام الواقع الماثل أمام دارس العقائد والعبادات في المجتمعات الوثنية التي ما زالت تعض على الأصنام بالنواجذ، حيث يعكف الناس عليها بإصرار بصفتها الأهداف النهائية لعبادتهم ولا يتخطونها إلى مرحلة التوحيد، كما يتخيل بعض الفلاسفة، «لذلك كان ما حكاه الله -تعالى- عن إبراهيم عليه السلام من قول وشكوى، حقًا ومنطبقًا كل الانطباق على عبّاد الأوثان والأصنام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] .. أنها استحوذت على عقول عبادها، وألهتهم عن عبادة الواحد القهار، فتشاغلوا بها عنه، وحُرموا سعادة عبادة الله ولذتها، فكان ذلك هو الضلال المبين»(٣).

وتتنوع مظاهر الانحدار والتردي التي يسجلها الباحثون المعاصرون: فلم يعد يثير سخريتنا ما سجله التاريخ عن بعض العرب الذين كانوا يأكلون آلهتهم إذا أصابتهم مجاعة، إذا علمنا أن في الحبشة الآن قبيلة «القالا» تعبد السمك ثم تأكلهن فضلاً عن عبادة «البقر» في الهند(٤).

ونتوقف قليلاً عند عبادة الحيوانات بأنواعها وما تركته من رموز أشهرها

---

(١) من كتاب الدين والفلسفة والعلم للسيد محمود أبو فيض المنوفي - ٤٩.

(٢) الأركان الأربعة للإمام أبي الحسن الندوى ص ٧٦ دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٨٧م.

(٣) نفسه باختصار ص ٧٧.

(٤) الديانات والعقائد في مختلف العصور ص ٧٤ ويقول المؤلف (وفي عصرنا هذا يعبد (الكانجارو) في استراليا، والخرتيت ذو القرن الواحد وعجل البحر والثعابين عند أقوام البوشمن بصحراء كلهاري، وقبائل في تسمانيا وعند كثير من الأسكيمو.

«الطوطم» وأصله عبادة الحيوان «وما تزال الطوطمية موجودة حتى عصرنا هذا في قبائل متفرقة في آسيا وأفريقيا وأمريكا، وفي كثير من الجزر في المحيط الهادي وفي استراليا» (١).

ولم تنحصر في هذه الأجزاء المتفرقة من العالم ،بل بقيت في شكل «شعارات» في بيئة الإنسان المتقدم المتحرر «التي نراها في بعض دور النشر والجماعات والجمعيات والدول، حيث يتخذ الحيوان شعارًا لها، فهذه تتخذ دبًا وتلك نسرًا وهكذا» (٢).

مناقشة منهج التطور في نشأة العقائد الدينية:

وهذه الظواهر وغيرها تدعونا إلى مناقشة منهج «التطور» في العقيدة الدينية الزاعم بأن الإنسانية تطورت من «الحياة البدائية التي تحكمها عبادة الأصنام وتحوطها ألوان الشرك والوثنية» إلى التطور إلى «التوحيد»، حيث يذهب فريق من الباحثين في تاريخ الأديان إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه حتى وصل إلى الكمال بالتوحيد، كما تدرج في العلوم والصناعات، ومن هؤلاء: سبنسر وتايلور وفريزر ودوركيم، ويقابله فريق آخر من الباحثين يرى أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر، والوثنيات هي أعراض طارئة (٣).

ونحن نرجح الرأي الثاني عن اقتناع بالأدلة العلمية التي ساقها الدكتور دراز في بحثه المبتكر عن «الدين»، وهي ذات ثلاث شعب:

أولها:

التحليل النفسي، حيث يؤدي إلى بيان خطأ وضع قوى النفس المختلفة في حياتها الروحية والمادية في نموها على قدم المساواة معًا؛ لأن المشاهدة المتتبعة لمراحل حياة الإنسان تستخلص أن الإنسان كان في بدايته يقنع بإشباع حاجاته الضرورية من مأكل ومشرب ومأوى، ودفعته قلة مشاغله، ووفرة وقته إلى التأمل الذي يرهف حاسته الدينية،

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٨١.

(٣) الدكتور دراز الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) ص ١١٢ ط دار الفكر العربي (بدون تاريخ).

بينما نرى اشتغال الناس في عصور المدنيات بترف الحياة الجثمانية يؤدي إلى العكس «ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص، بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها، ككفتي الميزان: لاترتفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى» (١).

الثانية:

إن استقراء سير الديانات -منذ طفولة التاريخ إلى اليوم- يبين أن كلاً منها بدأت بعقيدة التوحيد النقية، ثم خالطتها الأباطيل، مما يدل أن البداية خير من النهاية.

الثالثة:

إذا بحثنا الظاهرة في ضوء التطور الصحيح -كالفن مثلاً- نجد أنه يبدأ في صورة ساذجة، متحدة، متجانسة، ثم تتدرج إلى التكثر والتركيب وتنتقل من البساطة إلى التعقيد كلما بعدت عن الأصل؛ فإذا طبقنا هذا القانون على العقيدة الإلهية يستوجب أنها بالمثل «سارت أيضًا من الوحدة إلى الكثرة، ومن النقاوة والسهولة واليسر إلى التعقد، بالإضافة الأسطورية، والنزوات الخيالية التي لا ضابط لها من العقل السليم» (٢).

ونضيف إليها الواقع المعاصر الذي يوصف دائمًا بالتطور الحضاري، حيث بلغ الإنسان ذروة التقدم في القرن العشرين الميلادي.

وللحكم على مدى صحة هذه المقولة نعود لتذكر حالة العرب في الجاهلية وقبل الإسلام، حيث سادت عبادة «الأصنام» والسؤال الوارد في الذهن الآن: هل تخلص الإنسان المتطور الذي يعيش في القرن العشرين من الأصنام؟

يرى جارودي أن هناك أصنامًا في العصر الحديث لها قدسية في النفوس تشبه أصنام العرب في الجاهلية، ولكنها لون جديد من الأصنام، يحصرها في «التنمية» و«التقدم» و«الفردية» و«تمجيد الأمة، أصنام القوة المسلحة والجيوش الجرارة، وغيرها من أصنام وطوطم ورموز مقدسة، وطقوس واحتفالات» بينما جاءت عقيدة التوحيد في الإسلام

(١) المرجع نفسه ص ١١٥: أي أن إنشغال الإنسان بأسباب الترف في معيشته يضعف من حاسته الدينية، ومن ثم فلا تتطور، بل تتراجع، ولا تظل في مكانها، وذلك بخلاف قانون التدرج في العلوم والصناعات.

(٢) المرجع نفسه ص ١١٦.

لتنفي كل «صنمية» لأنها الأساس والمنطلق لدى المسلم المؤمن بأنه «لا إله إلا الله» [١].

وعلى ضوء هذا التحليل -مرورًا بعوامل أخرى سيأتي ذكرها- يصبح التطور الحضاري الغربي بميزان الدين الصحيح -دين التوحيد- موضع شك كبير بل إن بعض فلاسفتهم -فضلا عن جارودي- يعطوننا صورة قاتمة تجعلنا نتتبع عللها غير القابلة للعلاج، فهي تبدو في شكلها الظاهر متطورة من الناحية العلمية والتكنولوجية، ولكنها مهلهلة الأحشاء، منهارة الأعصاب، متجهة نحو الانحدار، ولن تفر هذه الحضارة « من المصير الكئيب الذي أصاب عشرات الحضارات السابقة، ويأتي الأدب الحديث ليقول لــه -أي الإنسان الغربي- بأن الاختلال العصبي هو مصير إنساننا الذي يعيش في هذا القرن، وكذلك فإن الهزيمة لابد منها، بشكل أو بآخر، ويسخر علم النفس منه، ويؤكد لــه، أن الثقافة سطحية، يكمن في داخلها إنسان بدائي «ليس متطورًا» ينتظر الانطلاق للسيطرة [٢].

وظهرالحنين إلى العودة إلى الدين المسيحي من جديد؛ لأنه لعب دورًا كبيرًا في الماضي «ولم تكن عذابات «الصلب» التي تربعت في صدر المسيحية مصادفة بل كانت تقدم مستوى تحكم فيه على المضايقات التافهة للحياة اليومية » [٣].

ولكن هل يمكن للعقيدة المحرفة التي اصطبغت بالصبغة الإنسانية أن تنقذ هذا الإنسان؟

ويشاركه الإمام الندوي الرأي، حيث يرى أن أوروبا اتخذت آلهة كثيرة بأسماء طريفة وعناوين جديدة من «ديمقراطية» و« ودكتاتورية» و«رأسمالية» و«اشتراكية» و«وطنية» و«قومية» عبر ثلاثة قرون. ص ٣١ من كتابه: رسالة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين.

يبدو أن الفرصة قد أفلتت، وأن المشكلات أعقد بكثير من القدرة على الحل،

---

(١) جارودي: (ما يعد به الإسلام) ص ٢٦٧.

(٢) كولن ولسن: ما بعد اللامنتمي ص ١٨٩ - ترجمة يوسف شورو وعميمق- منشورات دار الآداب -بيروت- إبريل سنة ١٩٨١م.

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٣.

حيث يرى كولن ولسن أن من المتوقع أن تصف الأجيال الآتية النصف الأول من هذا القرن بأنه «عصراللامعنى»، ففقدان المعنى والهدف يجثم على أدبنا وفننا وفلسفتنا، هذا الشعور العام بأن التأكيدات التي يمنحها الدين قد ضاعت ولا يمكننا استبدالها، فتحليل العلم للمشكلات العلمية يزيد في اتساع هوة الفراغ المؤلم، ومن خلال هذا تبدو الثقافة الغربية تعاني الانهيار والانتكاس لما لا يقل عن مائة سنة، إذ أن الأمر ليس إلا مسألة تفكير في معرفة المدة التي تستمر فيها قبل أن يلتهمها الإفلاس الماحق» [(١)].

ولنتأمل هذه الصورة المعتمة التي رسمها كولن ولسن كصدى للإخفاق والإحساس بالتشاؤم في المواضيع المتصلة بالعقائد الدينية، وهو يقصد المسيحية المحرفة بالذات، حيث فقد الإنسان في الغرب الهدف من الحياة مع شعوره بعدم الأهمية، وأن تجاربه المعنوية صعبة وقصيرة لا يستطيع الاحتفاظ بها. وإذا قومنا هذه النتائج بميزان الدين الصحيح، نرى أن العقيدة في الإسلام توضح الأهداف والغايات، ويجد الإنسان فيها الإجابات على كل ما يدور في الذهن عن مكانته ومعنى الحياة والمصير، ودور شعائر العبادات والتفسير للمعضلات التي تعجز عن حلها المذاهب الفلسفية فضلا عن الأديان المحرفة، ومن ثم تجعل الإنسان يصمد ويثبت ويمضي قدمًا إلى الحياة المأمورة في الآخرة وهي الغاية والهدف، فإن الإسلام قادر «على أن يجيب عن كل سؤال في كل قصة إنسانية وأخلاقية واجتماعية وسياسية واقتصادية وفلسفية» [(٢)].

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥، ويصف حضارته في موضع آخر بأنها حضارة متقدمة تنتج عوامل انحطاطية أكثر خلال الملل وفقدان الهدف ص ١٧٤، واستعرض الوسائل الحائلة للسقوط، حيث اقترح (برنارد شو) الدين وكذلك (أرنولد توينبي) ثم يذكر أن (الدوس هكسلي) أقرب إلى الحقيقة حين اقترح ضرورة (تعميم المخدر . ص ٢٠٠- كذلك كان (وليم جيمس) يؤيد أن الخمر تنتج خبرة غامضة إلى حد ما ص ٢٠٩، ثم يفاجئنا المؤلف في الوقت نفسه عندما يخصص ملحقًا لكتابه ليستعرض قيه (تجربة المخدر).

والأمر المفجع بحق أن ذكر المخدرات لا تأتي في شكل آفات اجتماعية مستهجنة ومرذولة، بل مدمرة للأفراد والمجتمعات، ولكن في صياغة فلسفية مقننة يعتمدها فيلسوف كبير، ويسجلها كاتب ذائع الصيت، وتعلن على الملأ كطريقة من طرق الإنقاذ (الملحق الأول من ص ٢٢٩: ٢٢٥).

(٢) ديانات أخرى، أنيس منصور ص ١٠١ ط دار الشروق ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

ونكتفي بإيضاح بعض الاستفسارات التي تدور حول أبرز القضايا التي تهتم بها الأديان:

أولا: أهمية مكانة الإنسان:

عرّف علماء الإسلام التصور الصحيح لحقيقة الإنسان ودوره في الحياة المبتدأة بخلق آدم ﷺ، ثم إهباطه إلى الأرض ابتلاء واختبارًا، وكيف تتحقق سعادته الدنيوية بتطبيق شريعة الله -تعالى- التزامًا بأوامرها وتنفيذًا لأحكامها وارتفاعًا بمستواه الإنساني إلى العمل بمكارمها، حتى ينتقل من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، ويعود أدراجه إلى موطنه الأصلي -إذا اجتاز الابتلاء الدنيوي بنجاح- أي: إلى الجنة.

وإذا أخذنا برأي الراغب الأصفهاني «متوفى ٤٠٢هـ» الذاهب إلى القول بخلافة الإنسان لله -تعالى- في الأرض، فإننا نجده يضع شروطًا حيث يميز بين مكارم الشريعة والعبادات؛ لأن الإنسان لا يستحق مقام «الخلافة» إلا بتحري مكارم الشريعة، وتبدأ مكارم الشريعة بطهارة النفس بالتعلم للتوصل إلى الجود، والصبر ليدرك الشجاعة والحلم، والعدالة لتصحيح الأفعال.

وبعد استكمال هذه الدرجات فإنه أصبح المعني بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]، وصلح لخلافة الله عز وجل [(١)].

فأين هذه المكانة التي سعى المسلمون لتحقيقها في أوج حضارتهم، وما زالوا مطالبين من إحساس الإنسان «العصري» الذي يشعر بعدم الأهمية وأنه «صدفي طارئ»؟[(٢)].

ثانيًا: ضرورة الأسوة في اجتياز الحياة الدنيوية:

وقد مر بنا أن مما يعاني منه الإنسان الغربي، أن تجاربه المعنوية صعبة وقصيرة ولا

---

(١) الراغب الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٩- ط مكتبة الكليات الأزهرية - مراجعة وتقديم طه عبد الرءوف سعد ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

(٢) ما بعد اللامنتمى ص ٢٠٧ وهذا التعريف ليس بآخر التعريفات التي تخبط فيها الفلاسفة من قبل، دعنا من آثار أفكار داروين وفرويد على نظرة الإنسان إلى نفسه وجنسه! ونلاحظ أن فلسفة ما، لم تصب في تعريفها للإنسان ووضعه في مكانته الصحيحة اللائقة به حقًا منذ أرسطو إلى الآن.

يستطيع الاحتفاظ بها، ومرد ذلك إلى افتقاد القدوة في السلوك والأعمال واجتياز العقبات في طريق الحياة.

ولتقريب معنى القدوة، وفهم دورها في ضوء علم النفس، نضع أمام القارئ رأياً لأحد علماء النفس المعاصرين، حيث يرى أن «المثل الأعلى الصائب» هو من الناحية السيكولوجية، ذلك الذي يستطيع جلب التوافق النفسي، باجتذاب الانفعالات الغريزية جميعًا، وهو الذي يستطيع باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك أن يصيب الفرد باعتباره وحدة سيكولوجية في قارب كائن حي، وهو الذي يضمن تحقق الذات والسعادة، وذلك بإشباع السعي إلى الاكتمال.

إن حيازة مثل أعلى أو غرض في الحياة لهي إذن أهم الأمور الضرورية للإرادة القوية والخلق المتزن (١).

وكانت المسيحية المبدلة لا تحمل في طياتها الشخص الأسوة في الأعمال الواقعية للإنسان في هذه الحياة، وتقتصر على جانب الزهد فحسب، أو كما يعبر عنها شوبنهور بقولــه: «أما المسيحية فرأت في الدين رادعًا عن الطلب غير المجد للسعادة الدنيوية. وقد استمسكت في وسط الترف والسلطان الدنيويين بالمثل الأعلى للقديس»(٢).

ولعلنا ندرك عند المقارنة مدى كمال الإسلام حيث يستوفي القدوة في شخص الرسول ﷺ، حيث يغنينا بسنته عن محاولة التجارب التي تقصر حياتنا عن الخوض فيها.

وهنا يرى الأستاذ محمد أسد المهتدي إلى الإسلام «ليوبولد فايس قبل إسلامه» أن من حكم اتباع السنة تمرين الإنسان المسلم بطريقة منظمة على أن يحيا دائمًا في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس، فإن هذا الانضباط السلوكي وفقًا لسنته يؤدي إلى التخلص من الأعمال والعادات العفوية التي تعرقل النشاط الإنساني عن التقدم. يقول محمد أسد: « إن الأعمال والعادات التي تقوم عفو الساعة، تقوم في طريق التقدم

---

(١) هادفيلد: علم النفس والأخلاق ص ١١٥: ١١٦- ترجمة محمد عبد الحميد أبو العــزم، ومراجعة د/ عبد العزيز القوصي مكتبة مصر سنة ١٩٥٣م.

(٢) ويل ديورانت: قصة الفلسفة -ترجمة أحمد الشيباني ص ٥٧٧- منشورات المكتبة الأهلية- بيروت.

الروحي للإنسان كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة»[(١)].

فهل لنا أن نقف على سبب آخر من أسباب كمال الإسلام، حيث تفتقد العقيدة المسيحية المبدلة شخصية الرسول القدوة، بل تخلط بين النبوة والألوهية؟

هذا، بينما تنفرد سيرة الرسول ﷺ بسمات رئيسية بارزة تميز عن سائر الرسل؛ لأنه آخر رسول للبشرية إلى قيام الساعة، وهو وحده الذي يظل أسوة في كل مسالك الحياة الإنسانية ودروبها المتشعبة.

والسمات التي نعنيها هي:

(أ) إن التاريخ الصحيح يؤيدها ويدل على صحتها.

(ب) أنها جامعة ومحيطة بمناحي الحياة كلها وجميع شؤونها وأطوارها. وبهذه المناسبة يفصح لنا جارودي عن أحد أسباب إسلامه بقوله:

«لأنني وجدت أن النبي ﷺ الذي أتى بهذه الرسالة، ليس نبيًا فقط بالمعنى التقليدي، الذي وجد في الأديان الأخرى، ولكنه كان أيضًا رئيس دولة وقائد جيش وزوجًا ومشرعًا وقاضيًا.. كل هذه الجوانب التي تعددت وشملت كل نواحي الحياة الاجتماعية»[(٢)].

(جـ) أنها كاملة متسلسلة لا ينقصها أي حلقة من حلقات الحياة.

(د) وهي عملية بحيث يعبر بها عن الفضائل والواجبات[(٣)].

ثالثًا: العبادة: معناها ودورها:

ويعطينا الإسلام أيضًا صورة متناسقة تبين العلاقة بين مكونات الإنسان في خلقه من طين، ثم نفخ الروح فيه ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ**

(١) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق -ص ١٠٤- ط دار العلم للملايين- بيروت- ترجمة د/ عمر فروخ.

(٢) الفيلسوف المسلم أبو المجد حرك ص ٢٢٧ دار الفتح مدينة نصر سنة ١٩٨٥ م (رحلة الفكر والحياة).

(٣) الرسالة المحمدية: سليمان الندوي ص ٤٢ ط السلفية.

وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧-٩].

لذلك أصبح في حاجة إلى نوعين من الحياة: **أحدهما** إشباع الاحتياجات والغرائز البدنية **والأخرى** إشباع الروح المتطلعة شوقًا إلى أصلها بالعبادة. ويصفها الراغب الأصفهاني «(٤٠٢هـ)» بقوله : «هي فعل اختياري منافٍ للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله -تعالى- طاعة للشريعة»[١].

أما دورها فهو المحافظة على الفطرة التي خلق بها الإنسان المشار إليها بقوله تعالى: **﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾** [الروم: ٣٠] وقوله عز وجل **﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾** [البقرة: ١٣٨]، والاستفهام في الآية للإنكار والنفي، فلا صبغة أحسن من صبغته -تعالى- ويتساءل الراغب الأصفهاني «فكيف تذهب عنا صبغته ونحن نؤكدها بالعبادة، وهي تزيل رين القلب فينطبع فيه صورة الهداية »[٢].

وترتفع العبادة إلى أرقى مراتبها عندما يحب الإنسان أن يتحرى بها ابتغاء مرضاة الله تعالى: ويؤديها بانشراح صدر بدلاً من مجاهدة النفس، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**إن استطعت أن تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير**»[٣].

وهناك ميزة تنفرد بها العبادات في الإسلام، إذ أطلقها من عقالها التي قيدها بها رجال الكنيسة في الكنائس والأديرة والكهنة في المعابد، وخرج بها إلى ميدان الحياة الإنسانية بكل شعبها، وليس أدل على ذلك من اتفاق العلماء قديمًا وحديثًا على اتساع دائرتها، فهي لا تقتصر على العبادات الشرعية: من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد، بل تشمل كافة أعمال الإنسان، بشرط توافر النية للاتجاه بها إلى الله -تعالى- مع تحري الحلال وتجنب الحرام.

---

(١) بين النشأتين وتحصيل السعادتين -ص٤٨- من سلسلة الثقافة الإسلامية العدد ٢٨، ذو القعدة ١٣٨٠ هـ إبريل ١٩٦١ م.

(٢) تفسير القاسمي ج ٢ ص ٧٤.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٤.

فمثلا: نجد الراغب الأصفهاني قد جعل من كل فعل يتحراه الإنسان عبادة سواء كان الفعل واجبًا أو ندبًا أو مباحًا، ونجده متوسعًا في الأفعال المباحة لأنه ما من مباح في رأيه إلا وإذا تعاطاه الإنسان على ما يقتضيه حكم الله -تعالى- كان «كالإنسان في تعاطيه عابدًا لله مستحقًا لثوابه»، مستندًا لخطاب النبي ﷺ لسعد رضي الله عنه: «**إنك لتؤجر في كل شيء حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك**»، وعلى هذا الوجه قال ﷺ أيضًا: «**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة**» رواه مسلم. وفي رواية له «**فلا يغرس المسلم غرسًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير، إلا كان لـــه صدقة إلى يوم القيامة**»، وفي رواية «**لا يغرس مسلم غرسًا، ولا يزرع زرعًا فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت لـــه صدقة**»، «يرزؤه أي: ينقصه، وينظر رياض الصالحين للنووي باب: «في بيان كثرة طرق الخير»، ولكنه يشترط في هذه الأعمال، بطبيعة الحال لكي تكون عبادة، مراعاة أمر الله -تعالى- في جميع الأمور دقيقها وجليلها، وأن يتحرى بها حكم الشريعة [(١)].

ويعرّف ابن تيمية العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة: كالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين من الآدميين والحيوانات والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله ﷺ وخشية الله، والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضاء بقضائه والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه. كذلك أدخل ضمنها الإمارة أو الرئاسة «فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها» [(٢)].

ويرى الأستاذ محمد قطب أن الخطأ الأول -والأخطر- الذي ارتكبه المسلمون بعد

---

(١) تفصيل النشأتين ص ٤٨.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ص ١٨٤.

العصور الأولى المفضلة هو حصر العبادة كلها في الشعائر التعبدية، بينما كان يفهم الجيل الأول الحياة كلها على أنها عبادة فيقول: «فلا شيء في حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة التي تنحصر فيها غاية الوجود الإنساني على هذه الأرض، وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة، كلها عبادة، وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها ونطاقاتها. الصلاة والنسك عبادة. والكدح عبادة، سواء كان كدحًا سياسيًا أو اجتماعيًا أو اقتصادياً أو فكريًا أو علميًا.. الخ، والترويح عن القلوب حتى لا تكل ولا تمل عبادة»(١).

هذا هو مفهوم العبادة التي تجعل للحياة الإنسانية معنى، وتحدد لها أهدافًا تستحق من أجلها بذل الجهد وتحمل المشاق والصبر عليها.

أما العبادات التي يخترعها بعض رجال الدين وتصبح من أسرارهم الخاصة، ويؤديها الأتباع بمشقة وعسر أو بغير فهم أو اقتناع، هذه العبادات تصبح موضع دهشة واستنكار. فمما أثار دهشة واستنكار الشهيد أحمد سامي عبد الله «المهتدي للإسلام»، أنه رأى العبادات من وضع القديسين بعد رفع عيسى عليه السلام، وأنها لا تتعدى ترتيلات وأناشيد في أوقات غير محددة، ولا يقابلها ثواب أو عقاب، فضلا عن صعوبة أدائها إذ لا يستطيع تلاوة الصلوات إلا من يجيد القراءة والكتابة؛ لأن حفظها عسير(٢).

---

(١) ينظر كتاب (مفاهيم ينبغي أن تصحح) ص ١٩٤، ٢٠٣، ٢٠٤ ولمزيد من التفاصيل يراجع فصل (مفهوم العبادة) ص ١٧٣ وما بعدها -ط دار الشروق ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

(٢) لماذا وكيف أسلمت؟ ص ١١٨، وفي موضع آخر يصف هؤلاء القديسين بقوله: (كانوا قديسين ضالعين في المسيحية أكثر من المسيح نفسه، إذ أنهم أتموا لـه الدين من بعده فتطوعوا مشكورين بوضع الصلاة الجماعية التي لم يصلها هو ولم يضع أقوالها قبل رفعه إلى السماء، فاجتهدوا هم في وضعها وتنظيم ألحانها، ووضع عباراتها بعد ترك المسيح الأرض بسنين عديدة) ص ٨٩ العدد ٦٥ من (دعوة الحق) الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي شعبان ١٤٠٧ هـ / إبريل ١٩٨٧م.

الفصل الثاني

البرهمية أو الهندوكية (١)

تمهيد:

تفجر العقائد الهندوكية -أو البرهمية- أسئلة كثيرة فتسنح الفرصة للتطرق إلى قضايا دينية لم تخل من تناولها عقيدة من العقائد، سواء كان أصلها سماويًا أو وضعيًا منها: صلة الله -تعالى- بالمخلوقات، والتساؤل عن وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا أم لا.

ومنها: هل يهتدي بنو آدم إلى معرفة الحقائق من غير طريق الأنبياء؟ إذ لو صح الخبر عن إنكار بعض البراهمة للنبوة والأنبياء، فيؤدي بنا إلى العودة في بحث قدرات العقل ومدى إمكان تحمله أعباء أكثر من طاقته وفوق قدراته.

وتتداعى الأفكار للنظر في آراء ظهرت حديثًا لا تقدر النبوة حق قدرها، فتصف الأنبيـــاء والرسل بالمصلحين والعباقرة أو القادة، أو تعطي صفات النبوة لمن تهوى من البشر(٢)».

ومنها: هل تحقق وعيد إبليس ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] الحجر، فها هي مظاهر الغواية متحققة، حيث تحولت شعوب وقبائل عن جادة التوحيد، فألجأتهم إلى عبادة البشر والحيوانات والشمس والقمر والكواكب، وغيرها من الكائنات:

وإن يكن ذلك استجابة لغواية إبليس، فما السبب الآخر المحتمل؟

---

(١) باعتبار الهندوسية (أو الهندوكية) دين متطور ومجموعة من تقاليد الهند وعاداتهم وصور حياتهم. وأطلق عليها البرهمية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما (الإله الخالق) أو القوة العظيمة السحرية الكامنة التي تطلب كثيرًا من العبادات كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين، ومن براهما اشتقت الكلمة (البراهمة) لتكون علمًا على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة، لا تجوز الذبائح إلا في حضرتهم وعلى أيديهم (محمد عبد السلام- فلسفة الهند القديمة- ثقافة الهند مارس ١٩٥٣- ص ١٩)، نقلا عن د/ أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٣٩- مكتبة النهضة ١٩٧٦.

(٢) كما وصف أحدهم في العصر الحاضر بنبي القومية العربية!

هل هو تقليد الآباء والأجداد، أم تعطيل العقل عن التفكير المنطقي بعيدًا عن الهوى؟

ربما كان التحليل النفسي الاجتماعي الذي أداه ابن الجوزي يدلنا على تفسير جزئي لهذه الظاهرة العجيبة فقال: «غير أن هوى القوم في متابعة الأسلاف واستحلاء ما اخترعوه بآرائهم، غطى على العقول، فلم تتأمل حقائق الأمور» (١).

وكانت هناك محاولات للإصلاح، مثل مافعله المصلح الهندي راما كرشنا، إذ رفض الهندوكية، ولم يعد يقدس الجبال والأنهار والحيوانات والأجداد «ولكنه يؤمن بأن العقول والقلوب كلها تتجه إلى قوة واحدة، هذه القوة وراء كل شيء وكل إنسان، وكل دين »(٢).

ولكن تعديلاته كانت جزئية؛ لأنه ظل معتقدًا بوحدة الوجود، فبعد أن درس الإسلام وأقر بأن الإسلام حق، درس النصرانية أيضًا ثم أعلن وحدة الأديان، فهي عنده كلها منسجمة (٣).

ومما يلفت النظر أيضًا في الديانة الهندوكية الاعتقاد بالتناسخ، فتساوي بين مراتب الوجود الإنساني والحيواني وكأنهما نسيج واحد، وسبيكة مختلطة العناصر، فافتقدوا معرفة الروح المميزة للإنسان دون غيره من سائر المخلوقات، وأنكروا البعث والحساب والعقاب في اليوم الآخر.

وتأتي أعجوبة الأعاجيب المتمثلة في عبادة الحيوانات، ومنها البقرة، وسنجد الدفاع الحار عن هذا الفعل المنافي لكرامة الإنسان ومكانته ! وما أصدق وصف ابن الجوزي لأمثال هؤلاء إذ وضعهم في مكانهم المناسب فقال: «وقد كان قوم يعبدون الخيل والبقر

---

(١) صيد الخاطر ص ٣٧٨ تحقيق عبد القادر عطا مكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة ١٩٧٩ م.

(٢) ديانات أخرى ، أنيس منصور ص ١٢٩، ١٣٠ ط. دار الشروق ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ثم انتشرت حركته في أوروبا وأمريكا.

(٣) نفسه ص ١٣١ ومن التعديلات التي أدخلت على الهندوكية ما قام به (ناناك) المؤسس لديانة السيخ، فقد تأثر بالإسلام وأعجب ببساطته وسماحته وأن الله -تعالى- واحد، ولكنه في الوقت نفسه أنكر القيامة ص ٨٤.

وإن هؤلاء لأخس من إبليس، فإن إبليس -أنف لادعائه- الكمال أن يسجد لناقص فقــال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: ٧٦] وفرعون أنف أن يعبد شيئًا أصلا» [(١)].

نماذج من انحدار العقائد من التوحيد إلى الشرك

البراهمة:

لعل من أهم النماذج في هذا الصدد هو نموذج ديانة البراهمة، حيث اجتازت ثلاثة أدوار:

الأول:

دور التوحيد عند الهنود القدماء، وربما انحدروا من الأصل السامي «نسبة إلى سام ابن نوح معلمهم الأول ومرشدهم، وراثة عن أبيه».

الثاني:

دور الكهنة البرهميين ونشأة الثالوث الهندي «برهما، فشنو، سيفا».

الثالث:

دور الشرك والوثنية، حيث اتسع نفوذ الكهنة فأنشأوا الامتيازات والاختصاصات ووضعوا نظام الطبقات، وزعموا أنهم يتفردون بمعرفة الحقائق العلوية، وستروا الحقائق عن الشعب فجنح إلى الشرك وتعدد الآلهة، وانحدر إلى عبــادة الأشخاص والتماثيل والحيوانات[(٢)].

ولعل الأدوار الثلاثة ارتبطت بعقيدة التثليث في الديانة الهندية البرهمية، حيث كانت الديانة في دورها الأول قاصرة على عبادة إله واحد «تحت إرشاد بعض العباد والحكماء المخلصين، يعبدون القيوم، ويسبحونه دون البحث عن كيفية وجــوده أو ماهيــة جوهره» [(٣)].

أما الدور الثاني فقد ظهر فيه الكهنة وأنشأوا الطقوس، وأحدثوا عقيدة الثالوث

(١) السيد محمود أبو الفيض المنوفي: الدين والفلسفة والعلم ص ٤٦، ٤٩.

(٢) صيد الخاطر ص ٣٧٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٦.

الهندي البرهمي: برهما الإله الخالق، وفشنو الإله الحامي للخليقة وسائسها المعمر وسيفا القوة التي تلاشى أو المفني المعيد [١].

وكان الدور الثالث معبرًا عن سيطرة الكهنة وتعميق نفوذهم على الشعب لإبقائه على حال من الجهل والغفلة ليتوصلوا إلى تسلم زمامه والاستعلاء عليه حيث وضعوا أنفسهم في المرتبة العليا من السلم الاجتماعي الطبقي، وجعلوا باقي الطبقات دونهم كما يلي:

-طبقة الكهنة والعلماء:

-رجال الحرب وحماة الأوطان.

-الزراع والتجار.

-أرباب الحرف والمهن الدنيئة وهم المنبوذون [٢].

ونعود فنرى في دور الكهنة -كما بينا من قبل- أحد الأسباب الرئيسية في مسخ العقائد وتغييرها، والانحراف بالبشرية من عبادة الواحد الأحد إلى تأليه الكهنة والوسطاء، ويعبر عن ذلك الاعتقاد بأن برهما حل في «البرهمانات» وهو رئيس الكهنة [٣] ونلاحظ أنه لا مكان للنبوة في عقائدهم، فما سببه؟

نفي النبوات:

ومما يلفت نظر الباحث أن المصادر الحديثة لم تشر إلى أحد المعالم البارزة في عقيدة البراهمة، وهي إنكارهم للنبوات، حيث عرف مؤرخونا- ومنهم الشهرستاني- أبرز عقائدهم، وشرحها بشيء من التفصيل مع اهتمامه -بصفة خاصة- بإنكارهم للنبوات، والرد عليهم [٤].

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٧- وهناك رأي لباحثين آخرين يتلخص في القول بأن هذه الديانة تعبر عن عقائد الآريين، ثم تأثرت بعد احتلالهم للهند بفلسفات وأفكار نشأت في الهند، ثم أصبحت الهندوسية بعيدة عن العقائد الآرية الأصلية (ص ٤٠ أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي).

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٣) المرجع نفسه ص ١٠١.

(٤) يرى الدكتور محمود حماية أن الشهرستاني قد أخطأ في نسبة إنكار النبوة إلى البراهمة، كغيره من المؤرخين كالباقلاني والبغدادي ص ٢٢٧.

يقول الشهرستاني «من الناس من يظن أنهم سموا براهمة؛ لانتسابهم إلى إبراهيم ﷺ، وذلك خطأ، فإن هؤلاء هم المخصوصون بنفي النبوات أصلا، فكيف يقولون بإبراهيم ﷺ؟» ثم يذكر أنهم انتسبوا إلى رجل منهم يقال له «براهم» الذي مهد لهم نفي النبوات مقررًا استحالة ذلك بوجوه، ويمضي فيبين لنا أهم هذه الوجوه، وتتلخص في الآتي:

أولاً:

أن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: إما أن يكون معقولاً، وإما أن لا يكون معقولا. فإن كان معقولاً فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فلا حاجة إلى رسول. وإن لم يكن معقولاً فلا يكون مقبولاً.

ثانيًا:

دل العقل على أن الله -تعالى- حكيم، والحكيم لا يتعبده الخلق إلا بما تدل عليه عقولهم، فننظر في آيات خلقه بعقولنا، ونشكره بآلائه علينا، وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه، وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه، فما لنا نتبع بشراً مثلنا يأكل مما نأكل ويشرب مما نشرب؟ (١).

وكان الشهرستاني بارعًا في الرد عليهم إذا اتخذ من إقرارهم بحكمة الله -تعالى- مدخلاً لإثبات ضرورة النبوة، وحاجة البشرية إلى الرسل والأنبياء؛ لأنه تعالى كما أنه حكيم، فإنه آمر ناه، حكم على خلقه، ولا يحيط العقل بمفرده بالحكم والأسباب والعلل ويستطرد فيقول: «وليس كل عقل إنساني على استعداد ما يعقل عنه أمره ولا كل نفس بشرية بمثابة من قبل عنه الحكمة، بل أوجبت منّته ترتيبًا في العقول والنفوس، واقتضت قسمته أن يرفع ﴿**بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾، [الزخرف: ٣٢]، فرحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة،

وربما قصد الشهرستاني إحدى طوائف البراهمة، وهي ليست وحدها، بل يشاركها في نكران النبوة طوائف أخرى، كالصائبة والدهرية والسمنية ص ٢٢٩/ ٢٣٠ من كتابه (ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان) ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣ م. وعلى أية حال، فقد اهتم علماء أهل السنة بقضية النبوة واحتلت مكانتها بكتب العقائد.

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥١: ٢٥٢- تحقيق سيد الكيلاني- ط. الحلبي ١٣٨١ هـ / ١٩٦١م.

وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المختالة» [(١)].

وقد احتلت قضية النبوة مكانتها في كتب العقائد، واهتم أهل السنة والجماعة بشرحها وبيان تفاصيلها للرد على المخالفين حتى من المسلمين أنفسهم، كالمعتزلة القائلين بوجوب إرسال الأنبياء والرسل على الله -تعالى- بالنظر إلى ذاته حيث يقول السفاريني: «والحق أنه جائز عقلاً في حقه -تعالى- واجب سمعًا وشرعًا» [(٢)]، ثم يبين أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع منّة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك، وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق، والفضل عليهم فبعثه -تعالى- جميع الرسل من آدم إلى محمد ﷺ أجمعين إلى المكلفين لطف من الله بهم ليبلغوهم عنه -سبحانه- أمره ونهيه ووعده ووعيده، ويبينوا لهم عنه -سبحانه- ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد [(٣)].

ويمضي السفاريني فيشرح دور الرسل كوسائط بين الله تعالى، وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، إذ أرشدوهم إلى توحيده -تعالى- وإثبات صفاته وإثبات القدر، وذكر أيام الله -تعالى- في أوليائه وأعدائه وهي القصص التي قصها على العباد، والأمثال التي ضربها لهم، وأرشدوهم إلى العلم بتفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله ويكرهه، وكذلك بينوا لهم وجوب الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب، وكل ذلك لا يهتدي

---

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥٢.

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية (شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية للسفاريني ج ٢ ص ٢٥٦.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٥٩. ويقول ابن تيمية: (وكمن يقول العلم بالنبوة لا يحصل إلا بعد النظر، وأنا لا أنظر، أو لا أعلم وجود النظر حتى أنظر) ومن جواب هؤلاء أن حجة الله برسله قامت بالتمكن من العلم. فليس من شرط حجة الله -تعالى- علم المدعوين بها. ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن وتدبره مانعًا من قيام حجة الله -تعالى- عليهم. وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء وقراءة الآثار المأثورة لا يمنع الحجة. إذ المكنة حاصلة. فلذلك قال الله -تعالى-: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [لقمان : ٧] الرد على المنطقيين ص ٩٩ -المكتبة الإمدادية- مكة المكرمة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م.

العقل إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها.

كذلك استند إلى رأي ابن تيمية في حديثه عن المفاضلة بين العقل والشرع، إذ ليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار، فإن الحيوانات تفعل ذلك ؛بل التمييز بين الأفعال التي تنفع الإنسان في معاشه ومعاده، كنفع التوحيد والعدل والبر والصدق والإحسان والأمانة والعفة والشجاعة والعلم والصبر وأداء الحقوق وإخلاص العمل والتوكل على الله، والاستعانة به والرضا بمواقع أقداره والتسليم لحكمه، وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل المنافع والمضار، بل إنه لا بقاء لأهل الأرض إلا بدوام آثار الرسالة موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض، وانمحت معالم هداهم، خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة [١].

وعلى أية حال، فإن علماء الإسلام كانوا محقين تمامًا في الإفاضة بشرح دور الرسل والأنبياء؛ لأن من العلامات البارزة في الإسلام الإيمان بالرسل جميعًا وخاتمهم محمد ﷺ. ويزداد تقديرنا لاهتمامهم بقضية النبوة إذا علمنا أنه إزاء إنكار النبوات، ظهرت دعوة أخرى لا تقل خطورة في آثارها، وهي إنكار ختم النبوة وظهور أنبياء كذبة.

أما باقي عناصر الديانة البرهمية «أو الهندوسية»، فإنها تحتوي على خرافات وأساطير وعبادة الحيوانات -وعلى رأسها البقرة التي تحتل عبادتها المكانة المرموقة في عقيدة الهنادك حتى الآن- كما سنرى ذلك على لسان غاندي زعيمهم المعروف، بالإضافة إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح والقول بوحدة الوجود، وقبل الخوض في هذه الموضوعات نعرّف -أولاً- بأقدم كتبهم وهي الفيدا».

الفيدا: veda أو الويدا:

يوصف بأنه أهم كتبهم، ولا يعرف تاريخ كتابتها على وجه الدقة، إذ كانت موجودة قبل خمسة عشر قرنًا، وهي مجموعة أشعار يزعمون أن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها [٢].

---

(١) نفسه (باختصار) ص ٢٦٠: ٢٦٢.

(٢) الإمام أبو زهرة: الديانات القديمة ص ٥١.

والفيدا أربعة كتب:

(١) الرجفيدا Rig Veda وهو أشهرها وأشدها سحرًا للهنود وتأثيرًا فيهم وتحتوي على أناشيد مختلفة، منها ما يتصل بأناشيد تناول شراب «سوما» المقدس عند الهنود، خاصة بأساطير وحكايات خرافية.

وتذكر الرجفيدا آلهة كثيرات، منها الشمس والقمر والنجوم والسماء والأرض والشجر والمطر والريح والنور والحيوان.. الخ «وكل هذه الآلهة التي لا تحصى لكثرتها إنما هي في حقيقتها إله واحد، تعددت مظاهره فسمي كل مظهر إلهاً»[١]. وتكمن في هذه الفكرة عقيدة وحدة الوجود.

(٢) ياجورودا Yaiur Veda وتشمل العبارات النثرية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين.

(٣) ساما ويدا Sama Veda وتشمل الأغاني التي ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

(٤) آثار ويدا Athar Veda وتشمل مقالات في السحر والرقى.[٢]

وقد طفحت كتب الفيدا بالأساطير والخرافات. ويصف لنا أحد الهنود المسلمين الذي خاض تجربة البحث عن الحق واهتدى إلى الإسلام فيقول: «لم أجد فيه إلا أساطير الأولين عن عبادة النار والبحر والأحجار وغيرها من الجمادات والبهائم التي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًا، فكيف بغيرها؟ كما يعلل خلق الكون فيها أحيانًا بصورة شنيعة قبيحة تنبعث منها رائحة منتنة يفر منها الإنسان اللبيب»[٣].

ومن النماذج المنفرة والمنافية للعقول السليمة، ما أورده بوصفه جزءًا من الباب الأول لكتاب يعتبر المصدر الأساسي لقانون الهندوكيين الذي يبحث في الخلق ونصه: «إن هذه الدنيا كانت غامضة لا توجد لها علاقة ولا وسيلة وليس في مقدرة أحد أن يتوسل

---

(١) أحمد عبد الغفور: الديانات والعقائد ص ٨٨: ٨٩.

(٢) د/ أحمد شلبي- أديان الهند الكبرى ص ٤٢: ٤٣.

(٣) عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا ج ٢ ص ١١٥- دار القلم -الكويت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.

إليها بالحجج والبراهين، ثم ظهر «بيرميشور» إله الآلهة بمادة التكوين وأراد أن يخلق خلقًا من ذاته، فخلق الماء وألقى فيه نطفة، فصارت هذه النطفة بيضة فخرج منها «برهما» الخالق وكسر البيضة نصفين، فخلق من أحدها الجنة ومن الثاني الأرض والسموات وما بينهما والجهات الثمان والبحور الهادئة، ثم أخرج من فمه «براهمن» ومن عضده كهتري ومن فخذه «ويش» ومن رجله «شودرا»، فما دام براهما مستيقظًا فالدنيا باقية، وإذا أخذه النوم تقوم القيامة» (١).

عبادة الحيوانات - وبخاصة البقرة:

يصف غوستاف لوبون عبادة الهنود للحيوانات والجمادات والإنسان بقوله: «وهيهات أن تجد هندوسيا لا يعبد عددًا من الآلهة، فالعالم عنده زاخر بها حتى إنه يصلي للنمر الذي يفترس أنعامه، ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوربي، وللأوربي نفسه عند الاقتضاء» (٢).

ويرى الأستاذ عباس العقاد أن عبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمي، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى في بعض الأحياء فيحل فيهم يحتمل حلوله في هذا الحيوان أو ذاك؛ أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جدًا قديمًا أو صديقًا عائدًا إلى الحياة (٣).

وتحتل عبادة البقر بصفة خاصة مكانة بارزة بين المعبودات، كما يأتي الحديث عنها وعن قدسيتها، والصلاة لها في كتاب «الفيدا».

وقد أورد الدكتور أحمد شلبي نصوصًا هامة تعبر عن مدى التقديس الذي يكنه الهنود للبقرة في أنفسهم. منها نص الصلاة إلى البقرة كالآتي:

«أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء، في كل مظهر تظهرين به أنت تدرين اللبن في الفجر وعند الغسق، أوعجلاً صغيرًا، أو ثورًا كبيرًا فلنعد لك مكانًا واسعًا نظيفًا

---

(١) المرجع نفسه ص ١١٧.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٣٦٨ نقلا عن أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٢٨.

(٣) الأستاذ عباس العقاد: الله ص ٧٧ نقلاً عن د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٢٩.

يليق بك، وماء نقيًا تشربينه، لعلك تنعمين بيننا بالسعادة»[(١)].

ويقول الأستاذ أنيس منصور[(٢)]:

أما الثور فعلى الرغم من أن أمه بقرة وجدته بقرة، وابنته بقرة أيضًا، إلا أنه ليس محترمًا، وتطبق عليه أقصى أنواع القوانين والعقوبات فهو منبوذ- وفي الهند فئة من المنبوذين عددها حوالي ٦٠ مليون نسمة- ولا أعرف بالضبط عدد الثيران ولكن هذا الحيوان المنبوذ يجر العربات ويحرث الأرض ويضربه الفلاحون، واليد التي تضربه هي نفس اليد التي ترتفع بالتحية لأمه أو لجدته أو حفيدته.

ثم يأتي المهاتما غاندي [(٣)] فيخاطب البقرة ويناديها باسم «أمي البقرة» فيقول: إن حماية البقرة التي فرضتها الهندوسية هي هدية الهند للعالم، هي إحساس رباط الأخوة بين الإنسان، وبين الحيوان، والفكر الهندي يعتقد أن البقرة أم للإنسان وهي كذلك في الحقيقة، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندي، وهي خير حماية للهند.

عندما أرى البقرة لا أعدني أرى حيوانًا، لأني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع.

وأمي البقرة تفضل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائما، ولا تطلب منا شيئاً مقابل ذلك سوى الطعام العادي.

وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن عندما تمرض أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئًا ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حية؛ لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون.

أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم؛ ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة

---

(١) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٣٠.

(٢) أنيس منصور، حول العالم في ٢٠٠ يوم -ص ٤٥- المكتب المصري الحديث -١٩٨٨ م الطبعة الأولى ١٩٦٣م.

(٣) المهاتما= الروح الكبير، ويعني بذلك المفكر العظيم أو الشيخ المبجل.

البقرة.إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعد نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين [١].

ولكن تلميذه «نهرو» اعترض على سجن الناس لأنفسهم طويلاً في طقوس وتعاليم أكلت صحتها ووقتها وطاقتها على العمل، وانشغالهم كثيرًا فيما يجب أن يأكلوه وأن يشربوه، وعن هذا الذي يسمحون لـــه بأن يكون قريبًا يلمسونه أو لا يلمسونه وانشغلوا بالطبقات والطوائف أيها أشرف وأيها أقبح، وتوجه نهرو إلى مواطنيه بالخطاب: «اتجهوا إلى العالم بنفس حماسكم للدين، إنه وحده يخلصكم من ظلام عشرات القرون» [٢].

أما الشاعر الحكيم محمد إقبال، فله موقف آخر يعد دليلا على تهافت الاحتجاج بتقليد الآباء والخضوع لسنن المجتمع الباطلة ما دامت لا تقوى على الصمود أمام النظر العقلي الباحث عن الحق. فمن المعروف إن إقبال نشأ وسط الأوثان وعبادة البقرة، ولكنه رفض اعتناق عقائد هذا المجتمع، واختار لنفسه الطريق السوي، ولهذا فهو حجة أيضًا أمام المتعللين بظروف البيئة والعصر الذين جعلوا لهما قوة أكثر فاعلية من إرادة الإنسان!.

قال محمد إقبال: «إننا وإن ولدنا في بلاد عريقة في الوثنية إلا أننا رفضنا نعبد الثور والبقر، وأبينا أن نطأطئ رؤوسنا أمام الكهان، فلم نخر بين يدي الآلهة القديمة، ولم نطف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء» [٣].

نستنتج من هذا أن الاختيار ما زال قائمًا أمام الإنسان الذي يستطيع بمحض إرادته وبموجب اختياره، إما أن يحترم كيانه ويعرف دوره وهدفه، ويؤكد عزته وكرامته كإنسان ينبغي ألا يخضع إلا لربه -عز وجل، ولا يعبد سواه، أو يغفل عن ذلك كله فيخضع بإرادته لحيوان أبكم، أو صنم أصم، وعندئذ ينطبق عليه وصف الله تعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ**

(١) المرجع نفسه ص ٣٢: ٣٣.

(٢) ديانات أخرى، أنيس منصور ص ١٩ ط دار الشروق ١٤٠٨ هـــ - ١٩٨٨.

(٣) من روائع إقبال: للندوي.

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

التناسخ:

تقوم عقيدة التناسخ -أو تكرار الولادة والوفاة أو تجوال الروح- على أساس فكرة العقاب للذين لم يستطيعوا أن يندمجوا في «الكل» الذي هو الإله في العقيدة البرهمية لارتباطها بتصور أن الوجود واحد، فإذا ما مات الإنسان الشرير لا تنتقل روحه إلى إنسان آخر «بل يجوز أن تحل في كلب أو شجرة، وما يزال تكرار الوفاة فالولادة إلى أبد الآبدين، إذا لم تستطع أن تتجرد من الشهوات تجردًا تامًا يصعد بها إلى حيث يمكنها الاتحاد مع الكل، فإذا استطاعت الروح التخلص من إسار الشر فإنها ستندمج في الكل لتنعم بالاتحاد معه، وبهذا الاتحاد تنجو من العذاب الذي يتجلى في الولادة الجديدة المتكررة» (١).

ونستخلص من هذا تحول دار الدنيا عند البراهمة من دار ابتلاء واختبار والآخرة دار حساب وجزاء، إلى اعتبار الأرض دار جزاء وثواب (٢).

وترجع فكرة التناسخ إلى نظر البراهمة للنفس كجوهر «خالد صاف عالم مدرك تمام العلم والإدراك ما دام منفصلا عن الجسد، فإذا فاض على الجسد واتصل به اعتكر صفاؤه ونقص علمه» (٣).

ويوضح لنا النص الذي نقله العلامة البيروني في هذه الفكرة توضيحًا تامًا على لسان قول باسريوا لارجن يحرضه على القتال: «إن كنت بالقضاء السابق مؤمنًا فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن بموتى ولا ذاهبين ذهابًا لا رجوع معه، فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة التي عقباها موت البدن، ثم العود له».

كذلك يصف لـــه النفس بأنها «أبدية الوجود، ولا عن ولادة، ولا إلى تلف وعدم، بل هي ثابتة قائمة لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغرقها ولا ريح توبسها،

---

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور العطار ص ١٠٣.

(٢) أديان الهند الكبرى: د/ أحمد شلبي- ص ٦٥.

(٣) الإمام محمد أبو زهرة ص ٤٣: الديانات القديمة -ط. دار الفكر العربي ١٣٨٥ هـــ / ١٩٦٥م.

ولكنها تنتقل من بدنٍ نحو آخر كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق، فما عملك لنفس لا تبيد؟» [(١)]، وهو بذلك يحرضه على القتال بشجاعة بلا خشية من الموت والقتل ما دامت النفس أبدية الوجود.

وانبثقت من عقيدة التناسخ أيضًا مجاهدة الهندوسي لنفسه والسعي نحو إلغاء إرادته ورغبات نفسه، أو باصطلاحهم «الفناء» في الكل.

وقد وردت العبارة الآتية عنهم «من لم يرغب في شيء ولن يرغب، وتحرر من رق الأهواء، واطمأنت نفسه في نفسه، فإنه لا يعاد إلى حواسه، ويتحد بالبرهما فيصير هو، ويصبح الفاني باقيا» [(٢)].

وقد انتقلت الفكرة إلى بعض صوفية المسلمين حيث كانوا يسعون إلى إماتة شهواتهم، وإعدام رغباتهم في سبيل الفناء في الله -تعالى- وهو ما لا سبيل للوصول إليه، ولهذا لقوا معارضة قوية من علماء السنة [(٣)].

---

(١) ما للهندي من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني، نقلا عن المصدر السابق، نقلا عن صفحة رقم ٤٤.

(٢) د/ أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٦٦.

(٣) ينظر كتابنا ابن تيمية والتصوف -ط. دار الدعوة بالإسكندرية.

أما الفناء الصحيح في رأيه فهو يتمثل في تحقيق شهادة لا إله إلا الله ويقول ابن تيمية لشرح (الفناء) المحدود عند العارفين أنه تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله. فلا تشهد لمخلوق شيئًا من الإلهية ، فيشهد أنه لا خالق غيره ويشهد أنه لا يستحق العبادة غيره، ويتحقق بحقيقة قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:٥] وقوله: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْه**﴾ [هود: ١٢٣] وإلا فإذا شهدت أنه المستحق للعبادة مع رؤيتك نفسك لم تشهد حقيقة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ وإذا شهدت حقيقة أنه الفاعل لكل شيء ولم تشهد أنه المستحق للعبادة دون ما سواه وأن عبادته إنما تكون بطاعة رسوله ﷺ، لم تشهد حقيقة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ وإذا تحققت بقوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ تحققت بالفناء في التوحيد الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتبه قال الله -تعالى: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً**﴾ [المزمل: ٨، ٩] وقال تعالى: ﴿**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْه**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَمَــن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد: ٣٠] الرد على المنطقيين ص ٥٢١.

وحدة الوجود:

ومن تصور التناسخ أو ولادة الأرواح تتضح عقيدة وحدة الوجود، لأن العقيدة البرهمية تنطوي على الظن بأن الكائنات تعود كلها في نهاية مطافها إلى المصدر الأول الذي نشأت عنه وهو الله «والإنسان أحد هذه الكائنات فيعرض لـه ما يعرض لها، وروحه قطرة من نور الله، انفصلت عن الله إلى أجل محدود، واتصلت به، ثم تتصل بعده بكائن آخر وآخر وهكذا على طريق التناسخ، وتجوال الأرواح، ثم تعود في النهاية إلى الله متى جاء الأجل» وهي تشبه دورة قطرة الماء في دورتها من صعودها بخارًا من البحر إلى انتقالها وتحولها من الثلج أو البرد وجريانها في الأنهار ثم رجوعها أخيرًا إلى البحر الذي انفصلت عنه [١].

إن هذه الفكرة تقوض الإيمان بالله من أساسها، وهي -كما يصفها الشيخ الغزالي- عنوان آخر للإلحاد في وجود الله أو تعبير ملتو للقول بوجود المادة فقط،وما دام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه.

ولو كانت الأرض لؤلؤًا ومرجانًا، ما صح أن تكون «ذات الله». إن الصاروخ شيء غير الإنسان الذي أطلقه، وكذلك فالعالم شيء غير الرب الذي أبدعه وسيره» [٢].

﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الزمر: ٦٢، ٦٣]..

وبنفس الدرجة من الاهتمام لتوضيح هذا المعتقد وقف علماؤنا على امتداد تاريخنا للدفاع عن عقيدة التوحيد، وإفراد الله -تعالى- بالعبادة، حيث يعتبر فهمها على وجهها الصحيح بمثابة الحصن الذي لاذ به المسلمون لصد أي غزو ديني من خارج الإسلام للانحراف بعقيدته أو شريعته عما نزل به الوحي.

وفي ضوء دراسة الأديان بمنهج مقارن، نرى الإسلام وحده متميزًا بهذه الحصانة التي صد بها كل المحاولات الخبيثة الملتوية لتشويهه أو خلطه بتصورات أخرى منذ محاولة عبد الله بن سبأ ومن تبعه، ممن انحرفوا بالعقيدة، كنفي الصفات الإلهية بواسطة جهم بن

---

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام للدكتور عبد الواحد وافي ص ١٦٥: ١٦٦.

(٢) تأصيل اليقظة وترشيد الصحوة -أنور الجندي ص ٨٨- دار الاعتصام ١٩٨٧ م.

صفوان، والحلول عند الحلاج، ووحدة الوجود عند ابن عربي والفيض أو الصدور عند ابن سينا.

وتوالت قافلة العلماء المجددين الذين تنبهوا إلى مظاهر الزيغ في العقيدة التي تنحرف بها من التوحيد إلى الشرك أو تخلط بين مشاركة الله -تعالى- وغيره في الألوهية.

وكان قد حدث في تاريخ الإسلام موقف مشابه، عندما تسللت إلى بعض المسلمين من الجهمية «أتباع الجهم بن صفوان» فكرة أن الله -تعالى- «هو في كل مكان، وليس هو في مكان، ولا يختص بشيء. يجمعون دائمًا بين القولين المتناقضين، لأنهم يريدون إثبات موجود، وليس عندهم شيء فوق العالم فيتعين أن يكون هو العالم، أو يكون فيه، ثم يريدون إثبات شيء غير المخلوق فيقولون: ليس هو في العالم، كما ليس خارجًا عنه» (١).

وهناك تصدى لهم الأئمة، أمثال مقاتل بن حيان وسفيان الثوري والإمام أحمد بن حنبل، مبينين التصور الصحيح للعقيدة الإسلامية، شارحين ما اختلط عليهم في فهم الآيات القرآنية التي تؤيدها الأدلة العقلية أيضًا: قـــال سفيان الثوري عن قولـــه -تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] قال: علمه. وقيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: الله -عز وجل- فوق السماء السابعة على عرشه، منْ خلقه وقدرته وعلمه وفي كل مكان؟ قال نعم: نعم على العرش «وعلمه» لا يخلو منه مكان» (٢).

ومن هؤلاء الأئمة أيضًا ابن تيمية الذي أزعجته هذه المظاهر، حيث تسللت إلى المسلمين من خلال التصوف فكرة وحدة الوجود عن طريق ابن عربي «٦٣٨هـ» الذي جوز هو وأتباعه عبادة كل شيء، وكأنهم ما عبدوا إلا الله لأن المذهب يدور حول أن الوجود واحد.

يقول ابن عربي:

وقد كنت قبل اليوم أكره صاحبي ... إذا لم يكـــن ديني إلى دينـــه داني

---

(١) نقض المنطق، ابن تيمية ص ٥٠: ٥١ تصحيح محمد حامد الفقي -مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة.

(٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة. للالكائي ج ٣ ص ٤٠١: ٤٠٢- تحقيق د/ أحمد سعد حمدان- دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض.

فأصبح قلبي قابلاً كل صورة — فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف — وألواح توراة ومصحف وقرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت — ركائبه، فالحب ديني وإيماني [(١)].

ويقول أيضًا: «فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء»[(٢)].

ولقد عورضت فكرة وحدة الوجود بسبب انعكاساتها على العقيدة والأخلاق؛ لأنه وفق هذه النظرة تصبح عبادة قوم موسى للعجل هي عبادة لله أيضًا، وتساوي بين عبادة الأصنام وعبادة الله -تعالى- كما أدت هذه العقيدة الباطلة إلى تفسيرات مناقضة تمامًا للتوحيد الإسلامي، ومعاني الآيات القرآنية الجلية الواضحة. ومثال ذلك: رأي ابن عربي المخالف لصريح الآية القرآنية، حيث يصف موسى عليه السلام بأنه كان قرة عين لفرعون الذي آمن عند الغرق «فقبضه طاهرًا مطهرا، ليس فيه شيء من الخبث؛ لأنه قبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئًا من الآثام» [(٣)].

وعندئذ يعلق ابن تيمية، إذ يرى أن «قوله لم يسبق إليه فما أعلم أحد من أهل القبلة؛ لأن النص القرآني صريح في فسق فرعون، وكونه من المكذبين لموسى، الظالمين الداعين إلى النار» [(٤)].

ويأتي تلميذه ابن القيم ليؤكد عقيدة التوحيد الإسلامية، ومن مقتضياتها التنزيه في أدق صوره وأرقاها، لأن الإسلام جاء ليصحح العقائد الباطلة كافة ويعيد بني آدم إلى الصراط المستقيم في العقائد والعبادات والشرائع. يقول ابن القيم: «وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضى عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكا قيومًا فوق سمواته على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى ويرسل الرسل وينزل

---

(١) ابن عربي: ترجمان الأشواق ص ٤٣: ٤٤.

(٢) فصوص الحكم ص ١٩٢.

(٣) فصوص الحكم ص ٢٠١.

(٤) محيي الدين بن عربي وغلاة التصوف، لعباس الغراوي ص ١٤٢- من الكتاب التذكاري (محيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده).

الكتب، ويرضى ويغضب ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع، ويسمع ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع» (١).

أما أثر وحدة الوجود في مجال الأخلاق، والسلوك الإنساني، فإنها تؤدي إلى جبرية صارمة وتعطيل للإرادة، وتوقف التفكير، وامتناع التفرقة بين الخير والشر، والتمييز بين الثواب والعقاب، وسقوط قيمة الإلزام الخلقي، وزوال المسئولية الأخلاقية بإسقاط ركنيها: العقل وحرية الاختيار (٢).

أما ديانة السيخ «وهي متفرعة من الهندوكية» فتنسب إلى رجل هندي اسمه «ناناك» ولد بولاية بنجاب سنة ١٤٦٩ م وتأثر بالإسلام وأعجب ببساطته وسماحته، وأن الله واحد وأنه هو الأول والآخر، وإن ظل على اعتقاد الهنادكة بوحدة الوجود.

كما ظل متأثرًا بالهندوكية لإنكاره البعث واعتقاده بالتناسخ، مع اختلافه مع الهنادكة، في قولهم بالفناء، مفضلاً كلمة الاتحاد بالله، متصورًا أن الروح لا تفنى فيه ولكن تبقى ذات وجود متميز.

كذلك أحل الصفاء محل «النرفانا- أي: انعدام الرغبة»، وصفاء الإنسان عنده يعني العجز عن الشر، إذ بعد اجتيازه لأنواع من الرياضات النفسية يصبح الصفاء هو منتهى الإيجابية في تحقيق الخير! ويقدر عدد السيخ في البنجاب وفي الهند بما لا يزيد على عشرة ملايين، وهم منتشرون في أوروبا وأمريكا (٣).

---

(١) الفوائد -ص ٦٥- الناشر: زكريا إبراهيم -مطبعة العاصمة بالقاهرة- بدون تاريخ.

(٢) فتاوى ابن تيمية -ط. الرياض ج ٢ ، ص ٢٧٩ (توحيد الربوبية).

(٣) من كتاب ديانات أخرى، أنيس منصور ص ٨٤، ٨٥، ٨٩.

أوجه الشبه بين عقائد الهند والنصرانية

يمكن القول بأن هناك أوجه للشبه بين عقيدة النصارى، وعقائد البراهمة، وربما كان المسئول عنها بولس، الذي اقتبس «اتجاهات التثليث وصلب المسيح ابن الله تكفيرًا عن خطيئة البشر» [(١)] وغير ذلك من الملامح البارزة لعقيدة النصارى.

وهذا ما يدفعنا إلى بيان أوجه الشبه باقتضاب [(٢)] بين العقائد الهندوسية والنصرانية، كما توجهنا هذه المناسبة إلى التعرّف على أحد معالم الإسلام البارزة في الاحتفاظ بأصوله سليمة، لم تمسها يد بشر مما ترتب عليه سهولة التمييز بين الأصيل والدخيل، بين السنة والبدعة، ومن ثم فضح كل من يحاول الانحراف بعقائد الإسلام أو عباداته أو شرائعه.

ونرى أن ابن تيمية كان محقًا في قولهك «إن مثل بولس في النصارى كمثل ابن سبأ في المسلمين»، والقياس مع الفارق كما سيتضح بعد قليل، ولكنه قصد أن كليهما أراد إفساد الدين. وإذا كان نجاح بولس ساحقًا في تغيير العقائد من جذورها، وتحويل النصارى جميعًا إلى وجهة أخرى لم يردها المسيح عليه السلام، بل إنه بريء منها، نرى أثر ابن سبأ لم يتعدّ دائرة الشيعة -أو الغلاة منهم- فقد طلبه علي بن أبي طالب، «رضي الله عنه» لقتله وحرق بعض أتباعه، فهرب ولم يستطع- بالرغم من نجاحه المحدود -النفاذ إلى القاعدة الصلبة من صفوف المسلمين حينذاك، وهم جميعًا أصحاب الوعي العقائدي المستند إلى القرآن والسنة؛ ولأن نور النبوة الساطع جعل ابن سبأ وأتباعه القليلين يختفون في الظلام كالخفافيش.

هذا وقد أورد مورس وليمس صاحب كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» [(٣)] مواضع المطابقة بين أقوال الهنود على لسان كرشنة -وهو من أشهر فلاسفتهم «ولد حوالي ٤٨٠ قبل الميلاد»، وبين ما جاء بالأناجيل عن المسيح عليه السلام، وذلك في خمسة وأربعين موضعًا، تجتزئ بعضها فيما يلي:

---

(١) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ٩٦.

(٢) للاستزادة راجع كتاب (الديانات القديمة) للشيخ محمد أبو زهرة من ص ٣٠ إلى ص ٤٢ الذي اعتمد على كتاب مورس وليمس (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية).

(٣) ومقابلة النص الصريح بين كرشنة ويسوع المسيح، يقع في الصفحات من ص ١١٩ إلى ص ١٣١ والكتاب نشره وعلق عليه وقدم لـــه محمد بن إبراهيم الشيباني -ط. مكتبة ابن تيمية.

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في المسيح ابن الله
كرشنة:هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن والروح القدس.	يسوع المسيح: هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن والروح القدس.
قد مجد الملائكة ديفاكي والدة كرشنة ابن الله، وقالوا يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة.	دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع المسيح وقال لها سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك.
كان كرشنة من سلالة ملوكانية ولكنه في غار بحال الذل والفقر.	كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه ملك اليهود ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار.
وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الإلهي وطلب قتل الولد وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كرشنة.	وسمع حاكم البلاد بولادة الطفل يسوع الإلهي وطلب قتله، وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها المسيح.
واسم المدينة التي ولد فيها كرشنة مطرا وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان والقائلين عن كرشنة إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا.	واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر، لما ترك اليهودية المطرية ويقال إنه عمل فيها آيات عديدة.
وفي أحد الأيام لسعت حية بعض أصحاب كرشنة الذي يلعب معهم فماتوا فأشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعًا من الموت وعادوا أحياء.	وبينما كان يسوع يلعب لسعت حية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس يسوع ذاك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته.
وأول الآيات والعجائب التي عملها كرشنة شفاء الأبرص.	وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص.

كرشنة صلب ومات على الصليب.	يسوع صلب ومات على الصليب.
ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات.	ومات يسوع ثم قام من بين الأموات.
وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدًا.	وصعد يسوع إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعدًا.
ولسوف يأتي كرشنة في اليوم الأخير ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.	ولسوف يأتي يسوع في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء.
وهو أي كرشنة يدين الأموات في اليوم الآخر.	ويدين يسوع الأموات في اليوم الآخر.
كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلهية.	يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر من أسراره العظيمة الإلهية.

ولا شك أن هذا التشابه يثير التساؤل:

أهو التقليد والمحاكاة للبيئات والمجتمعات المجاورة؟

أم خضوع للمألوف والمتوارث عن الأجداد الوثنيين مع التبديل والتعديل؟ كل هذا جائز ومحتمل، ونضيف إليه عاملاً آخر نعطيه قدرًا أكبر من الأهمية والفاعلية لأنه ناجم عن أمر صادر من أحد رجال الدين:

جاء في كتاب يسوع المسيح للقس بولس إلياس: «أنه في مفتتح القرن السابع الميلادي كتب البابا غريغوريوس الأول الكبير إلى القديس أوغسطينوس أسقف كنتبري ببريطانيا يقول: دع البريطانيين وعاداتهم وأبق لهم أعيادهم الوثنية واكتف بتنصير تلك الأعياد والعوائد واضعًا إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين» [(١)].

ويعلق الشيخ أبو زهرة على هذه المقارنات بقوله: «وإذا كانت البرهمية أسبق من

---

(١) ملكوت الله: عبد المجيد الجندي ص ١٧٣ نقلاً عن: المسيح الدجال -سعيد أيوب ص ١٥٤ دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٩ م.

النصرانية المحرفة، فقد علم إذن المشتق والمشتق منه، والأصل وما تفرع عنه، وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم»[١].

وإذا قال قائل بأن الاعتقاد بالتناسخ قد تسلل إلى بعض المسلمين، فإن ذلك يحتاج إلى شرح وبيان:

أثر الهندوكية لدى بعض المسلمين:

يمكن القول بأن الأثر الملموس الذي تركته الديانة الهندوكية في بعض المسلمين كان في نطاق ضيق محدود، إذ سرعان ما اكتشف بطلانه بسبب وعي علماء الإسلام بدينهم وعقائدهم، وقيامهم بدور التنبيه والتحذير من أية عقائد زائفة تتسرب إلى المسلمين عن طريق احتكاكهم بالأمم والثقافات والأديان الأخرى.

خذ مثلاً الاعتقاد بالتناسخ، فقد فضحه الأئمة والعلماء، ومنهم الإمام ابن حزم، الذي حصر القائلين به منبهًا إلى بطلانه: قال ابن حزم: «افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين: فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجسام أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت، وهذا قول أحمد بن حافظ، وأحمد بن ناموس تلميذه وأبي مسلم الخراساني، ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب الذي صرح بذلك في كتابه المسمى «العلم الإلهي» وهو قول القرامطة . وقال الرازي في بعض كتبه: لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصورة الإنسان إلا بالقتل والذبح لما جاز قتل شيء من الحيوان أو ذبحه البتة»[٢].

ومما تسرّب إلى بعض فرق الشيعة متصلاً بالتناسخ القول بالرجعة فهي عودة الروح لحياة جديدة ولكنها في الرجعة تعود إلى الجسم، أي أن الشخص نفسه جسمًا وروحًا يعود للحياة بعد الموت، وقد قال بعض الإمامية بعودة علي بن أبي طالب ﷺ، وقال أكثرهم بعودة الإمام الثاني عشر وهو المهدي وسموه «المهدي المنتظر» ، وقالوا: إنه سيعود للأرض فيملؤها عدْلاً بعد أن ملئت ظلمًا.

وعلق ابن حزم على هذا الاتجاه وهو القول بالتناسخ بأنه دعاوى وخرافات بلا

(١) المرجع نفسه ص ٢٩.

(٢) الفصل ج ١ ص ٩٠ نقلا عن أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي.

دليل [١].

أما انحراف بعض عامة المسلمين الذين أدخلوا في عقائدهم بعض الاتجاهات الهندوسية، فإن ذلك يخرجهم من الإسلام، مثل: بعض اتجاهات الأحمدية واتجاهات بعض أتباع «معين الدين شسيتي» وهناك وثيقة نشرها الدكتور أحمد شلبي تجعل زيارة ضريح هذا الشيخ تنوب عن الحج إلى بيت الله الحرام، وتقرر أن الطواف حول ما سماه ابن الشيخ «الروضة الشريفة» كالطواف حول الكعبة وتسمى الباب المؤدي لساحة الضريح «باب الجنة» [٢].

وإذا أخرجنا هؤلاء بسبب هذه العقائد من دائرة الإسلام، فلا صحة إذن لما يراه جوستاف لوبون من تكون حضارة جديدة نشأت من اتصال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بالحضارة الهندوسية والفكر الهندوسي، وتبادل التأثير بينهما وأطلق عليها اسم «الحضارة الهندية الإسلامية».

إننا لا نقرّ (لوبون) على رأيه إذ أنه خلط بين الحضارتين، بل دمج بينهما بسبب وجود تشابه عرضي بين بعض عامة [٣] المسلمين الذين تأثروا ببعض عقائد الهندوس، وبين الأخيرين الذين تأثروا بدورهم ببعض عقائد الإسلام وشعائره ووجه القصور في نظرية لوبون وغيره من فلاسفة الغرب أنهم لا يميزون بين الخصائص المميزة للإسلام التي تستند أساسًا على عقيدة التوحيد، وبين ما لحق بالمسلمين من آثار ثقافية واجتماعية ظهرت إما بسبب تفشي الجهل بين عامتهم، أو بسبب الغزو الثقافي المتعمد أثناء الغزو العسكري للعالم الإسلامي في العصر الحديث، أضف إلى ذلك أن لوبون وغيره من الفلاسفة الغربيين لا يملكون الحصيلة العلمية الوفيرة عن الإسلام بشعبه كلها، فضلا عن الوجدان السليم الذي يمكن صاحبه من الفرز بين ما هو إسلامي وما هو غير إسلامي، ومن ثم اختلطت في أذهانهم العقائد والنحل

(١) أديان الهند الكبرى ص ٦٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٩٧.

(٣) من ذلك مثلاً أن بعض عامة المسلمين يمارسون تقديس الذخائر المماثلة لتلك التي يعبدها البوذيون، وحدث مرة ثورة في كشمير لأن شعرة يقدسها المسلمون سرقت لاعتقادهم أنها من شعرات الرسول ﷺ (ينظر ص ٩٨ وما بعدها من نفس المصدر).

فأدخلوا في دائرة الإسلام أمثال غلام أحمد القادياني وفرق الإسماعيلية والبهائية أو البابية، وعلى حين أن هؤلاء قد خرجوا من دائرة الإسلام ولا ينتمون إلى حضارته، بل إنهم بما أعلنوا من عقائد وما ابتدعوا من نحل يعتبرون معادين للإسلام.

ومن هذه النقطة نميز بين من ينتمون إلى الإسلام بعقيدته الصحيحة، وما يتصل بها من عبادات وشرائع، وبين المخالفين لها أياً كانت جنسياتهم أو ألوانهم وأوطانهم أوقومياتهم، لننتقل منها إلى تصور عالمية الإسلام.

وخلاصة القول أن دائرة الحضارة الإسلامية تتسع عالمياً فتشمل المسلمين على وجه الأرض ﴿**إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٩٢] ﴿**وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وبناء على هذا التصور فإن علماء الهند المسلمين المستمسكين بالمنهج الإسلامي الصحيح ينتمون إلى الحضارة الإسلامية الأم، ولا صلة عقائدية تربطهم بالحضارة الهندية، حتى لو ولدوا في الهند وعاشوا وماتوا بها؛ لأن عقيدة التوحيد هي الرابطة التي تربطهم بالأمة الإسلامية، وتفصل بينهم وبين الحضارة الهندية.

وقد سجل التاريخ أسماء الآلاف من علماء الهند جيلاً بعد جيل الذين أسهموا بجهودهم العلمية في المحافظة على الإسلام وعلومه، وقامت المدارس والجامعات بدورها في توعية المسلمين لمواجهة حملات الغزو الغربي، لا سيما في العصر الحديث. وكانت الهند - كما يقرر الشيخ الندوي- في طليعة دول المواجهة الإسلامية، وكان الشعب الإسلامي الهندي أرهف شعورًا دينيًا، وأرق وعيًا إسلاميًا، وأشد غيرة على الإسلام من البلاد الإسلامية الأخرى، مستدلاً على ذلك بمساهمتهم القومية بعد حركة الخلافة، وحرصهم الشديد على التمسك بحضارتهم الإسلامية العريقة وبشعائرهم الدينية [(١)].

والآن، بعد أن استعرضنا هذه الديانة وآثارها وما يدور حولها، يصح التوقف

---

(١) الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين ص ٢٧ مؤسسة الرسالة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ويعد الإمام الندوي الهند من بلاد الإسلام الأربع (أي تركيا ومصر وإيران والهند) التي واجهت منذ منتصف القرن التاسع عشر المسيحي، الحضارة والثقافة والأفكار والفلسفات والمثل الغربية ص ٢٣، نفس المرجع.

للاستفادة من ذلك كله في تعليق نوجزه في المسائل الآتية:

(١) اتخاذ أديان الهند دليلاً واقعيًا على التردي من عقيدة التوحيد إلى عقائد الشرك والوثنية «فالديانة البراهمية كانت في أصلها- على ما يبدو من نصوص أسفارها- ديانة توحيد، مشوبة بعقائد وحدة الوجود وتناسخ الأرواح.. ولكنها تغيرت وحرفت على مر الأيام، وحلت محلها عقيدة تثليث» [(١)].

ومن هنا يتبين أن منهج علماء السنة والجماعة المرتبط بالنصوص الموثقة كان عاصمًا من الوقوع في الانحرافات العقائدية التي وقعت فيها الأمم الأخرى.

(٢) المهاوي التي يتردد إليها الإنسان حيث يتسفل إلى عبادة البقر إذا بعد عن عبادة الله الواحد الأحد.

(٣) افتقاد التشريع الإلهي بسبب وقوع المظالم الاجتماعية الصارخة التي نراها في نظام الطبقات في أبشع صورة، بينما نرى العدالة الاجتماعية متحققة في ظل التشريع الإسلامي عندما كان ساريًا في دولة الإسلام [(٢)].

(٤) الانحراف عن تصور حقيقة الإنسان بوحدته النفسية والجسمية معًا، حيث أدى الغلو في «الروح» إلى إهمال الجسد وتعذيبه بافتعال التقشف والزهد، بل إحراقه بعد الموت.

(٥) تفيدنا دراسة الأديان بمنهج الموازنة في تتبع المؤثرات الوافدة من العقائد الأخرى إلى المسلمين كوحدة الوجود والفناء والتناسخ.

(٦) مسئولية الأمة الإسلامية لرفع أنواع الظلم الواقعة على المسلمين في الهند

---

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١١ للدكتور عبد الواحد وافي نهضة مصر ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

(٢) وهذا المبدأ ما زال يشع نوره لطالبي الهداية. يقول محمد ضياء الرحمن المهتدي للإسلام- وكان هندوكيا قبل إسلامه-: (من يعتنق الإسلام يصبح فردًا من عشيرة المسلمين لا فرق بينه وبين الذي يولد مسلمًا، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] من كتاب رجال ونساء أسلموا/ عرفات كامل العشي الحلقة /٢.

وغيرها من بلاد جنوب شرق آسيا، حيث يعاني المسلمون هناك ألوانًا من الاضطهاد والظلم والاعتداءات على الأنفس والأعراض والأموال لا لسبب إلا لاستمساكهم بالإسلام. يقول محمد ضياء الرحمن المهتدي للإسلام: «وكانت العداوة للإسلام والمسلمين راسخة في قلوبنا نتيجة للاتهامات الكاذبة الشائعة عن ملوك المسلمين على لسان المؤرخين الهنادك» ... «ومهما يكن من أمر معاداة الإسلام كانت من تراث آبائنا» (١).

(٧) ويبقى من مهمتنا أخيرًا إقناع المدافعين عن الوثنية بزعم أنها تعبر في مرحلة ما عن حاجة البشر الفطرية، ثم تتعداها إذا ما نضجت البشرية وبلغت سن الرشد، فحينئذ يستغني الإنسان عن «الوثنية » فتصبح التماثيل علامات ورموز، فنقول: إن إقناع أولئك سهل ميسور إذا وضعنا أمامهم الواقع الماثل أمام دارسي العقائد والعبادات في الهند وغيرها - والتي ما زال أصحابها يعضون عليها بالنواجذ لأنهم يعكفون عليها بإصرار وبصفة نهائية، حيث يتضح أن المعركة بين التوحيد والوثنية مستمرة، وإن أخذت شكلاً آخر في المجتمعات الغربية التي تعظم التماثيل وتهيئ لها القاعات الخاصة والميادين العامة، وتحفها بمظاهر الإجلال والتقديس الدالة على عقيدة وثنية متغلغلة في النفوس، وليست كما يدعون تعبيرًا عن مظهر حضاري، وإلا فما الفرق بين نظرة الهنادكة للتماثيل ونظرة الغربيين لها؟ إنهم يحيطونها بنفس مظاهر التقديس بالوقوف أمامها بخشوع وتارة بانحناء، مع وضع الزهور والرياحين والاحتفال بأعياد أصحابها.

ويصف الإمام أبو الحسن الندوي العصر إجمالاً بقوله: (... في مكان تعبد الأصنام والأوثان، وفي آخر تعبد العناصر والأجناس والأقوام، وفي أرض تعبد الأهواء والشهوات، وفي أخرى تعبد القوة والسلطة، وفي مكان تعبد الملوك والسلاطين، وفي مكان تعبد الأحبار والرهبان) (٢).

---

(١) رجال ونساء أسلموا ص ١١٣: ١٤١ الحلقة/ ٢ إعداد وترجمة: عرفات كامل العشي -دار القلم/ الكويت/ ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م.

(٢) ص ٢١ من كتابه: رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين -دار حراء- المحلة الكبرى

ونتابع حديثنا عن نحلة أخرى انسلخت من البرهمية وثارت عليها، وهي البوذية نسبة إلى «بوذا» -لنرى هل استطاع بدوره حل مشكلات الحياة ولغزها كما زعم هو وأتباعه؟ أم أن الإنسان سيظل يتخبط في متاهات الجهل ما دام بعيدًا عن الإذعان لوحي الله -تعالى- وشرعه، مصرًا على وضع العقائد والأنظمة لنفسه؟.

بمصر ١٥ رجب سنة ١٣٩٩هـ.

الفصل الثالث

البــــوذية

إن الحديث عن البوذية يذكرنا بالطرفين المتقابلين في تصور حقيقة السعادة الإنسانية وكيفية تحقيقها قديمًا وحديثًا: أي الفلسفة الأبيقورية قديمًا والنفعية حديثًا، فكان أبيقور يعلن: «علينا ألا نتجنب اللذائذ، بل يجب أن نختارها» [١].

وتبني نفس الغاية (ستيورات مل) في العصر الحديث مع بعض التعديلات، ويقابلها في الطرف المضاد الفلسفة الرواقية، ورائدها (زينون) الذي تخيل السعادة في الزهد وحياة التقشف وإماتة الرغبة في الحياة الطيبة، وصبغ الحياة بطابع التشاؤم بسبب الاعتقاد بالجبرية، وعبر عنها (شوبنهور) في العصر الحديث، الذي رأى الكف عن النضال، فلا طائل من وراء أن تناضل الإرادة الفردية، ضد الإرادة الكونية [٢].

وكلتا النظرتين خاطئتان؛ لأنهما افتقدتا التقويم السليم للإنسان، وعجزتا عن تقديم الإجابات الكافية الشافية عن الغرض من الحياة الدنيوية وعن المآل والمصير.

وتأتي دراسة البوذية لتزيد من تقديرنا -وتقدير كل باحث عن الحق متحررًا من الهوى -لكمال الإسلام، حيث نعثر فيه على إجابات لكل التساؤلات حول حياة الإنسان ومصيره ودوره، كذلك يغذى بعقائده وعباداته احتياجاتنا، ويشبع أشواقنا عن طريق منهج في العبادات وطريق وسط في التقرب إلى الله عز وجل، وشريعة قويمة تبيح الطيبات من الرزق وتستجيب لنوازع الإنسان في إشباع اللذات، بلا إفراط أو تفريط بميزان معتدل لا تترجح كفتاه بين ضرورات الجسد وأشواق الروح، مع مزاولة النشاط الإيجابي في العمل والسعي للرزق وتعمير الأرض فضلا عن المذهب الإسلامي الأخلاقي المتكامل الأركان[٣]؛ لذلك سنتحدث عن البوذية كديانة خرجت على البرهمية، ومذهب فلسفي أخلاقي:

---

(١) قصة الفلسفة: ويل ديورانت ص ٢٠٣ ترجمة أحمد الشيباني المكتبة الأهلية بيروت ١٩٦٥ م.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٢.

(٣) ينظر كتابنا الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام، ص ١٦٥ وما بعدها -ط دار الثقافة العربية بالقاهرة ١٤٠٧هـــ / ١٩٨٦ م.

الخروج على البرهمية:

أدى نظام الطبقات، واستبداد البراهمة وإحساس طائفة الكشتريا (أي: الحكم والسلطان وأعمال الجراءة والحرب) بالظلم، أدى ذلك إلى ثورتي خروج على البرهمية:

«أ» الجينية:

وتنسب إلى الزعيم مهاويرا «أي البطل العظيم» ويسمى أيضًا جينا «أي القاهر والمتغلب».

«ب» البوذية:

نسبة إلى بوذا [(١)].

وتتفقان معًا في العزوف عن المتع والملاذ الدنيوية، والميل إلى الرهبنة والتبتل [(٢)].

وسنكتفي بالحديث عن «البوذية» باعتبارها أكثر اتباعًا، وأبعد نفوذًا في الهند والصين واليابان [(٣)]، بينما لا يتجاوز عدد الجينيين الآن نحو المليون.

أما معالم اختلافهما مع الهندوكية أو البرهمية، فإن الهندوكية تتضمن مجموعة كبيرة من الآلهة، بينما «أنكرت الجينية الإله، ورفضت البوذية الحديث عنه، ولكن هذه الهوة لم يطل عمرها، فسرعان ما أله الجينيون مهاويرا والبوذيون بـــوذا، واختلطت التماثيل والآلهة[(٤)].

لذلك اختلف الباحثون حول ما إذا كانت البوذية دينًا أو فلسفة، والسبب في إثارة هذا الاختلاف أن المتتبع لحياة بوذا يلاحظ أنه لم يتعرض في مباحثه لوجود الله، وأن الأساس الذي حاول فيه حل مسألة الحياة، أساس فلسفي، فالبوذية بناء على هذا الرأي فلسفة، ولكنها في رأي البوذيين دين [(٥)].

---

(١) كان اسمه عند ولادته (سذهاتا) وفي مرحلة الرهبنة (غوتاما) أي: الراهب أو (موني) أي: المنفرد المنعزل عن الناس، ثم في النهاية (بوذا) أي: العارف المستيقظ والعالم المتنور.

(٢) كتاب أديان الهند الكبرى للدكتور أحمد شلبي ص ١٠٨: ١٠٩ باختصار.

(٣) حيث اقتحمت حوالي ثلاثين قطرًا في آسيا بل تعدتها إلى أوروبا ص ١٨٤.

(٤) المرجع نفسه ص ١٩٤: ١٩٥.

(٥) المرجع نفسه ص ١٧١.

ويرى الإمام أبو زهرة أن مذهب بوذا إصلاحي اجتماعي خلقي، أكثر منه ديني[1].

وسيتضح ذلك بصورة أوضح إذا تتبعنا حياته وأفكاره وخططه الإصلاحية.

حياة بوذا:

اتفق الباحثون في تاريخ الأديان والعقائد على أن سيرة بوذا لا تخلو من قصص خيالية وأساطير حيكت حوله منذ مولده حتى وفاته، حيث ينسبون إليه معجزات وكرامات.

وعلى أية حال، فسنسرد أهم وقائع حياته توطئة لاستخلاص مذهبه ودعوته التي انتشرت في الآفاق حتى الآن:

ولد في عام ٥٦٨ ق. م ونشأ في قصور أبيه الذي يعد من طبقة المحاربين وعاش عيشة ترف، وتعلم الفروسية ثم تزوج في السادسة عشرة من عمره.

ولكن هذه الحياة الرغدة المنعمة لم تحل بينه وبين مشاركة التعساء والمصابين أحزانهم، وآلامهم «فقد خرج من القصر ذات يوم فرأى شيخاً فانيًا وعاد إلى منزله يفكر فيما يفعل الزمن بالمرء من تغيير، حيث يسلبه القوة والنضارة والحيوية والعافية، وفي اليوم الثاني رأى مريضًا أتلفه السقم والداء، فرجع حزينًا يفكر: لماذا يمرض هذا المسكين؟ من الذي يغير حاله؟ ولماذا تستحيل حياته عذابًا، وفي اليوم الثالث رأى جنازة ميت، فعاد والحزن والألم يعتصران قلبه[2].

وعمقت هذه المشاهد في نفسه إحساس التشاؤم، ودفعته إلى التساؤل عن كيفية الحل لهذه المشكلات في رأيه، أي: الشباب الذي يذوي والصحة التي تفنى والعمر الذي يمضي.وأدت به إلى ما تحفل به الدنيا من ألم وشقاء وتعب، فأخذ يبحث عن سبيل الخلاص، مصممًا على البحث عن الحقيقة مهما كلفه الأمر، وكان حينذاك في التاسعة والعشرين من عمره، حيث ودع زوجته وابنه وترك القصر هائماً على وجهه، ثم استبدل ملابسه مع سائل في الطريق، وتوجه إلى الكهوف ليقيم مع بعض النساك البراهمة،

---

(١) محمد أبو زهرة: الديانات القديمة ص ٧٠ ط. دار الفكر العربي ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور ج ١ ص ١٧: أحمد عبد الغفور عطار.

فنافسهم في حياة الزهد والتنسك.

ولم يكتف بهذا القدر من الزهد والتقشف على طريقة النساك البراهمة، وإنما أدرك أن البرهمية عاجزة عن حل لغز الوجود، ومشكلة الحياة، فانصرف إلى غاية أخرى، وازداد قوة على نفسه متقلبًا في أشد ضروب التقشف والحرمان وإذلال البدن، وقضى ست سنوات في هذه الحياة حتى أشرف على الهلاك، وذاع صيته في الآفاق.

وتبالغ الأسطورة في وصف حالته آنذاك فتصوره بأنه أخذ في تعذيب جسده حتى لم يبق به حركة، فبلغ السكون التام حتى كانت الطيور تقع عليه آمنة وتتحرك الوحوش خلفه مطمئنة.

ولما بلغت به حالة التقشف والحرمان إلى فقدان القوة عن الحركة، وعطلت فيه قوى الفكر، قرر ترك هذه الحياة المسرفة في تعذيب الجسد عائدًا إلى الطعام والشراب والكساء. فبدأ يستعيد نشاطه وقوته، فمضى سائرًا في سبيله حيث وجد شجرة فجلس يستظل بظلها [(١)].

وعندئذ حدثت واقعة حصوله على المعرفة «النرفانا»...

النرفانا:

تروي الأساطير أنه أثناء جلوسه تحت ظل الشجرة -وهي شجرة تين في رواية- فاض عليه العلم، وانكشفت لــه كثير من أسرار العالم [(٢)]، أو أنه حصل على الإشراقة التي كان يترقبها [(٣)]، فما هي هذه الأسرار؟ وما صفة هذه الإشراقة وطبيعتها وثمرتها؟

لندعه أولا يعبر عن نفسه حيث يقول: «جلست تحت تلك الشجرة في تلك الليلة من شهر الأزهار، وقلت لعقلي وجسدي: اسمعا، لا تبرحا هذا المكان حتى أجد ذلك الحق، لينشف الجلد، ولتتقطع العروق ولتنفصل العظام، وليقف الدم عن الجريان، لن أقوم من مكاني حتى أعرف الحق الذي أنشده فينجيني».

وإذا تأملنا إفصاحه عن تجربته الإشراقية نراها لا تروى غليلنا في معرفة «الحق»

---

(١) نفس المصدر السابق باختصار من ص ١١٦: ١٢٠.

(٢) أبو فيض المنوفي: الدين والفلسفة والعلم ص ٥١.

(٣) د. أحمد شلبي: أديان الهند الكبرى ص ١٤٢.

الذي كان يبحث عنه، وصلة الحق بهدف «النجاة»، وممّ يطلب النجاة؟ [١].

وما دامت قد أعيتنا الحيلة، فلنجرب الاسترشاد بشروح الباحثين، ومنهم أحد علماء الهند -محمد عبد السلام الرامبوري- حيث يصف «بوذا» بأنه استغرق في التأمل فغاب عن نفسه، وعن كل ما حوله وانتقل من حال إلى حال وأخذ شعوره يتجلى رويدا رويدا فأشرق لــه الكون، وتجرد عقله من شوائب المادية ورأى العالم في تقلباته. ثم يمضي مستطردًا: «وقد غلّب اللاهوت وتنور اللاهوت، فذاق سرورًا ما خطر بباله قبل، ووجد قوة ما استشعر بها قط، فأبصر ينابيع الحياة وأحاط بمنابع الآلام، واستوعب منابت البؤس، واكتشف مقاليد السرور، ورأى سبلا يهدي إلى تلاشي الأحزان وزهوق الآلام، فأدرك متمناه: ونال مبتغاه وتخلص من تقلبات الحياة، ونجا من حزازات الآلام، وتيقظ شعوره وتنورت بصيرته»[٢].

تلك هي خلاصة الصورة البيانية لتجربة بوذا حيث يدور معظمها حول معاني مبهمة أقرب إلى الصور الخيالية منها إلى التعبير الدقيق عن الأحوال التي مر بها. وكل ما نستخلصه من شرح أحواله أنه تقلب من الآلام إلى السرور، بعد أن غاب عن نفسه وعمّن حولــه، وأشرق لــه الكون حين تجرد عقله من شوائب المادية هذا، وقد بلغ من

---

(١) اتفق الباحثون على صعوبة تفسير النرفانا؛ لأن بوذا نفسه رفض شرحها بطريقة مفهومة كما يقول (ردها كرشنن) ويقرر أنه لا يجدي نفعًا أن نحاول فهمها؛ بل ربما كانت اللغات البشرية لا تستطيع شرح النرفانا (نفس المصدر ص ١٦١).

(٢) بحث في ثقافة الهند (ديسمبر ١٩٥٢) نقلا عن أديان الهند الكبرى ص ١٦١.

(أما مفهوم التركيز الإبداعي فقد بدا وكأنه أهمل أو أشير إليه بطريق عابرة، أو اختلط لدى عديد من الباحثين بمفهوم (التأمل المتعالي) أو (الصفاء الروحي أو النرفانا) الآتي من جنوب شرق آسيا، وقد انتشرت التدريبات الخاصة به في الولايات المتحدة وأوربا في العقد الثامن من هذا القرن (١٩٧٠-١٩٨٠) وتتكون من جلستين كل منهما من ١٥- ٢٠ دقيقة يوضع الفرد فيها في وضع مريح مغلق العينين ويركز على صوت أو فكرة معينة ويسمح لذهنه بالتعامل الحر معها، ويقال إن هذا يتيح للذهن أن يكون حرًا في أن يتحرك أكثر إلى المستويات الإبداعية من التفكير).

مقال: عمليات التركيز الإبداعي في الأدب والفن: مجلة المنهل -العدد ٤٧٤ السنة ٥٦ المجلد ٥١ صفر سنة ١٤١٠ هـــ / سبتمبر سنة ١٩٨٩م د. شاكر عبد الحميد سليمان آداب القاهرة.

سيطرة فكرة النرفانا حدًا جعلتها تختلط عند كثير من الباحثين بمفهوم التركيز الإبداعي بأوروبا وأمريكا. يقول الدكتور شاكر عبد الحميد بمقال «عمليات التركيز الإبداعي في الأدب والفن»: ولكن بقي أن نفهم المقصود «بالفناء» حيث تروي الأساطير أن رحلة الروح تصعد إلى «النرفانا» حيث العدم العام، وفناء النفس، الذي يفسره بعض فلاسفة البوذيين العصريين بأنه ليس الفناء المعروف «وإنما هو وجود يفنى في وجود مثل فناء ألوان الطيف في الشمس في البياض الناصع الذي لا لون لـــه.. ولا يتم الوصول إلى النرفانا إلا بعد صفاء النفس والانفصال عن عالم الحس والواقع، ولا يمكن الوصول إلا بتعذيب النفس والعبادة الظاهرة» [(١)].

وحاصل البحث والتنقيب في كل ما تقدم يدفعنا إلى الكف عن المضي في التفسير والتحليل، مكتفين بقبول التصور العام للنرفانا كطريقة موصلة إلى المعرفة الإشراقية بعد تخليص النفس من رغباتها.

إن هذا الإيضاح نجده بالتفصيل لدى الدكتور أحمد شلبي، حيث خلص إلى تقرير أن النرفانا مرت بمراحل تاريخية، إذ كان مفهومها عند بوذا في البداية الاندفاع في الله والفناء فيه، وعندما أنكر وجود إله، أصبح للنرفانا أحد معنيين:

أ) أن يطهّر الفرد نفسه بالقضاء على جميع رغباته وأغراضه لأن الأغراض الشخصية الباطلة تجعل الحياة دنيئة أو ذليلة.

ب) إنقاذ نفسه من تكرار المولد بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر [(٢)].

.. ولنقوم الآن النرفانا بميزان الإسلام [(٣)]:

النرفانا في ميزان الإسلام:

قبل المضي قدمًا في عرض المذهب الأخلاقي للدين البوذي، نرى ضرورة تحليل موقف بوذا من النرفانا من وجهة النظر الإسلامية:

---

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور -أحمد عبد الغفور عطار ج ١ ص ١٢١.

(٢) أديان الهند الكبرى ص ١٦١.

(٣) وسنقصر التعليق على الرواية المنقولة عن بوذا بأنه سمع صوتًا من داخله، ثم غالى بعض الباحثين الغربيين فاعتبروه وحيًا -نفسه ص ١٤٢.

وتمهيدًا لذلك نرى أولا أنه من المحتمل أن بوذا أصيب بنوع من المرض النفسي أو العصبي نتيجة حياة الحرمان والتقشف والانقطاع عن الناس والحياة داخل الكهوف، ومزاولة طريقة المعيشة المخالفة للطبيعة البشرية السوية المتوافقة مع الفطرة، فخيل إليه سماع ذلك الهاتف، وسيطر عليه، وملك نفسه وساعد على التمكن منه الضعف الجسماني والاستهلاك العصبي الشديد.

أما تقويم ما حدث لبوذا في تجربة النرفانا، فتتلخص فيما يلي:

أولاً:

لو سلمنا بصحة سماعه لصوت هاتف فإننا نرجِّح أنه استمع إلى هاتف شيطاني وتفسيرنا يستند إلى الاعتقاد بأن الشيطان يتسلط على كل من يبعد عن ذكر الله -تعالى- وعبادته، حيث يذكر الإمام ابن القيم إن العبد إذا أصبح وأمسى والدنيا همه، حمله الله همومها وغمومها وأنكادها ووكله إلى نفسه، وهذا شأن كل من أعرض عن عبودية الله -تعالى- وطاعته ومحبته مستشهدًا بقول الله -تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: ٣٦] (١).

والذي لا يعرفه أتباع النحلة البوذية أن الإنسان يتلقى هاتفين: أحدهما من الشيطان والآخر من الملك. وما لم يستطع التمييز بينهما، فإنه سرعان ما يستأثر به الشيطان لنفسه ويزين لــــه الباطل ويقوده حيث يريد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «فالاعتقادات والإرادات الفاسدة تحصل بسبب شياطين الإنس والجن. والاعتقادات الصحيحة والإرادات المحمودة قد تحصل بسبب الملائكة وصالحي الإنس، فإن سماع الكلم قد يؤثر في قلب المستمع. فالمتكلم فاعل، فإن كان السامع قابلا انتقش كلامه في قلبه، وإن لم يكن قابلا لم ينتقش فيه» (٢).

إنه يستند في ذلك إلى قول سلف الأمة الإسلامية والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين «فإنهم يقولون: إن الشياطين توسوس في نفوس بني آدم كالعقائد الفاسدة والأمر

(١) ابن القيم: الفوائد ص ٧٧ الناشر زكريا علي يوسف - مطبعة العاصمة بالقاهرة بدون تاريخ.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٥٠٩ -المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة ١٤٠٤هـــ - ١٩٨٤م. ويذكر أن العاصم من الوقوع في الزلل هو خبر الأنبياء عليهم السلام.

باتباع الهوى، وإن الملائكة بالعكس إنما تقذف في القلوب الصدق والعدل.

قال ابن مسعود «إن للملك لمسة وللشيطان لمسة، فلمسة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمسة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن**» قالوا: «وإياك يا رسول الله؟» قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم**» وفي لفظ «**فلا يأمرني إلا بخير**»[(١)].

ثانيًا:

لا تتحقق السعادة الكاملة في الحياة الدنيوية، بل يستحيل النجاة من الأحزان فيها لأنها دار ابتلاء وامتحان، وأنها موضوعة على الكدر والمعاناة، فلا راحة فيها، فمن طلب فيها الراحة فإنه يبتغي من الدنيا «ما ليس في طبيعتها ولا موجود فيها ولها»[(٢)].

ولكن لا يدفعنا هذا الاعتقاد إلى تبني النظرة التشاؤمية الغالية التي تلقي بشباكها فقط على منابع الآلام ومنابت البؤس، فإن من يفعل ذلك كمن ينظر إلى الحياة الدنيوية بعين واحدة، فإن الدنيا لا تمضي على وتيرة واحدة، بل لابد فيها من اليسر والعسر، والخوف والطمأنينة، والراحة والتعب، والحزن والسرور، والفقر والغنى وهكذا دواليك، إذ ربما لا يسير نهر الحياة في مجرى مستقيم يجتاز خطاً واحداً؛ بل يتفرع وينساب هنا وهناك حسب طبيعة الأرض التي يجتازها مجراه، ولكن لا يمنعه ذلك من استمرار جريانه حيث يصل إلى مصبه.

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٥٠٦ وقد خرج محقق الكتاب الشيخ عبد الصمد شرف الدين الحديثين على النحو الآتي: الأول: رواه مسعد عن عطاء وابن السائب وأبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفًا، ورواه الترمذي والنسائي وابن حبان، وابن أبي حاتم، عن ابن مسعود مرفوعًا. والثاني: أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، وقوله «فأسلم» برفع الميم وفتحًا فمن رفع قال معناه (أسلم أنا من شره وفتنته) ومن فتح قال: «إن القرين أسلم من الإسلام»، وصار (مؤمنًا لا يأمرني إلا بخير) النووي.

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للراغب الأصفهاني ص ٣٩ سلسلة الثقافة الإسلامية -ذو القعدة ١٣٨٠ هـ- إبريل ١٩٦١م.

إن البديل إذن مستمد من نظرة أوسع للحياة وللمصير، يغذيها إيمان لا يتزعزع بالحكمة الإلهية التي تقصر أفهامنا عن إدراكها لأول وهلة، وربما يأتينا الفهم بعد انقضاء الأحداث والوقائع التي نظن أنها -للوهلة الأولى- مؤلمة للنفس.

كذلك لا يتحقق التكيف النفسي المؤدي إلى انشراح الصدر إلا بالاقتناع بحقيقة الابتلاء في الدنيا، ومن ثم فإن المسلم يكيف حياته وفق هذا القالب، ويصحح نظرته ويعد لها أولا بأول إذا ما مر بتجارب مؤلمة، أو عانى من الإخفاق في نيل بعض أغراضه ومقاصده.

وها هو ابن الجوزي «٥٩٧هـ» يضع الصياغة الملائمة للموقف الصحيح المؤدي إلى تقبل آلام الحياة عن اقتناع بمبادئ خمسة هي:

١-إن طلبت النفس أغراضها ولم تصبر على الحرمان، فإن ذلك ينافي طبيعة الدنيا كدار ابتلاء واختبار «وهل الابتلاء إلا الإعراض وعكس المقاصد؟».

٢-إن النفس مملوكة لخالقها -عز وجل- وواجبها أداء حقه، ولا يجب على المالك تبليغها ما تهوي.

٣- وقف المعاصي عقبة في طريق إجابة الدعاء وتحقيق الرغبات، بينما سبب الراحة التقوى ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾ .. [الطلاق: ٢، ٣] ﴿**يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: ٤].

٤-ربما تطلب النفس ما لا تعلم عاقبته وربما كان فيه ضررها، والمدبر لها -عز وجل- أعلم بالمصالح ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

٥ - إن المطلوب ينقص الأجر ويحط من المرتبة، فالأولى طلب ما يصلح الآخرة [١].

ثالثًا:

إذا حاول الإنسان التحليق بروحه في الآفاق ظنًا أنه يتخلص من دوافع النفس، وهواتف الغرائز، فكأنما يبحث عن المحال، اللهم إلا إذا توهم «الفناء» -أي: العدم -أمراً ممكن التحقيق.

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٢٤٤- ٢٤٥ بتصرف- تحقيق عبد القادر عطا- مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٩٧٩م.

فإذا علمنا أن الموت نفسه ليس فناء، بل هو نقلة من حياة الدنيا إلى الحياة البرزخية، فكيف نتصور أو نصدق تجربة بوذا التي هي أقرب إلى الوهم والخيال منها إلى الحقيقة والواقع؟ دعك من اتخاذها دينًا يدين به الملايين، ويحق التساؤل أيضًا هاهنا: «وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار دينًا يدان به؟» [1].

النرفانا وأثرها عند الصوفية:

وكان للنرفانا -بتجربتها النفسية والأخلاقية- بريق خاص في دائرة الصوفية، كما كان لفكرة «الفناء» عند الهندوس صداها أيضًا -كما قلنا من قبل:

إن الحديث عن النرفانا -كطريقة للمعرفة- يثير لدينا قضية تسللها إلى الصوفية إذا دار النقاش بينهم وبين المتكلمين، لأن الصوفية تبنوا المنهج القريب من النرفانا، فمنهم من رأى أن «صاحب» الرياضة قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى بن عمران عليه السلام [2]، ويقصدون بالرياضة تصفية القلب والتقرب إلى الله -تعالى- بالنوافل والإكثار من العبادات كالصلاة والصوم ومداومة الذكر.

ومثال ذلك ما رواه ابن الجوزي، قال:

«فرأيت أبا حامد الطوسي يحكي عن نفسه في بعض مصنفاته قال: شاورت متبوعًا مقدمًا في الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن فمنعني منه، وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم، بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجود ذلك وعدمه، ثم تخلو بنفسك في زاوية، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، ولا تزال تقول: الله الله إلى أن تنتهي إلى حالة لو ترك تحريك اللسان رأيت كأنّ الكلمة جارية على لسانك، ثم تنتظر ما يفتح عليك مما فُتح مثله على الأنبياء والأولياء» [3].

وعارضهم المتكلمون أصحاب المنهج العقلي، ونفوا دور الرياضة وتصفية القلب في نيل العلم.

---

(١) الفوائد: لابن القيم ص ٩٨.

(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ٥١١.

(٣) صيد الخاطر ص ٤٢٠ تحقيق عبد القادر عطا- مكتبة الكليات الأزهرية بمصر ١٩٧٩م.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية حاسمًا للنقاش بين الطرفين عندما أوضح -بناء على تفسيره للآيات القرآنية والأحاديث النبوية- أن «التقوى وتصفية القلب من أعظم الأسباب لنيل العلم» (١).

ويؤيد من جانب ما يأمر به كثير من أرباب العبادة والتصوف بملازمة الذكر يلتمسون الوصول إلى الحق، فإن هذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك(٢).

ولكنه في الوقت نفسه يحدد الشرط العاصم للإنسان من الزلل والخطأ، حتى لا يقع فيه المفتونون بتجربة«النرفانا»، حيث يقيد ذلك بقيد ضروري محكم لابد منه في طلب المعارف الإلهية وحقائق عالم الغيب، لكي يوازن بين الصواب والخطأ، فيقرر أنه لا يستغني أحد عن معرفة الغيب عما جاء به الرسول ﷺ، فما وافق كشف الإنسان وقياسه وافقه، وما لم يكن كذلك خالفه لأن الإنسان معرض بعد تصفية نفسه أن يلقي الشيطان في نفسه أشياء، فإن لم يعتصم بالذكر المنزل وإلا اقترن به الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] قوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] (٣).

ويلاحظ أن النقاش لم يتوقف عند هذا الحد، فقد كان للصوفية صولات وجولات حول «النرفانا» أو «الإشراق»، يلاحظ ذلك بوضوح بالقارة الهندية حتى العصر الحديث،

---

(١) المرجع نفسه ص ٥١١.

(٢) نقض المنطق ص ٣٥- ونذكرها هنا أيضًا عبارته الثانية عن الفناء المحمود وهو عنده يعني (تحقيق الحنيفية وهو إخلاص الدين لله، وهو أن يفنى بعبادته عن عبادة من سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبالحب فيه والبغض فيه عن الحب فيما سواه والبغض فيه، فلا يكون لمخلوق من المخلوقين -لا لنفسه ولا لغير نفسه- على قلبه شركة مع الله تعالى) ص ٥١٧.

(٣) الرد على المنطقيين ص ٥١١ والآيتان: ٣٦ سورة الزخرف، و١٢٣ سورة طه ويذكر أيضًا أن المعرفة لابد لها من شرطين: أحدهما قدرة العبد ثم السبب الآخر: كالقوة في الهم والقبول في المحل، ولا ريب أن النظر هو السبب فإن كان ذلك في دليل هاد -كالقرآن- تضمن ذلك النظر العلم والهدى (نقض المنطق ص ٣١: ٣٢).

حيث نجد الإمام أحمد السرهندي «١٠٣٤هـ / ١٦٢٦م» المشهور في الهند بمجدد الألف الثاني -يحدد موقفه وموقف الإمام الدهلوي بقوله: «بأنهما كانا في مقام استولت عليهما فكرة وحدة الوجود، وكانت هذه النظرية تبدو لهما مؤيدة بالمقدمات الكشفية والدلائل اليقينية، ولكنه أدركهما التوفيق الإلهي فسما بها إلى مقام أسمى من هذا المقام رجعا عنها»(١).

والذي يشد انتباهنا متابعة تلميذه الشيخ عبد الباقي الدهلوي له أيضًا ويتضح ذلك من رده على سؤال خلاصته الاستفسار عن إمكان العقل بعد التزكية والتصفية والاقتراب من الله -تعالى- من غير حاجة إلى نبي يبعث ويتلقى الوحي بواسطة الملك. وكانت إجابته على السؤال متضمنة نفس الرأي الذي انتهى إليه ابن تيمية مما يدل على استقلال المنهج الإسلامي في المعرفة بذاتيته الخاصة وتحذير علماء السنة الدائم من الجري وراء المناهج تقليدًا ومتابعة هنا وهناك.

وبذلك أوصد الشيخ عبد الباقي الباب أمام كل صوفي يحاول اتباع طريقة الكشف المستوحى من «النرفانا»، قال:

«مهما اقترب العقل واتصل بالله -تعالى- إلا أن علاقته بهذا الجسم المادي لا تزول بتاتًا ولا يستطيع أن يتجرد عنه تمامًا، فلابد من حدوث الأوهام والشبهات بصفة دائمة، ولا تفارقه القوة المتخيلة والشهوانية والغضبية بأي حال، وكذلك رذائل الطمع والشره ترافقه بصفة مستمرة، أضف إلى ذلك صفات السهو والنسيان والخطأ التي هي من لوازم النوع البشري لا تنفك عنه أبدًا.

ولذلك فإن العقل ليس موضع ثقة في قضية الأحكام الإلهية التي «إذا تلقاها لم تكن بنجوة عن موضع الشك والارتياب، ولا تفارقه شائبة النسيان ومظنة الخطأ بخلاف الملك الذي هو مصون عن جميع هذه الصفات البشرية، وبعيد عن هذه الرذائل، فلابد من أن يكون محفوظًا عن كل شائبة من شوائب الوهم والخطأ والنسيان» (٢).

---

(١) أبو الحسن الندوي: بين الدين والمدنية ص ٣٣: ٣٤ مؤسسة الرسالة -بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٥: ٣٦.

انتهينا إذن من عرض النرفانا كطريقة للمعرفة والإشراق عند بوذا وصداها عند الصوفية، وسنبحث الآن في البوذية كمذهب أخلاقي، ومنهج إصلاحي اجتماعي.

المذهب الأخلاقي في البوذية:

إن السمات الأخلاقية بارزة أمام دارسي البوذية، بما تشمل عليه من الحث على الفضائل واجتناب الرذائل.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «الجزء الخصب في البوذية هو مذهبها في الأخلاق وإصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء»(١).

كذلك فإن بوذا أدرك -كشأن أصحاب الدعوات الذين يريدون نشرها بين الناس- دور الدعاة في نشر دعوته، فاعتنى بترتيبهم لاكتساب الخصال النفسية والفضائل الأخلاقية اللازمة لأداء رسالتهم على أحسن وجه، فأخذ يربيهم على الصبر واحتمال أذى المعارضين والخصوم، كما سنرى بعد قليل، وإن لاحظنا أن التربية اقتصرت على طرق المعاملة والتفاهم -أي الوسائل دون الغايات- فلم نعدّ التربية بالعقائد في الأوقات المصيبة، كما تحدد الغايات بوعدها للطائعين بالثواب وبتوعدها للعصاة بالعقاب.

ومهما يكن من أمر، فإن الروايات المنقولة عن بوذا تمضي فتذكر أنه تردد في أول أمره بين أن ينعم وحده بالمعرفة التي نالها، أو أن يبشر به وينشره، ثم استقر رأيه على دعوة الناس إليه بعد أن تغلب الخير على نفسه.

وبعد ذلك جمع عددًا من الشبان بلغ تعدادهم الستين، وأخذ يعلمهم مبادئه ويلقنهم دعوته فاشتهرت دعوته بتسميتها «بالنظم» أو «عجلة الشريعة».

وهناك نموذج من اختيار أعوانه أو مريديه بعد تربيتهم يعبر عن مدى التصميم على الدعوة والاستعداد لتقبل التضحية مهما كانت الصعاب(٢).

كان هذا المريد «ويسمى بودنا» يريد الذهاب إلى إحدى القبائل المعروفة بالشراسة والخشونة، فأراد بوذا اختبار مدى قدرته على التحمل، فقال لـه: إن رجال هذه القبيلة قساة سريعو الغضب، فإذا وجهوا إليك ألفاظًا بذيئة خشنة ثم غضبوا عليك

(١) الديانات القديمة ص ٧١.

(٢) باختصار من كتاب ديانات الهند الكبرى ص ١٣٦- ١٤٧ للدكتور/ أحمد شلبي.

وسبوك فماذا كنت فاعلاً ؟ فأجاب بودنا: أقول: لاشك أن هؤلاء قوم طيبون، لينو العريكة، لأنهم لم يضربوني بأيديهم، ولم يرجموني بالحجارة.

-فإن ضربوك بأيديهم ورجموك بالحجارة، فماذا كنت قائلاً؟

-أقول: إنهم طيبون لينون إذ لم يضربوني بالعصى ولا بالسيوف.

-فإن ضربوك بالعصي والسيوف؟

-أقول: إنهم طيبون لينون إذ لم يحرموني الحياة نهائيًا.

-فإن حرموك الحياة؟

-أقول: إنهم طيبون لينون إذ خلصوا روحي من سجن هذا الجسد الشيء بلا كبير ألم.

فيعجب به بوذا ويطلب منه الذهاب إلى تلك القبيلة موجهًا إياه بالوصية التالية «وكما تخلصت فخلصهم، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك، وكما تعزيت فعزهم، وكما وصلت إلى مقام النيرفانا الكاملة فأوصلهم إليها مثلك» (١).

وعلى أية حال، فإذا مرت بنا بعض الصعوبات في تحليل تجربة النرفانا لغموضها، فربما استطعنا أن نتقدم خطوة جديدة لفهمها عن طريق تحليل المذهب الأخلاقي للبوذية وشرح الطريق الذي خطه للقضاء على الآلام، وتحقيق المسرات، لأن المذهب نفسه منبثق من النرفانا.

الفضائل الأخلاقية وطرق اكتسابها:

تتدرج عناصر المذهب الأخلاقي حيث تبدأ بالنص على أركان أربعة، ثم تتلوها خطوات السير الحثيث في ثمان شعب:

أما الأركان الأربعة فهي:

-الاعتراف بوجود الألم والشقاء.

-التسليم بوجود سبب للألم والشقاء.

-التصميم بإمكان إزالة هذا السبب.

-وجود السبيل لتحقيق إمكان هذه الإزالة.

---

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي ج ٢ ص ٣٨٩ : ٣٩٠ نقلاً عن الديانات الهند الكبرى ص ١٤٧، ١٤٨.

وتتلخص سبل إزالة الألم في «قتل الشهوة التي تربطنا بملذات الجسد وتدفعنا لطلبها، مع أن ما نطلبه يزول ويتغير، وكل ما يزول ويتغير ألم وشقاء، ولا نجاة ولا خلاص إلا بأن ننبذ ما تريده الشهوة، وفي ذلك قتلها، وفي قتلها النجاة والخلاص»[١].

لهذا كان عماد (بوذا) في مذهبه الأخلاقي أن يجاهد الشخص الشهوات ويروض إرادته على الصبر على الحرمان من اللذات، ويتحقق ذلك بسلوك الجادة المستقيمة بتقييد حياته بثمانية أمور هي:

-الاتجاه الصحيح المستقيم إلى ما يريده اتجاهًا خاليًا من كل سلطان للشهوة واللذات وما تبعثه من أماني.

-الإشراق الصحيح المستقيم، ذلك بأنه عندما يتجه الاتجاه الصحيح المستقيم، بناء على الأمر الأول، وتعتريه نورانية تجعله يستطيع الوصول إلى حقائق الأشياء.

-التفكير الصحيح المستقيم، وذلك أن العقل عند خلوه من شوائب اللذة أصبح تفكيره مستقيمًا لا يؤثر فيه نزعة هوى ولا جموح شهوة.

-ويترتب على الخطوات الثلاث السابقة أمر رابع، وهو اطمئنان العقل والقلب إلى الاعتقاد الصحيح الذي يطمئن له القلب.

-يأتي بعد ذلك نطق الإنسان وأقواله مطابقة تمامًا لاعتقاده ولما ارتاح إليه.

-يصبح السلوك مستقيمًا فيكون العمل مطابقًا للعلم لا مجافاة بينهما.

-تتحقق بعد ذلك الحياة الصحيحة وقوامها هجر اللذات هجرًا تامًا ولا تشذ عن السلوك القويم.

-ويتوج ذلك كله المثابرة على بذل جهود الإنسان كلها في سبيل أن تكون الحياة مستقيمة[٢].

وهنالك أيضًا الوصايا العشر التي تشكل آدابًا عامة صالحة وهي:

-لا تزهق روح أحد.

-لا تكذب.

---

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور ص ١٢٧، أحمد عبد الغفور عطار.

(٢) الديانات القديمة: محمد أبو زهرة من ص ٧٢: ٧٤ باختصار.

-لا تزن.

-لا تأخذ مالاً محرمًا.

-لا تتناول مسكرًا.

-لا تأكل طعامًا غير ناضج.

-لا تشهد حفل رقص وغناء.

-لا تتزين ولاتستعمل عطرًا.

-لا تَتَّخِذْ أي فراش وثيراً.

-لا تقبل من أحد ذهبًا أو فضة [١].

وقبل تناول المذهب الأخلاقي بالتحليل، النقد التفصيلي، نلاحظ على عموم المذهب خلو الخطوات الثماني من تجديد أو تعريف للصحيح، فكيف تتجدد الصحة؟، وما مقدارها وحدها؟ فإن الناس قد يختلفون في الاتفاق على الصحيح.

كذلك لا نجد ما يقابل الثواب أو العقاب لمن يطع أو يخالف الوصايا العشر فكيف نلزم الناس على اتباعها؟

نترك الإجابة على هذه الأسئلة الآن، مكتفين بتأمل توجيهاته لأتباعه المنحصرة في «الألم»، إنه يقول لهم: «أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس، بل فكروا هكذا: هذا ألم، هذا مصدر الألم، هذا إعدام الألم، هذا سبيل إعدام الألم »[٢].

ومما يلفت النظر -كما أشرنا إلى ذلك من قبل- اقتصاره على توجيه أتباعه إلى الآلام والإلحاح عليها، والدوران حولها بشكل يورث التشاؤم، ويصبغ النفس بالكآبة حيث يصبح في مستقرها الآلام، وتدور في داخلها معركة التخلص منها بحيث يظل شغلها الشاغل.

وربما يؤدي استمرار هذه الحالة ألا يتخلص المرء من الألم، بل ربما ازداد لأن المثابرة على ذلك تجمع وتعمق الإحساس بالألم أكثر وأكثر. إن التفكير بهذه الطريقة،

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٦. وانظر الديانات والعقائد في مختلف العصور ص ١٢٧- أحمد عبد الغفور عطار.

(٢) ديانات الهند الكبرى ص ١٦٧- ١٦٨.

والاقتصار على متابعة الألم وحده تجعل الإنسان وكأنه يغرق في دوامة من دوامات البحر فتغوص بالسابح ولا تترك له فرصة الطفو على السطح لأنها لا تقدم له طوق النجاة.

وطوق النجاة في رأينا هو النصح بالتوازن في رؤية الحياة، لأن رؤية الألم وحده لا تعبر عن واقعية الخبرات الإنسانية التي تمر بها ألوان من السرور لا ينكرها أحد: فإن الحياة -بالرغم من آلامها- تكتنفها ألوان من السرور والبهجة أيضًا متعددة المصادر: كالصحة والمال والأهل والأولاد والتمتع بالنعم التي لا تحصى من مآكل ومشارب وملابس، بل هناك أيضًا مصادر للسرور والبهجة غيرها، تتمثل في رؤية آيات الله -تعالى- في الكون والمخلوقات من حلوله على الأرض في رؤية البحار والأنهار والشمس والقمر والنجوم، وغيرها من آيات الجمال التي تبهج النفس وتحبب لها الحياة.

وكان الإمام ابن حزم أكثر توفيقًا وواقعية بما اقترحه لنا من علاج نداوي به آلام الحياة، ويرجع توفيقه إلى الانطلاق -أولاً- من عقيدة إيمانية راسخة، ثم رؤية للحياة أشمل، ثانيًا: تتسع لحياة الدنيا والآخرة، فأرشدنا إلى «كل ما يعصم من الدنيا من جميع المخاوف والمكاره، ونخلص في الأخرى من كل هول وضيق» [(١)].

ويخبرنا ابن حزم في المقدمة عن خلاصة تجاربه التي كان يراقب خلالها أحوال الناس بغية العثور على غرض واحد يجمعون على استحسانه والسعي إليه فعثر على غرض واحد سماه «طرد الهم» أي: الحزن [(٢)]- أو القلق بلغة عصرنا- فإن الناس في رأيه لا يسعون في تحقيق أهدافهم من الأكل والشرب واللبس والأسفار والزواج واللعب وغيرها، إلا ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال، ومع ذلك فإنها قد لا تتحقق بسبب عوارض كثيرة تعترضها كالعجز وظهور الآفات والخوف من التنافس وطعن الحساد وغيرها من العقبات التي تحول دون تحقيق الأغراض، وفي الوقت نفسه لم يجد عملاً سالمًا من كل عيب خالصًا من كل كدر، موصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة إلا العمل لله تعالى؛ لأن العامل للآخرة «إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر إذ رجاؤه في عاقبة ما

---

(١) (كتاب الأخلاق والسير) في (مداواة النفوس) المقدمة تحقيق أحمد عمر الحمصاني -مطبعة السعادة بمصر.

(٢) يفسر الأصفهاني الهم بأنه (الحزن الذي يذيب الإنسان) المفردات ص ٥٤٥.

ينال به عون له على ما يطلب، وزايد في الغرض الذي إياه يقصد» [(١)].

فأين ذلك من آراء بوذا؟

إننا إذا أفضنا في الشرح والمقارنة فلكي تصبح أحكامنا أدنى إلى الصحة، بدلاً من الفتنة ببوذا وآرائه التي دفعت بأحد الباحثين إلى القول بأنه نبي، وهو ما لا يمكن تقديم الدليل عليه، بل إن صحت روايات إنكاره الألوهية تجعله أحد الملاحدة [(٢)] وأمام هذه الفتنة نرى ضرورة وضع الأخلاق البوذية في مكانها الصحيح بعد النقد والمقارنة، إذ لا نستطيع الإغضاء عن أثر المديح الذي يملأ الكتب في نفوس القراء ما لم يتسلحوا بالمعارف الصحيحة.

مآخذنا على المذهب البوذي في الأخلاق:

١- من الناحية النظرية:

عندما اطلعنا على المذهب بدا في ظاهره لامعًا جذابًا لاحتوائه على إرشادات قويمة في شعبه الثمانية تتصل بمحاربة أهواء النفس ورغباتها في اجتناب اللذات- إذا قصد بها اللذات المحرمة وحدها -لأن الاستغراق في اللذات يورث الآلام، فضلا عن الوصايا العشر الإيجابية، وتقابلها الرذائل المنهي عن الاتصاف بها.

كل ذلك حسن، ويبدو في مظهره أنيقًا أخاذًا، ولكن إذا دققنا النظر فيه وكانت لدينا فكرة عن النظم الأخلاقية المتكاملة، وجدنا المذهب البوذي يتهاوى ويتساقط أمامنا، وهاكم نتائج تأملنا المدقق للمذهب البوذي:

أ-تنقصه الفضائل المتنوعة بتنوع الحياة الإنسانية في علاقتها المتشعبة، كالفضائل في العلاقات الاجتماعية، والفضائل العامة والعلاقات الدولية وأيضًا في مجال الفضيلة الشخصية نفسها، كمبدأ «النية» باعتبارها لب العمل الأخلاقي [(٣)].

---

(١) الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ١٢.

(٢) تنظر الدراسة التي أجراها الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار بكتابه (الديانات والعقائد في مختلف العصور) لاص ١٣٦ - ١٣٧ وما بعدها حيث ناقش الدكتور محمد توفيق صدقى، صاحب كتاب (الصلب والفداء) الذي سجل فيه هذا الرأي.

(٣) انظر: الدراسة المستفيضة للدكتور عبد الله دراز بكتابه (مدخل إلى القرآن الكريم ص١٠).

ب-تنقصه أيضًا ما يسمى في علم الأخلاق بعناصر الإلزام «أو وسائل الردع»، وهي التي تلزم الناس بسلوك الطريق القويم، وتردع المنحرفين الخارجين عنها.

ج- ويخلو المذهب أيضًا من العقيدة التي لولاها لما استطعنا إقامة بناء أخلاقي متكامل، قد رأينا بوذا أميل إلى إنكار الإله، وكان يتحاشى كل ما يتصل ببحث ما وراء الطبيعة «أو عالم الغيب»، فإنه جعل كل همه صرف أتباعه عن البحث في هذه القضايا، وحثهم على الخوض فقط في أعمالهم ودواعيها وميولهم وعواطفهم (١).

ونحن نرى في ذلك هروبًا من مواجهة الإجابات عن الأسئلة المنبعثة من بواعث النفس السوية، فضلا عن ضرورة العقيدة في أي مذهب أخلاقي، فهنالك من ألوان السلوك ما يكون الدافع إليها بعيدًا عن تحقيق أي نفع عاجل، ويتضح ذلك في عقيدة الإسلام خاصة- كعقد النية والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاة الله تعالى، وأملا في ثوابه، إلى جانب الترهيب من عقابه عز وجل.

وسيتجلى ذلك بصورة أوضح وأشمل إذا ما عرضنا للسمات الأخلاقية في الإسلام بعد أن نستكمل نقدنا للمذهب البوذي لتعذر تنفيذه كمنهج للحياة اليومية.

٢- المنهج البوذي والتطبيق العملي في حياتنا اليومية:

والآن، نأتي إلى مرحلة التجريب، فنحاول تنفيذ المنهج البوذي لإصلاح الأخلاق، فماذا نفعل لنحقق السعادة المنشودة ونتخلص من الآلام؟

إذا بدأنا في التنفيذ، فإن أول ما نلاحظه أن الطريقة البوذية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، حيث تجمع بصورة تكاد تتشابه بين الاتجاه والإشراق والتفكير والاعتقاد، وكلها ذات صبغة تأملية عقلية نظرية، يختلط فيها الإدراك بالخيال، فلا نقف أولا على حدود مميزة تعرفنا كيفية اجتياز مرحلة الاتجاه إلى مرحلة الإشراق ثم التفكير فالسلوك.. إلخ. هذا، بينما يبدو من الأمور الثمانية التي يتقيد بها الشخص في شئون الحياة أنها على شكل مراحل متدرجة.

وإذا ما توقفنا لإعادة النظر ومحاولة التطبيق العملي مرة أخرى، اتضح لنا أن هذا

---

(١) أديان الهند الكبرى ص ١٦٧- ١٦٨.

المران العقلي التأملي المتخيل عند بوذا يفترض إنسانًا آليًا يسير على قضبان كالقاطرة، وينتقل تلقائيًا من محطة إلى أخرى، ويقطع مسافة ما، لينتقل إلى غيرها، فلا ينحرف يمينًا أو يسارًا بحكم طبيعة الخط الحديدي الذي يحكم حركته.

وإذا سلمنا جدلاً بإمكان نجاح البعض جزئيًا في رياضة إرادته على النحو الذي اقترحه بوذا، فلا يصلح تعميم الحكم على صنوف البشر جميعًا، أي: إذا صلح هذا البرنامج في مرحلة عمر الإنسان المتأخرة وبواسطة الرجال الحكماء الذين يغلبون صوت العقل وتضعف شهواتهم وانفعالاتهم، فلا يصلح لمرحلة الشباب المتسمة بالحيوية والنشاط المليئة بالآمال والطموحات.

وإذا ناسب المشتغلين بالفكر والأدب والعلوم، فإنه لا يناسب العاملين في حقول الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها من الأنشطة الإنسانية التي تستنفذ جهود أصحابها ولا تترك لهم وقتًا للتأمل النظري البحت إلا فيما ندر!

أما إذا أريد للإنسان أن يتجه دائمًا «الاتجاه الصحيح» فلابد من توافقه مع فطرته السوية التي خلق بها، لأن حرمان النفس من اللذائذ المباحة يمنعها من الاستمرار في الاتجاه الصحيح والحياة الصحيحة أيضًا.

ونحن نملك البديل الإسلامي الكفيل بالمضي قدمًا في الاتجاه الصحيح -أي عبادة الله -تعالى- في أعمال الإنسان وسلوكياته أثناء اجتيازه للحياة الدنيا -كما سبق الإشارة عند حديثنا عن مفهوم «العبادة» الواسع.

لا يصلح إذن المنهج البوذي للتقويم الأخلاقي أو تدعيم النفس «المطمئنة»، ولكن الذي يصلح منهج آخر «مفصل» بحكمه بالغة على تركيبة الإنسان الروحية والجسدية، وملائم لأنشطته وحركاته، ويمده بالذخيرة الإيمانية لمواصلة حياته مهما كانت طبيعتها. يقول الدكتور محمد عثمان نجاتي: «وقد اتبع القرآن في تربيته لشخصيات الناس وفي تغيير سلوك أسلوب العمل والممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة التي يريد أن يغرسها في نفوسهم؛ ولذلك فرض الله -سبحانه وتعالى- العبادات المختلفة: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج. إن القيام بهذه العبادات في أوقات معينة بانتظام يعلّم المؤمن الطاعة لله تعالى، والامتثال لأوامره، والتوجه الدائم إليه في عبودية تامة، كما يعلّمه الصبر،

وتحمل المشاق، ومجاهدة النفس والتحكم في أهوائها وشهواتها»[١].

نبذة عن السمات الأخلاقية في الإسلام:

يطول بنا الحديث لو استقصينا السمات الأخلاقية في الإسلام، ويكفينا عرض بعض الملامح، ثم نترك للقارئ حرية الموازنة مع الأخلاق البوذية، التي تبدو حينذاك كقطرات في مياه المحيط.

ومن هذه السمات:

أولاً:

إن الشريعة الإسلامية نفسها بأوامرها ونواهيها تصطبغ بالصبغة الأخلاقية.

يقول الأصفهاني: «ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس والحلم والإحساس، والفضل والقصد منها أن تبلغ إلى جنة المأوى وجوار رب العزة -تبارك وتعالى»[٢].

والشريعة في هذا المجال لها دوران:

أ-دور الردع والإلزام كما يرى ابن حزم حيث تكف الناس عن القتل الذي فيه فناء الخلق، وعن الزنا الذي فيه فساد النسل وخراب المواريث، وعن الظلم الذي فيه الضرر على الأنفس والأموال وخراب الأرض، وعن الرذائل من البغي والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والغش والخيانة وسائر الرذائل [٣].

ب-دور الحث على الاتصاف بمكارم الأخلاق كقول الله-تعالى: ﴿**اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ [الآيات إلى انقضاء تلك الخصال في سورة الأنعام: من الآية ١٥١ وما بعدها].

والآيات كثيرة في هذا الغرض، حيث تحقق الأخلاق الفاضلة بحيث تجعلنا نؤيد

---

(١) القرآن، وعلم النفس ص ٢٥٥ ط دار الشروق ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٩١ تحقيق د/ أبو اليزيد العجمي -ط دار الوفاء ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.

(٣) الفصل في الملل والنحل ج ١ ص ٧٩: ٨٠ ط. صبيح ١٣٤٧ هـ.

الرأي القائل بأن «الشريعة إنما هي تخلق بمكارم الأخلاق»[(١)].

ثانيًا: تنوع الفضائل بتنوع شعب الحياة الإنسانية:

أ - ففي مجال الفضيلة الشخصية -يكشف لنا الدكتور دراز عن مبدأ جديد لم تقره الشرائع من قبل- ألا وهو مبدأ «النية» باعتبارها لب العمل الأخلاقي.فقد كان موسى عليه السلام يغري قومه بأرض الميعاد، والرخاء في الحياة الدنيا والنصر على أعدائهم، ويظهر من دعوة عيسى عليه السلام، طلب الانصراف عن الحياة الدنيا لأن السعادة لا تتحقق فيها، ولكن في ملكوت السماء[(٢)].

ويجمع القرآن الكريم بين هذين الوعدين، لا كباعث أخلاقي وإنما باعتبار أن الغاية التي يقصدها الإنسان الفاضل أعلى من هذا كله «إنه في الخير المطلق، أي: في ابتغاء وجه الله -تعالى- الذي يجب استحضاره في القلب عند أداء العمل الإنساني بتنفيذ أوامره»[(٣)].

ب - الفضيلة في العلاقات بين الأفراد: وتتضح من الآيات القرآنية العديدة التي أتت بتقنين عال في الأدب والذوق الاجتماعي. ومن هذه الآيات قوله -تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا**﴾ [النساء: ٨٦] ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣][(٤)].

ج - الفضائل الجماعية والفضائل العامة: يعلمنا القرآن أنه توجد خارج الأخوة في الله -تعالى- الأخوة في آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال عز وجل: ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم**

---

(١) تفسير القاسمي (محاسن التأويل) ج ١ ص ٩٠ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي - عيسى البابي الحلبي ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

(٢) د/ محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن ص ١٠٥.

(٣) المرجع نفسه ص ١٠٦.

(٤) ينظر أيضًا آية ٢٢ من سورة النور وآية ٥٩ من سورة الأحزاب.

مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وفي الوقت نفسه ينبغي إعداد القوة الكافية لقمع العدو والقضاء عليه، وقد قال تعالى في هذا الأصل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وأمر بالحذر والتحرز من مكائد العدو وانتهازه الفرص فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال:﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢][1].

أما داخل الجماعة الإسلامية فإن القرآن الحكيم يحدد مبدأين:

أحدهما:

دعوة المؤمنين ليكونوا جماعة واحدة متماسكة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الثاني:

مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

د - الفضيلة في المعاملات الدولية وبين الأديان: لم تتح للديانتين اليهودية والمسيحية إقامة علاقات مع دول معادية ولكن الوضع اختلف في عصر النبي ﷺ، حيث أصبح أسوة في مجال الأخلاق، وقائدًا في مجال السياسة أيضًا.

ونورد بعض المبادئ التي وضعها القرآن -بالإضافة إلى ما سبق في الحرب الشرعية لدفع العدوان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]، ثم تتوقف الحرب عند انتهائها ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، والأمر باحترام العهود والمواثيق في العلاقات الدولية ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [سورة النحل: ٩١].

لقد اقتضت مهمة الرسول ﷺ كسياسي وقائد، تشريعًا أخلاقيًا لظروف الحرب

---

(١) الإسلام دين كامل، محمد الأمين الشنقيطي ص ٢٢ - ٢٣ مكتبة ابن تيمية - الجيزة.

والسلم، كما تبين لنا هذه الآيات وغيرها، إلى جانب القواعد التي حددتها السنة [(١)].

ثالثًا:

جاءت طرق الإلزام في القرآن الكريم متنوعة كاملة، ففي الدراسة التي أجراها الشيخ نديم الجسر في هذا الصدد، بين طرق الإلزام التي فصلها القرآن الحكيم وشعّبها، كما أوضح الكبائر والصغائر والأخلاق والآداب، مفصلاً أبواب الترهيب والترغيب، متبعًا طرق التربية الأخلاقية التي تهذب النفس وتقومها.

وتكاد تنحصر طرق الإلزام في القرآن الكريم في ستة أنواع، كما استخلصها الشيخ نديم الجسر في بحثه الجامع بين دراسة النفس والأخلاق في الإسلام، نلخصها فيما يلي[(٢)]:

(١) الإلزم بوازع العقل:

إن مزية الإسلام الكبرى على باقي الأديان هو منحه العقل السلطة في الفهم واستنباط الأحكام، والآيات القرآنية التي تحث على تحكيم العقل، وترك اتباع الظن لا تكاد تحصى، ذلك لأن عقل الإنسانية في بدايته، وأثناء مراحله الأولى كان عاجزًا أمام التجارب المحدودة أن يدرك الخبر، وأن يحدد مكارم الأخلاق ومساوئها، وكان الوحي السماوي يتولى هذا التحديد بواسطة الرسل. وعندما تكامل العقل الإنساني، وبلغ حدًا يستطيع أن يعرف الحق والخير «أنزل الله -سبحانه وتعالى- آخر كتبه على آخر رسله ﷺ وجعل للعقل بمقتضى هذه الشريعة الأخيرة السلطان الأعلى في إدراك حكمة ما حدده القرآن من المبادئ العامة لخدمة الحق والخير ومكارم الأخلاق[(٣)].

إن آيات النظر العقلي، والحض على النظر والتفكير والتدبر كثيرة في القرآن

---

(١) المرجع نفسه ص ١١٣.

(٢) القرآن في التربية الإسلامية للشيخ نديم الجسر، وهو بحث جامع عميق يحتوي على دراسة قضايا حيوية في النفس والأخلاق، ويقع في نحو ٧٥ صفحة من القطع الكبير، منشور في مجلة مجمع البحوث الإسلامية، عدد خاص بعنوان (التوجيه الإسلامي للشباب) ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م، ويعرف الإلزام بأنه إلزام المكلف بتصديق ما قرره من الحق وتنفيذ ما شرعه من الأحكام والأخذ بما وصى به من مكارم الأخلاق، والعزوف عما نهى عنه من مساوئها.

(٣) نفس المصدر ص ٨٨.

الحكيم، مع وصفه للغافلين بأنهم يعيشون كالأنعام، لاحظّ لهم في تزكية الأنفس أو تثقيف العقول، وهكذا أبطل القرآن الحجر على حرية التفكير، حيث كانت التقاليد الدينية قد كبلت بهذا الرق البشرية «وأن أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله، وكون المخاطبين بها، والذين يفهمونها ويهتدون بها، هم العقلاء»(١).

ولئن كان من «أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته، والكف عن معصيته »(٢)، فإن من البديهي أيضًا الإلزام بوازع العقل في المحيط الأخلاقي (٣).

(٢) الإلزام بوازع الضمير «أو النفس اللوامة»:

ولكن الإلزام العقلي لا يتم إلا للقلة من الحكماء، الذين يعبدون الله تعالى، ويطيعون أوامره، لأنه -سبحانه- مستحق بذاته للعبادة، وأن أوامره مستحقة الطاعة.

ولكن الكثرة الغالبة لا يكفيها وازع العقل، وتحتاج إلى وازع الضمير كزاجر يبعدها عن الذنوب التي تخفى على أعين الناس، ولا ينالها العقاب الأرضي بواسطة البشر. وضمير المؤمن موصول بالله سبحانه وتعالى، فهو يعيش في حراسة ضميره، ويقظة «نفسه اللوامة»، وهي بمثابة «محكمة أمن» داخل الإنسان «لا يمكن خداعها ولا الإفلات منها ولا تجدي عنها المعاذير، لأنها مرتبطة برقابة عليا، إنها لوامة دائمًا، توجه إلى صاحبها إنذارات التأنيب، حتى ترده إلى الخير» (٤).

(٣) الإلزام بالترهيب والترغيب:

تنوعت أساليب القرآن الحكيم من حيث الترهيب والترغيب.

ففيما يتصل بالترهيب: فإن -الله سبحانه- وتعالى يحذر العاصي من انتقامه في النفس والأولاد والثمرات، هذا في الدنيا. أما في الآخرة، فالتحذير من أهوال القيامة وعذاب النار.

---

(١) الوحي المحمدي -محمد رشيد رضا ص ١٨٣- المطبعة السلفية.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة -للراغب الأصفهاني ص ٦٦.

(٣) القرآن في التربية الإسلامية لنديم الجسر ص ١٠٤.

(٤) دروس ونفوس ج ١ ص ٢١٠ للدكتور/ توفيق سبع -ط مجمع البحوث الإسلامية.

وفي جانب الترغيب:

وعد بخير الدنيا وزيادته لمن يشكر وحفظ النعمة على من يحافظون على سلوك الطريق المستقيم، ووعد المتقين بالجنة في الآخرة بما فيها من نعيم دائم، لتعويض المحرومين من خير الدنيا في المآكل والمشارب والمساكن وغيرها، وهو وصف يعترض عليه بعض الجهال والمشككين الذين يملأ الزيغ قلوبهم، أما الذين يدركون خفايا النفس البشرية في شدة حبها للخير والنعيم، ونقمتها من الحرمان، فإنهم ليعلمون أنه وصف لازم وضروري، وفي منتهى الحكمة» [(١)].

(٤) الإلزام بوازع الكفارات:

ومن أساليب تربية الضمير، تفويض -الله سبحانه- وتعالى إلى العبد أن يعاقب نفسه جزاء لما اقترفت يداه، وتكفيرًا عن بعض الذنوب كالصوم، وهي عقوبة جسدية أو عتق رقبة، أو إطعام المساكين وهي عقوبة مالية. وهكذا يظهر لون من امتحان الإيمان وتعود الإنسان على محاسبة نفسه، بعد الإقرار بذنبه والإذعان لحكم ربه «وفيها تربية للضمير، واستحضار للرقابة الإلهية، وتعويد على حفظ الإيمان، والكف عن بعض المخالفات».

(٥) الإلزام بوازع الرأي العام:

ومن الأساليب التي امتاز بها القرآن في التربية، هو الأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على قدر الطاقة، ولا سيما في النهي عن منكرات الأخلاق التي لا تمتد إليها يد القوانين، والحديث أيضًا يؤيد هذا الأسلوب وهو قول النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه**».

(٦) الإلزام بوازع السلطان:

وقد لا يصلح مع بعض الناس أنواع الإلزام السابقة، لذلك كان لابد من وازع أعظم، وهو وازع السلطان، حيث قيل: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» «وهي العقوبات المختلفة التي فرضها القرآن على بعض الجرائم، وفوض أمرها إلى

---

(١) القرآن في التربية الإسلامية للشيخ نديم الجسر ص ١٠٥.

الحكام»[١].

وبعد هذه الدراسة المختصرة للأخلاق في الإسلام، رأينا كيف تتضاءل الأخلاق البوذية إلى جوارها، وكيف تصبح متجردة من أية مقومات لترتفع بقامتها إلى المذهب الأخلاقي المتكامل، كما وجدناه بشموخه وكماله متحققًا في الإسلام مما يؤكد مصدره الرباني.

ونتحول الآن لنعقد موازنة أخرى لكي يعرف منها كيف أثرت البوذية في الديانة المسيحية، مكتفين ببعض النصوص المتطابقة في المضمون، ولا نختلف إلا في وضع اسم المسيح عليه السلام بدل «بوذا».

البوذية أقوال البوذيين في بوذا ابن الله	المسيحية أقوال النصارى في المسيح ابن الله
ولد بوذا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل	ولد يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل
ولد بوذا ابن العذراء مايا التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أي في ٢٥ كانون الأول -ديسمبر»	ولد يسوع ابن العذراء مريم التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد «أي في ٢٥ كانون الأول -ديسمبر».
لما كان بوذا طفلاً قال لأمه مايا: إنه أعظم الناس جميعًا	لما كان يسوع طفلاً قال لأمه مريم: «أنا ابن الله»
لما أرسل بوذا إلى المدرسة وهو ولد أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل، وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسة والتنجيم والكهانة والعرافة	لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف: «لقد أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل متعلم».
وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس، وكافة القصص المختصة فيه حاوية	وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية

(١) المرجع نفسه ص ١٠٦.

لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره.	لذكر أعظم العجائب مما يمكن تصوره.
ولما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية «أي بقوة إلهية»	ولما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة غير اعتيادية «أي: بقوة إلهية»
وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض	وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله على الأرض
قال بوذا إنه لم يأت لينقض الناموس كلا بل أتى ليكمله وقد سره عد نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء	وقال يسوع: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل».
وجاء في كتب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا آية كي يؤمنوا به [1].	وجاء في كتب النصارى الدينية المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع علامة «أي آية» ليؤمنوا به.

(١) مختارات من كتاب (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية)، محمد طاهر التنير -الفصل الثامن عشر- مقابلة النص الصريح بين بوذا ويسوع المسيح من ص ١٣٢: ١٤٧- مكتبة ابن تيمية بالكويت. وهناك مقارنات أخرى أجراها السير أرثر فندلاي بكتابه (صخرة الحق) حيث سجل به اكتشاف لوحة أثرية في بابل تثبت أن إلههم (بعل) كان يتصف بنفس الصفات التي ألحقت بعيسى عليه السلام وأن هذه اللوحة كتبت حوالي ١٢٠٠ ق. م كما قارن أيضًا بين المسيحية وعقيدة الفراعنة في أوزوريس (من كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن) ص ٧٩- ٨١- إبراهيم خليل أحمد - مكتبة الوعي العربي بمصر.

خاتمة

لقد حققنا -بعد هذا العرض الوجيز والموجز للبوذية -بعض الأهداف على طريقة دراستنا للأديان، منها:

١- زيادة الإيمان بأن الإسلام يتفوق على غيره ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] وقد لاحظنا ذلك حتى في الجزئيات والفروع، فإن المذهب الأخلاقي البوذي بدا متهافتًا أمام المذهب الأخلاقي في الإسلام.

٢- تسليح الدعاة بالمعارف اللازمة لمعرفة المدخل إلى دعوة أصحاب الأديان الأخرى إلى الإسلام، أي: معرفة المحاسن، والمساوئ في عقائدهم، وتقديم البديل الأكثر إقناعًا وواقعية، وملاءمة للإنسان أيا كان عصره وبيئته، وبخاصة ونحن في عصر يتشوق أهله لمعرفة الحق وتحقيق الحياة الطيبة في هذه الدنيا بعد إخفاق الأنظمة الوضعية. يقول جارودي: «فللإسلام اليوم إمكانيات واحتمالات للانتشار في العالم أكثر حتى من الوقت الذي وصل فيه إلى ذروته. فالمنهج الأمريكي والمنهج السوفيتي قد أثبتا فشلهما. أما الإسلام فهو يمنح الإنسان الأمل في عالم يسوده الآن الخوف حتى على استمراره وعلى بقائه»[١].

٣- إزالة الغشاوة عن أبصار البعض المفتونين بكثير من النحل التي تتمتع ببريق زائف كالبوذية، والتحذير من الوقوع في حبائلها تحت ستار رياضة «اليوجا» [٢]، أو توهم تحقيق السعادة عن طريقها، خاصة إذا جاءتنا عن طريق الكتاب الأوربيين

---

(١) من محاضرته التي ألقاها بجامعة الأزهر بمناسبة الاحتفال بالعيد الألفي بعنوان (مستقبل الإسلام في الغرب) ص ٤٩ من كتيب صادر من وزارة الإعلام بمصر -ترجمة الدكتور رجاء ياقوت رئيس القسم الفرنسي بكلية الدراسات بجامعة الأزهر.

(٢) يذكر الدكتور أحمد شلبي أن (منظمة اليوجا) ذات صلة بالصهيونية، وهي منظمة تدعي أنها تباشر ألوانًا من الرياضة البدنية والتدريبات الروحية أو ما يسمى (باليوجا الروحية). وأهم ما تعني به محاربة الأديان، والعمل علىتحقيق ما يسمى الرباط الإنساني، ثم يصلون بذلك إلى الدفاع عن اليهود باسم الإنسانية ص ٣٥٩ من كتاب اليهودية ط. ١٩٧٨م مكتبة النهضة المصرية. وينظر أيضًا كتاب (اليوغا في ميزان النقد العلمي) للدكتور فارس علوان.

والمروجين لأفكارهم ترفل في ثوب المديح الزائد. ويفيدنا الاستشهاد هنا برأي الأستاذ العقاد حيث يقول: «وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية. لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الأرية على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء»(١).

٤- وهناك ملاحظة أخيرة لابد من ذكرها، إذ تحولت البوذية عندما انتقلت من الهند إلى اليابان، فبعد أن كانت في مصدرها الأصلي مليئة بالتشاؤم والانقباض والحزن، تحولت في اليابان إلى «ديانة مرحة ضاحكة متفائلة، فيها بشر وغبطة وفرح، وحفلات واجتماعات ومعابد وإلهيات وبهجة وأعياد وفيها وعد للصالحين بالجنة وللأشرار بالجحيم»(٢).

وهذا يثبت أنه في غياب عقيدة محفوظة بالوحي ومصونة بمنهج ثابت تتلون العقائد بمزاج الأمم التي تدين بها.

كذلك لا يفوتنا في النهاية التحذير من رياضة «اليوجا» التي أغرم بها البعض تقليدًا ومحاكاة- لا سيما عندما دارت دورتها وانتقلت من الشرق إلى الغرب بزعم تحقيقها للشباب الدائم والصحة والسعادة، إذ أثبت الدكتور فارس علوان- وهو طبيب متخصص- أنها على النقيض من هذا، فهي علميًا وعمليًا تؤدي إلى أضرار وأخطار تصيب الجسم، وتقوض عقيدة التوحيد لأنها تلزم صاحبها السجود للشمس وترديد اسمها بانتظام: «وفيها تقليد للوثنيين، وتضر بالصحة، وتضيع الوقت، وتدعو إلى التشبه بالحيوانات، وقد يتردى ممارسوها في تعاطي المخدرات.. »(٣).

---

(١) (الله) - بحث في نشأة العقيدة الإلهية ص ٧٩ - ط. دار المعارف بمصر عام ١٩٤٩م.

(٢) الديانات والعقائد في مختلف العصور، أحمد عبد الغفور عطار ص ١٩٢.

(٣) اليوغا في ميزان النقد العلمي، د. فارس علوان.

الفصل الرابع

الزرادشتية «أو المجوسية»

زرادشت بين الحقيقة والخيال:

تعد الزرادشتية من أديان الفرس ونحل المجوس، وقد فصّل المسعودي هذه الأديان، فذكر منها ديانة الصابئة (عبدة الكواكب) ثم الزرادشتية، وما تلاها من مانوية- نسبة إلى ماني وهو القائل بالنور والبراءة من الظلمة. ومزدكية- نسبة إلى مزدك وكان يدعو إلى المساواة في المال والنساء [1].

وإذا أردنا الحديث عن زرادشت فسنجد أنفسنا أمام روايات مختلفة، كالشأن عندما نفتقد الروايات التاريخية الموثقة الأسانيد بطريقة علمية، لذا فإننا أمام افتراضات حول حقيقة شخصيته وتاريخ حياته وعقائده، اختلط فيها أحيانًا الواقع بالخيال: فمن الباحثين من أنكر وجوده بالكلية، واعتبره شخصية خرافية نسجت حولها الأساطير والروايات الخيالية التي لا سند لها من الواقع.

وفريق آخر خلط بين زرادشت وبين إبراهيم الخليل ؛ لاشتراكهما في اتجاه كليهما «إلى التأمل في كواكب السماء وملاحظة بزوغها وأفولها والانتهاء من هذا التأمل وهذه الملاحظة إلى أن كائنات هذا شأنها لا يمكن أن تكون آلهة، وما يتعلق بمحاربة كليهما لما كان يعكف عليه قومه من عبادة الكواكب وما يمثلها ويرمز إليها من أصنام، وما يتعلق بإلقاء كليهما في النار وجعلها بردًا وسلامًا عليه» [2].

ويستبعد الدكتور وافي رأي هذا الفريق لعدة أسباب: منها أن زرادشت ظهر - في أصح الروايات- في القرن السابع قبل الميلاد، على حين أن إبراهيم الخليل كان ظهوره حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد. وأن إبراهيم نشأ في بلدة أور ببلاد الكلدان، وإنه سامي الجنسية، على حين أن زرادشت نشأ بأذربيجان في بلاد إيران، وأنه

---

(١) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، د/ هادي حسين حمود ص ١٤٤ مطبعة عصام ببغداد ١٩٨٤م (دار القادسية للطباعة).

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د/ علي عبد الواحد وافي ص ١٢٦، ١٢٧.

آري الجنسية، وأن القرآن الكريم يحدثنا عن رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة، وإسكانه فيها ابنه إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر وبناء الكعبة، بينما يدل تاريخ زرادشت على أنه لم يرحل إلى بلاد الحجاز، ولم تكن له صلة بمكة المكرمة، ولا بالبيت الحرام.

وبعد استبعاد رأي الفريقين السابقين، يصبح من الأرجح الأخذ برأي فريق ثالث يذهب إلى أن زرادشت شخصية حقيقية غير إبراهيم عليه السلام، وأنه إيراني الجنسية ولد حوالي ٦٦٠ ق. م بأذربيجان، وإنه مات قتيلاً في بيت من بيوت النار في بلخ حوالي سنة ٥٨٣ ق. م أثناء إغارة الطورانيين [١].

وكتاب الزرادشتية المقدس هو «زندا فستا»، والكلمة مركبة من كلمتين: «زند» ومعناها شرح، وفستا: النص الأصلي، فمعنى الكتاب النص والشرح، والكتاب «يتضمن التاريخ الأدبي لأمة في مدة طويلة من الزمن، مثلهم في ذلك مثل كتاب اليهود المقدس أي: العهد القديم.ومن المعروف أن هذا الكتاب المقدس ظل قرونًا طويلة يعتمد على الرواية الشفوية قبل التدوين» [٢].

وعندما دالت دولة الفرس للمسلمين الأوائل، وبدأت تتسرب بعض الأفكار أو ما نسميه بالغزو الثقافي -كما سنرى- إلى المجتمع الإسلامي، كان من أبرز الآثار التي سجلها المسعودي المؤرخ هذا التمييز بين الأصل والشرح، أو النص والتأويل.

يقول المسعودي «وكان من أورد في شريعتهم شيئاً بخلاف المنزل الذي هو البستاه، وعدل إلى التأويل الذي هو الزند، قالوا: هذا زندي، فأضافوه إلى التأويل، وإنه منحرف عن الظواهر من المنزل إلى تأويل هو بخلاف التنزيل، فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس، وقالوا: زنديق، وعربوه. والثنوية هم الزنادقة، وألحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم. وأبى حدوث العالم» [٣].

وإننا لنجد تضاربًا كبيرًا بين الباحثين في الديانات عند تناولهم للعقائد الزرادشتية،

(١) المرجع نفسه ص ١٢٨.

(٢) في العقائد والأديان - الديانات الكبرى المعاصرة د/ محمد جابر عبد العال ص ١٦٤ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ م.

(٣) منهج المسعودي في بحث العقائد والفرق الدينية، د/ هادي حسين ص ١٤٨.

وربما يرجع ذلك إلى عدة عوامل، منها صعوبة قراءة كتابها المقدس، «فإذا حاول الإنسان قراءة (الأفستا) فإنه يدرك لأول وهلة أن قراءتها مستحيلة، ذلك لأن الفصل فيها لا يتلاءم ليكون وحده، ولا يتسق أي جزء مع جزء آخر، فهي أجزاء مفككة يتلو بعضها بعضاً، يصدق عليها القول أنها مجموعة جمل مفككة لا ينظمها عقد واحد»(١).

ومنها النقص في الأسانيد والاضطراب في الروايات التي نقلت لنا عقيدة زرادشت، مع اختلاف وجهات النظر بين من رأى أن عقيدته مستوحاة من تأملاته في الحياة والصراع الدائر بين الخير والشر، ومن رأى أنها جاءته بطريق الوحي باعتباره نبيًا!

وممن يميلون إلى الرأي الأول (جيمي هنري برستد) الذي تحدث عن عناصر العقيدة الزرادشتية بقوله: (تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر، هذا الصراع الذي كان يراه حوله أينما سار. وبدا له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر، واعتقد أن الخير ليس إلا كائنًا إلـــهيًا أطلق عليه اسم «مازدا» الذي كان اسمًا لأحد الآلهة القدامى، أو «أهورا مازدا» ومعناها رب الحكمة، الذي رأى فيه أنه هو الله... ويقف ضد (أهورا مازدا) وأعوانه جماعة شريرة قوية أطلقوا عليها اسم «أهريمن»، وهو الذي أخذه اليهود ثم المسيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم الشيطان»(٢).

أما الرأي الثاني الذي يستند إلى بعض النصوص المرجح أصالتها، وتصور زرادشت على أنه نبي، فقد ورد فيها ما يدحض الرأي الأول حيث يقول فيها مناجيًا ربه: «إلى أي أرض أفر؟ وإلى أي اتجاه يكون المهرب؟ إلى النبلاء والسادة وهم يقاطعونني؟ .. أم إلى النلس وهم غير راضين عني؟، أم إلى حكام الأرض الخونة؟ كيف أبلغ رضاك يا أهورا مازدا»(٣).

العقيدة بين زرادشت والأتباع:

يذكر الشهرستاني أن زرادشت دعا إلى التوحيد وإبطال الأصنام حيث أورد وصفًا كاملاً لعقيدته، ملخصًا إياها في عبارة قال فيها «وكان دينه عبادة الله والكفر بالشيطان

---

(١) في العقائد والأديان للدكتور محمد جابر عبد العال ص ١٦٤.

(٢) انتصار الحضارة، جيمس هنري برستد - ترجمة د/ أحمد فخري ص ٢٦٠ / ٢٦١ نقلا عن المصدر السابق.

(٣) في العقائد والأديان ص ١٦٦.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث».

كذلك فصّل عقيدته حيث وصف الله -تعالى- بأنه واحد لا شريك لـــه، ولا ضد ولا ند، وأنه خالق النور والظلمة، ولا يجوز أن ينسب إليه -تعالى- وجود الظلمة.

أما عن نظرته للعالم أو المخلوقات فهي خاضعة لمبدئي النور والظلمة، حيث فسر عنصري الوجود من نور وظلمة وخير وشر. فالأول أي: النور -لـــه وجود حقيقي- والثاني أي: الظلمة والشر- ليس لهما وجود حقيقي، مثل: ظل الشخص حيث يرى أنه موجود ولكن ليس وجودًا حقيقيًا كوجود الشخص نفسه.

كذلك يفسر حركة الموجودات بواسطة نظريته عن النور والظلمة كأصلين متضادين، فالخير والشر، والصلاح والفساد، والطهارة والخبث، إنما حلت حسب تفسيره من امتزاج النور والظلمة، ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم. والبارئ -تعالى- هو الذي مزجها وخلطهما لحكمة رآها في التركيب.

وبينما يحدثنا عن امتزاج النور والظلمة، ينقل عنه أيضًا أنهما يتصارعان ويتغالبان، إلى أن يغلب النور الظلمة، والخير الشر، ثم يتخلص الخير فيرقى إلى عالمه الأعلى، وينحط الشر إلى عالمه الأسفل.

وينسب إلى زرادشت أيضًا تكليف الإنسان بحركات ثلاث هي:

١- الاعتقاد.

٢- القول.

٣- العمل [١].

وإذا قصر الإنسان فيها خرج من الدين والطاعة، أما إذا جرى في هذه الحركات على مقتضى الأمر والشريعة فاز الفوز الأكبر.

ويبدو من عرض الشهرستاني للزرادشتية أنه يلتزم بالوصف، ويقرر مشاهداته ويسجل معلوماته المستقاة من مصادرها إذ يقول «هذا ما وجدته من مقالات أهل العالم ونقلته على ما وجدته، فمن صادف خللاً في النقل فأصلحه، أصلح الله -عز وجل- بفضله حاله، وسدد أقواله وأفعاله».

---

(١) الملل والنحل.

لذلك فإن تمييزه بين عقيدة زرادشت وعقيدة أتباعه لابد أن تؤخذ في الاعتبار عند النظر في تعليل الاختلاف بين العقيدتين، فنلاحظ أن الشهرستاني ميز بين زرادشت الذي نص على أن للعالم قوة إلهية هي المدبرة لجميع ما في العالم، وبين الفرق المنتسبة للزرادشتية بعقائدها التفصيلية الخارجية عن هذا الأصل.

ونحن نرى أن هذا التغيير ربما استحدث بفعل الأتباع والمريدين -لا سيما المتأخرين منهم عن عصر زرادشت- وهذه هي الآفة الغالبة على معظم أصحاب الديانات والعقائد والنظريات الفلسفية، إذ تحدث على أيدي الأتباع تحولات ملحوظة، منها ما يتناول الفروع، ومنها ما يتحول عن الأصول الجوهرية ويقطع الصلة بما قاله واعتقده الأوائل، فلا يبقى إلا الاسم والنسبة، والدليل على تحول الزرادشتية أن الاعتقاد في النار أخذ يتدرج خطوة خطوة، بعد تعظيمها في أول الأمر بالاتجاه إليها، وإلى الشمس ساعة الصلاة؛ لأن «النور» رمز الإله في زعمهم، انحرف بهم طائفة رجال الدين إلى اتخاذها بذاتها قبلة في العبادات، ثم جاءت الخطوة الأخيرة فعبدوا النار، وصاروا يبنون لها الهياكل والمعابد، بحجة أنها جوهر شريف علوي، وأنها لم تحرق الخليل عليه السلام ويظنون أن تعظيمها سينجيهم من عذابها يوم القيامة!

ومن المؤيدين لهذا الرأي أيضًا في العصر الحديث الدكتور علي عبد الواحد وافي إذ يرى أن الديانة الزرادشتية كانت في أصلها ديانة توحيد، تدعو إلى عبادة إله واحد هو «آهورا مزدا» وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكواكب وقوى الطبيعة. فأهورا مزدا يطلق في «البستاق» على الذات المتصفة بصفات القدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم، وإنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، ويعلم حقيقة ما في السماوات والأرض، ولا يصل أحد إلى معرفة حقيقته. بل إن اسم «أهورا مزدا» يدل على معناه في الفارسية على ذلك، فهو مركب من ثلاث كلمات وهو «أهو» و«را» و«مزدا» ومعناها على الترتيب:

أنا -الوجود- خالق، أي أنا وحدي خالق الوجود [1].

وجاءت المرحلة التالية في تغيير العقيدة بسبب دخول الرمز على الذات الإلهية في الزرادشتية حتى تقوى الجماهير على إدراكها باعتبارها ذاتًا روحانيًا خالصة مجردة من

---

(١) الأسفار المقدسة ص ١٤٣.

شوائب المادة، فأشير إليها برمزين أحدهما: سماوي وهو الشمس، والآخر أرضي وهو النار «فكلاهما عنصر متلألئ مضيء طاهر مطهر لا يتطرّق إليه الخبث ولا الفساد، وتتوقف عليه الكائنات، وهذه الصفات تشبه طائفة من صفات الخالق نفسه، وترمز إليه»(١).

وانتهت الزرادشتية كما بينا آنفًا إلى تقديس النار في ذاتها وعبادتها بعد أن كانت رمزًا للإله (٢).

منهج العامري «٣٨١هـ» في دراسة الزرادشتية:

بقدر اتساع منهج دراسة الأديان وشموله، بقدر ما يتمكن الباحث من تقويمها، فإن بعض العلماء من ينظر إلى الأديان بأفعال المتدينين، ومن يقومها بعقائدها وتصوراتها، وهناك من يقدرها بقيمها ومثلها العليا، وما تحث عليه من فضائل الأعمال وترك رذائلها. وهناك من ينظر إلى آثارها في إقامة المجتمعات وبناء الحضارات.

وربما انفرد عالمنا (العامري) بتقويم الزرادشتية من هذه الجوانب كلها، مقارنًا بينها وبين الأديان الستة الواردة بالآية الكريمة ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [سورة الحج: ١٧].

ولكن تظهر جدة الدراسة التي أجراها العامري في تناوله للعنصر السياسي التاريخي (ولذلك يشير إليها على أنها «الأديان الستة التي لها خطط وممالك». أي: أن كل دين منها قد كون مجتمعًا، وأقام دولة في فترة من فترات التاريخ) (٣) غير أن المجتمعات التي نشأت عن الأديان الستة تختلف فيما بينها، فلما جاء الإسلام ناصبته باقي الأديان العداء لأسباب مختلفة، منها أنه أطاح بنفوذ رجال الدين، كما أنه ألغى النظام الطبقي الجائر، لا سيما في المجتمع الفارسي، حيث قسم ملوك الفرس رعاياهم إلى خمس طبقات أعلاها رجال الدين يليها الوزراء ثم قواد الجيش ثم الكتاب ثم الشعب أو الطبقة العاملة.

يقول العامري: إن دين الإسلام لما كان ناسخًا للأديان كلها وكان ملكه قادحًا في

---

(١) نفسه ص ١٤٣/ ١٤٤ وترجمة معنى الإله نقلاً عن كتاب (زرادشت الحكيم) لحامد عبد القادر.

(٢) نفسه ص ١٤٦.

(٣) مقدمة كتاب العامري (الإعلام بمناقب الإسلام) للدكتور أحمد عبد الحميد غراب ص ٤٣. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بمصر ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م.

الرياسات بأسرها، وقد امتلأت القلوب غيظًا عليه، لهدمه كراسي علماء الكتابيين، وطيه مقاعد الملوك والسلاطين، ثم كان مع ذلك في نهاية الحسن) ويعني بذلك: أنه جاء بمبادئ تهدم هذه المزايا المصطنعة من وضع البشر، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣] (١).

وقال الرسول ﷺ: «**إن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب**» وقال أيضًا «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»(٢).

وإذا كان الفرس قد أقاموا مدنية أيام الأكاسرة، إلا أنهم ابتلوا- في رأي العامري بمحنتين عظيمتين لا يدانيهما شيء من المحن الدنيوية في الفظاعة والنكر:

إحداهما: عوق الموابذة «وهم أعلى طبقة من رجال الدين الزرادشتي» لدهمائهم -بالقهر- عن اقتناء الحكمة الإلهية، أي: احتكارهم لتفسير الدين ومنع العامة من النظر والاستدلال، ويفسر العامري هذا الاحتكار بحرصهم على الإبقاء على نفوذهم وسيطرتهم على العامة، وحتى لا يكتشف الناس -إذا ما نظروا وتحققوا- زيف اعتقادات زرادشت (وكان سببه أن زرادشت المتنبي لما أسمى لهم في الأبواب الاعتقاد بتلك الأصول الدالة على نزارة حظه من الحكمة للنظرية: نحو كون العالم من قديمين، وحول جبلته من امتزاج الضدين، وأنواع هذيانه في العفاريت والشياطين، وخطئه الفاحش في شكل الأرض وتخطيط الأفلاك - صيرهم بالمأخذ التقليدي مزجورين عن الحكمة الإلهية، تحرزًا من أن يتنبه الناظر فيها، والمتحقق لبراهينها، على سخافة دعاويه) (٣).

والأخـــرى: التمييزالطبقي، فإن طبقاتهم بأسرهم كانوا مضطهدين بسياسة الاستعباد، ويزيدنا البيروني إيضاحًا فيصف النظام الطبقي الصارم الذي طبقه الملوك القدماء، فكانوا يلزمون كل طبقة ما إليها من عمل أو صناعة أو حرفة، ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته، ويعاقبون من لم يكتف بطبقته (٤).

---

(١) نفسه ، المتن ص ١٩٤.

(٢) نفسه ص ١٧٦.

(٣) نفسه ص ١٧٤. ونلاحظ أنه اعتبر زرادشت من المتنبئين الكذبة!

(٤) نفسه ص ١٧٥ وتعليق محقق الكتاب د/ أحمد عبد الحميد غراب.

إن الفكرة التي تنبه إليها العامري سبق بها عصره؛ لا لأنه عرف فكرة المساواة التي نص عليها الإسلام -فهي مطروقة منذ نزول الوحي، وطبقت في العصور الأولى، ولكن العامري تنبه إلى صلة العقيدة الدينية بالبنية الاجتماعية، وقد ثبت أنه بغير الدين الحق لا تتماسك المجتمعات، بل تظهر فيها إحدى الآفتين: إما النظام الطبقي المرزول الذي وجدناه في المجتمع الفارسي، وقيام فئة بالإمساك بزمام الأمور في مجتمعاتها، والتسلط على غيرها من الفئات بوسيلة أو بأخرى، أو التعرض للتفتت.

وبتطبيق ذلك على مجتمعاتنا المعاصرة نجد أنموذجًا متحققًا في المجتمعات الغربية:

ويتلخص التحليل العلمي الذي قام به الدكتور (حسين مؤنس) إلى أن الدين جزء من البِنْية، بل هو نواة البنية نفسها، فهو وحي من الله وإرادة إلهية لا ظاهرة اجتماعية أو فكر بشري. وعلى ضوء افتقاد هذه البنية بهذا المفهوم، فإنه بالنظر إلى المجتمعين الروسي والغربي، نجد أن كليهما استعاض بالبنية الدينية وسائل أخرى، فلم تصل روسيا إلى ما وصلت إليه بواسطة الماركسية- كما زعمت من قبل (ونحن الآن نراها تتهاوى)- بل بالمذابح التي أنزلها الشيوعيون بالناس في المجتمعات التي يسودونها، وبتخلخل البنية الدينية في الحضارة الغربية بدأ الانحدار الذي يعلله (أرنولد توينبني) بسبب التوسع والسيطرة على البشر جعلت منها ما يسميه «الحضارة العالمية أو الجماعة العالمية» نتيجة لابتلاعها لكل ما استطاعت ابتلاعه من عناصر الحضارة المعاصرة، فدخلت في تركيبها اليوم عقائد غير مسيحية مثل: البوذية والهندوكية، وظواهر حضارية غير غربية مثل: الموسيقى الزنجية، وهي عناصر من حضارة البدائيين. وأخذوا من الهند والصين أشياء مثل اليوجا والكاراتيه، وكل ذلك ناشئ من أن بنية مجتمعاتهم تخلخلت وفقدت تماسكها الأول [1].

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن حالة التقلقل في قواعد المجتمع نتيجة فساد البنية، أدت إلى محاولة البحث عن وسائل أخرى ما دامت المناعة الداخلية للمجتمع قد ضعفت ولم تعد كافية للحفاظ على المجتمع، فاتجهت الكتلة الغربية إلى الحماية الخارجية عن طريق التسلح والإنفاق في غير حساب على غزو الفضاء وما إلى ذلك.

ونعود إلى العامري في كتابه «الإعلام بمناقب الإسلام» الذي التزم بمنهج المقارنة

---

(١) التاريخ والمؤرخون، د/ حسين مؤنس ص ٤٤١/ ٦٤١ باختصار -ط. دار المعارف بمصر ١٩٨.

متبعًا الأدلة، باحثًا عن آثار الدين الحق وثمراته على الفرد والمجتمع، مميزًا بين ذلك وبين صور التدين المنحرف وآثاره الاجتماعية، وقد شغل أيضًا بتعليل مواقف الخارجين على الدين الصحيح، أو المنكرين له ورأى أنهم لا يتعدون أسبابًا ثلاثة.

١- المشرك، وأكثر آفاته هو ما يظهر لحاستي سمعه وبصره في الأوثان المنحوتة من أنواع الأعجوبات، ثم (بمرور الزمن يتطور تعظيم الأصنام إلى عبادتها)[(١)].

٢- الملحد بسبب استحباب اللذات الحسية التي تعميه عن تأمل العواقب، وتدعوه إلى إشباع نفسه بالشهوات.

٣- الكتابي، وأكثر آفاته هو ما وقع في كتبهم من التأويلات المختلة، وتسلط على إنجيلهم من الأهواء المضلة.

ويضيف إليهم كل من المجوس والثنوية الذين يشبهون المشرك مرة، والكتابي مرة أخرى[(٢)].

أثر الفرس في بعض عقائد الشيعة:

يبدو أن بعض الفرس ظلوا مستمسكين بعقائدهم الأصلية، محافظين على شعائرهم، حتى بعد اعتناق الأغلبية للإسلام، وكان هذا دأبهم منذ غزو اليونان لبلادهم، فإن الإسكندر الأكبر عندما غزا بلاد الفرس بعد موت زرادشت بنحو ثلاثمائة عام، مزق الأفستا وأقام بدل الزرادشتية عقيدة اليونان، ولكن الشعب الفارسي ظل محافظًا على ديانته يعلّمها سرًا لأبنائه وأحفاده.

وبعد انتهاء الاستعمار اليوناني -أي نحو خمسمائة عام- جمع الشعب ما تبقى من الأفستا في كتاب واحد، بالرغم من ضياع أجزاء كثيرة منها، وبنى معابد جديدة للنيران[(٣)]، مما يدل على أن الغزو اليوناني لم يفت في عضدهم، ولم يستطع اجتثاث العقائد المجوسية من قلوبهم بالرغم من مضي نحو خمسة قرون. (وبعد أربعمائة عام أخرى غزا العرب فارس وجاءوا بدينهم الجديد الذي أرسل به محمد ﷺ وهو الإسلام، ولكن

---

(١) الإعلام بمناقب الإسلام ص ١٦٦/ ١٦٧ وتعلق د/ غراب.

(٢) نفسه ص ١٦٧.

(٣) قصة الديانات: سليمان مهر ص ١٣٨ -ط. دار الوطن العربي، بدون تاريخ.

عددًا من الناس في إيران فضلوا الموت على اعتناق الدين الجديد، وإن فضل عدد آخر منهم اعتناق الإسلام. أما الآخرون فقد هربوا إلى بلاد سمح لهم فيها بممارسة طقوس عبادتهم كما يشاءون)[١].

لذلك فإن بعض الباحثين في عقائد فرق الشيعة -لا سيما الباطنية- يلاحظون تشابهًا بينهم وبين الفرس، بل أطلق اسم «المجوس» على «القدرية» أيضًا كما سنرى:

قال الأستاذ أحمد أمين: (والحق أن التشيع كان مأوى لجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية.. وتستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية وما في نفوسهم إلاّ الكره للعرب ودولتهم، والسعي لاستقلالهم)، ويستند أيضًا إلى ما ذهب إليه المقريزي في تعليله لاختفاء بعض الفرس وراء الإسلام بعامة، والتشيع بخاصة لمحاربة الإسلام، لأنهم كانوا أهل ملك وعلوّ على جميع الأمم، يعدون سائر الناس عبيدًا لهم، فلما انتصر العرب المسلمون عليهم، وكانوا يعتبرون العرب أقل الأمم خطرًا، تضاعفت لديهم المصيبة، فأرادوا كيد الإسلام بالمحاربة عن طريق الحيلة لعجزهم عن المواجهة الصريحة المباشرة (فرأوا أن كيده على الحيلة أنجح، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم (عليّ) ثم سلكوا بهم مسالك شتى أخرجوهم عن طريق الهدى)[٢]. ولكنهم لو فحصوا ما دار حول الخلافة منذ تولاها أبو بكر، لعلموا أن (عليًا) لم يظلم كما يتوهمون، بل إنه بايع وأقر بخلافة الخلفاء قبله رضي الله عنهم جميعًا.

ويرى المستشرق (دوزي) أن الشيعة كانت في حقيقتها فرقة فارسية مستندًا إلى أن الفرس لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة في الحكم، لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد ﷺ لم يترك ولدًا يرثه، فإن عليًا رضي الله عنه هو الذي يجب أن يخلفه، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية في آل علي، ويضيف أيضًا أنهم اعتادوا أن يروا في ملوكهم أحفادًا منحدرين من أصلاب الآلهة

---

(١) نفسه ص ٣١٩.

(٢) فجر الإسلام، أحمد أمين ص ٢٧٦/ ٢٧٨ نقلا عن (الشيعة والتشيع - فرق وتاريخ)، إحسان الهي ظهير ص ٤٠١ ط. إدارة ترجمان السنة بباكستان ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م.

الدنيا، فنقلوا هذا التوقير الوثني إلى علي وذريته [١].

ولا نجد للشيعة سندًا يعتد به في هذا الانحراف العقدي، ولو درسوا التاريخ بأمانة لوجدوا الاعتراض التام عليه، إذ عبر (المغيرة بن شعبة) ﷺ عن دهشته واعتراضه على اتخاذ الفرس بعضهم أرباب بعض، حيث كان الأكاسرة يدّعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي، ولذلك علق المغيرة على ما لاحظه من تلك المظاهر مخاطبًا رستم قائدهم (وإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نفعله) معبرًا بذلك عن عقيدة التوحيد التي تجعل من المسلم عبدًا لله -تعالى- وحده.

ولما زحف تأثيرات الزرادشتية على العالم الإسلامي في عصور متأخرة، رأينا ابن تيمية يحذر من الوقوع في براثنها مذكرًا المسلمين بالحديث الصحيح: «لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: فارس والروم؟ قال: فمن غيرهما».

ويرى شيخ الإسلام أن هذا الحديث ينطبق على كل من اتخذ عقيدة أو سلك سلوكًا مشابهًا لهاتين الأمتين. ونحن نعلم أنهما في عقيدتهما يعبران عن الشرك في جميع صوره، والمتدبر للقرآن الحكيم يدرك لِمَ لَمْ يعن بالرد على منكري وجود الله عز وجل؟ وكأنه لم يفرض وجودهم، أو كأنه نظر إليهم على أنهم خارجون عن نطاق البداهة والعقل، ولذلك لم يوجه إليهم قولاً يشعر بأن لهم وزن، وإنما وجه حديثه الأكثر إلى المشركين مع الله -تعالى- آلهة أخرى.

مكانة الشيطان ودوره في الزرادشتية:

كان للفصل القاطع بين الخير والشر، والتمييز بين فاعل كل منهما في العقيدة الزرادشتية الوثنية أثره في المغالاة في دور الشيطان وتأكيد فاعليته، فما عرف عن زرادشت أيضًا اعتقاده أن «أهورا» هو الخالق أو هو الحياة، أو هو خالق الحياة أو هو الخير، وأن «مازدا» هو خالق المادة أو هو الشر أو هو الشيطان أو مدمر الحياة أو هو

---

(١) نفسه ص ٣٩٤ ويرى ذلك أيضًا المستشرق الألماني (ولهوزن) المتعاطف مع الشيعة، فيذكر أنه لا سبيل للشك في أن آراء الشيعة كانت تلائم الإيرانيين (نفسه ص ٣٩٤).

المميت»[١].

لهذا فقد وصف الأديب الإيطالي (جوفاني بابيني) ما فعله زرادشت بقوله: (إن زرادشت هو أول من ارتفع بمستوى الشر في التاريخ، فهو الذي جعل الشيطان شريكًا في الخلق، وملحًا لكل طعام، ومرضًا لكل جسم، ولهيبًا يحرق كل شيء)[٢].

ولتصحيح هذا الوضع الخاطئ الذي التبس على الكثيرين فلابد من الاستنارة بعقيدة أهل السنة والجماعة، إذ يتضح على ضوئها أن الإنسان هو الفاعل الحقيقي للشر إذا ما اقترفه وفعله، وليس الشيطان هو الفاعل، فللشيطان الهاتف والوسوسة فقط، ولكنه لا يمسك بتلابيب الإنسان أو يدفعه مستخدمًا قوته أو يجذبه من يديه أو رجليه، كل ما هنالك أنه يغري ويغوي ويظل يهتف حاضًا على فعل الشر.

أما (الشيطان) الوارد في الآية ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]فإن العلامة ابن مفلح يفسر السلطان المنفي في هذه الآية

(١) ديانات أخرى، أنيس منصور ص ٢٦/ ٢٧.

(٢) نفسه ص ٣١، وقد وجد المؤلف صدى لزرادشت عند الفيلسوف الألماني (نيتشه) بكتابه (هكذا تكلم زرادشت)، الذي نسب أقوالاً إلى زرادشت لم يقلها ولكنه -أي نيتشه- أراد (أن يتجاوز الإنسان إلى عبادة الإنسان الأعلى. إلى عبادة النبل والقوة والسمو في الإنسان نفسه.. أليس الإنسان أسمى مخلوقات الله؟ إن عبادة الإنسان للإنسان هو تقديس لأقدس ما خلق الله) ومن المعروف أن نيتشه كان فيلسوف القوة ومنظر النازية (نفسه ص ٣٣).

ولا بد من الإشارة أيضًا في عجالة إلى العمل الأدبي المشهور للشاعر الألماني (جوتة) الذي صور في رواية شعرية موضوع غواية إبليس لآدم عليه السلام وانتقل به إلى الأرض مصورًا مأساة الإنسان مع الشيطان معبرًا عن ذلك في الصراع الذي دار في كيان (فاوست) العالم المسن، حيث انشطر كيانه نصفين وأصبح (مفيستوفيليس) هو الشيطان، وفاوست هو (الإنسان) ويصور انتصار الشيطان في النهاية بعد أن أغراه بفتاة جميلة، ومات العالم في النهاية على أسوأ صورة، لأنه باع روحه واتبع خطوات الشيطان.

(الإسلام حضارة) د. حسين منصور ص ١٤/ ١٥ واسم العالم في الرواية الشعرية (مفيستوفيلس فاوستوسى) -ط. الدار السعودية بجدة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

بالحجة والبرهان، استنادًا إلى قول ابن عباس: (إني ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي وصدقتم مقالتي واتبعتموني بلا برهان ولا حجة). وأما السلطان الذي أثبته الله -تعالى- في قولـــه: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] فهو تسليطه عليهم بالإغواء والإضلال وتمكنه منهم بحيث يؤزهم إلى الكفر والشرك ويزجهم إليه كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] [1].

ولكن لا يحملنا ذلك على الاستهانة بالشيطان، أو التهوين من شأنه، بل ينبغي الحذر منه والتحصن ضده بأنواع الأدعية والأذكار الواردة في السنة. يقول ابن مفلح «اعلم أن الشيطان يقف للمؤمنين في سبع عقبات: الكفر، فإن سلم منه ففي عقبة البدعة، ثم في عقبة فعل الكبائر ثم في عقبة فعل الصغائر، فإن سلم منه ففي عقبة فعل المباحات فيشغله بها عن الطاعات، فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم من ذلك وقف لـــه في العقبة السابعة، ولا يسلم منها المؤمن إذ لو سلم منها أحد لسلم منها رسول الله ﷺ وهي تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى» [2].

ولكن في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة لا يستقل الشيطان بفعل ما يغير مشيئة الله -تعالى- وإرادته، مع نسبة فعل الشر إلى الإنسان الفاعل حقيقة. ونكتفي بمثال واحد ضربه الأصفهاني في تفسير قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] (فإنه تنبيه أن ذلك حكمة من حيث أنه هو المقدر، وتنبيه أن ذلك ليس كما زعم المجوس أن

---

(١) مصائب الإنسان من مكائد الشيطان، ابن مفلح ص ٤٩ الناشر علي رحمي/ دار مرجانة للطباعة بمصر ١٩٨٠م.

(٢) نفسه ص ٦٩.

وينظر مادة (شطن) بكتاب المفردات للراغب الأصفهاني ص ٢٦١ إذ قال: (شطن: الشيطان النون فيه أصلية وهو من شطن أي: تباعد ومنه بئر شطون وشطنت الدار وغربة شطون.

وقيل: بل النون فيه زائدة من شاط يشـــيط، احترق غضبًا فالشيطان مخلوق من النـــار كما دل عليـــه ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة وامتنع من السجود لآدم. قال أبو عبيدة: (الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات، قال: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال ﴿الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] ﴿إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤].

الله يخلق وإبليس يقتل)[(١)].

المجوس ونفاة القدر «أو القدرية»:

وهذا ما أدى إلى تشبيه نفاة القدر «أو القدرية» بالمجوس، وتضمنت كتب العقائد الإسلامية آراء علماء الإسلام في ذمهم وبيان انحرافهم عن العقائد الصحيحة، بل أثبت بعضهم صحة الحديث المروي عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسـول الله ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة**» ورواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم[(٢)].

ومهما كان الاعتراف في تصحيح هذا الحديث فإن المتن يعني أن هؤلاء الذين ينفون القدر، يثبتون للإنسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى، ونفوا أن تقع الأفعال بقدر الله تعالى وقضائه!

وفي حديث آخر روي مرفوعًا عن أبي هريرة ﷺ: «تكون قدرية ثم تكون زنادقة ثم تكون مجوس، وإن لكل أمة مجوسًا وإن مجوس أمتي المكذبة بالقدر، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم ولا تتبعوا لهم جنازة».

وقال الخطابي في شرح الحديث: «إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين: وهما النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره، والله -تعـالى- خـالق الأمرين جميعًا»[(٣)].

ويأتي فصل الخطاب على لسان شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أوضح الموقف العقدي الصحيح بين فريقي الجبرية والقدرية، مرجحًا عقيدة أهل السنة والجماعة

---

(١) المفردات ص ٣٩٥.

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية للسفاريني ج ١ ص ٣٠٥ المكتب الإسلامي -بيروت مكتبة أسامة- الرياض. وإن كان ابن الجوزي قد عده من الموضوعات، وذكر الحافظ المنذري أن في سنده انقطاعًا. إلا أن السفاريني يميل إلى تصحيحه.

(٣) نفسه ص ٣٠٥ وينظر أيضًا الحديث المروي بصيغة أخرى مع اتفاق المضمون حيث ورد بلفظ (والمكذب بقدر الله).

باستعراضه لقصة خلق الإنسان منذ البداية، وطاعة آدم عليه السلام لربه -عز وجل- وعصيان إبليس، مبينًا أن الإيمان بالقدر لا يتنافى مع الإقرار بمسئولية الإنسان عن أفعاله.

قال ابن تيمية: «فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابهًا للمشركين، ومن نظر إلى الأمر والنهي وكذب بالقضاء والقدر كان مشابهًا للمجوسيين، ومن آمن بهذا وهذا، فإذا أحسن حمد الله تعالى، وإذا أساء استغفر الله تعالى، وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره، فهو من المؤمنين. فإن آدم عليه السلام لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه، وإبليس أصر واحتج فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدميًا، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيًا، فالسعداء يتبعون أباهم والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس»(١).

دور الفرس في الغزو الثقافي:

ونأتي أخيرًا إلى بعض الأدلة التي نقدمها لمن يشكك في الغزو الثقافي الغربي المعاصر، إذ إنه في حقيقته كسلسلة في حلقات الغزو المتكررة في تاريخنا، ولكن لم يستطع تفريخ نتاجها كاملاً أيام سطوة الحضارة الإسلامية، فحوصرت وضعفت فاعليتها بما لا يقاس بما أدته في العصر الحاضر بسبب سطوة الحضارة الغربية وانحسار حضارتنا.

وعلى أية حال فإننا نقدم في هذا الحيز من البحث بعض الأدلة من تاريخ احتكاك ثقافتنا بثقافات الأمم قبلنا- كالفرس واليونان- وأمامنا علامات ودلالات على طريق الغزو الديني والثقافي، رأينا شقه الأول -أي الديني- في التشيع، وسنراه الآن بشقه الثاني أي الثقافي- في بعض الأعمال الأدبية، وقد يجتمعان معًا ويختلطان بحيث يتعذر فرزهما:

كما قام العامري بإبراز حقيقة ربما كانت خافية من قبل، وهي أن كتاب «الأدب الكبير» لابن المقفع، يحتوي علىترجمة ملخصة للوصايا الأخلاقية والآداب الموجودة في «الأوستا» -الكتاب الديني للزرادشتية (٢). ويذكر المسعودي ضمن الأخبار الموضوعة من خرافات مصنوعة بكتب منقولة إلينا من الفارسية والهندية والرومية مثل كتاب «خزار أفسنة» وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية «ألف خرافة» والخرافة بالفارسية يقال لها

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ج ٨ ص ٦٤ طبعة الرياض.

(٢) مقدمة كتاب (الإعلام) للدكتور أحمد غراب ص ٦٢/٦١.

أفسانة، والناس يسمون هذا الكتاب «ألف ليلة وليلة»، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرزاد وينازاد» (١).

كذلك أورد الجويني بكتابه «الشامل في الأصول» ما ذكرته طائفة من الثقات المعتنين بالبحث عن البواطن أن الحلاج والجبائي القرمطي وابن المقفع تواصوا على قلب الدول وإفساد المملكة واستعطاف القلوب، وارتاد كل منهم قطرًا، فقطن الجبائي في الإحساء، وتوغل ابن المقفع في أطراف بلاد الترك، وقطن الحلاج ببغداد (٢).

وجاء ابن تيمية فنوه بجهود العلماء قبله الذين قاموا بالكشف عن أستار هؤلاء المتآمرين على عقائد الإسلام وأمته، مبينًا طريقتهم في التمويه والخداع، حيث حاولوا إدخال عقائدهم الوثنية ضمن عقائد المسلمين بإلباسها ثوبًا إسلاميًا خادعًا لستر حقيقتها الباطلة. قال: (وكذلك ذكر الكاشفون لأسرار القرامطة والهاتكون لأستارهم كالقاضي أبي بكر بن الطيب ٤٠٣ هـ والقاضي أبي يعلى - ٤٥٨ هـ وطوائف كثيرة ما وجدنا مصداقه في كتب القرامطة من أنهم وضعوا لأنفسهم اصطلاحات روجوها على المسلمين، ومقصودهم بها مقصود الفلاسفة الصابئين والمجوس الثنوية» (٣).

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٢٦٠ -ط. دار الفكر ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م.

(٢) صيد الخاطر ابن الجوزي ص ٥٤٨، وإن صح النقد الموجه منه للجويني في الخطأ التاريخي ولكن ألا يتفق الثلاثة في الهدف ولو اختلفت عصورهم؟ مع العلم بأن زمان الحلاج والقرمطي متقاربان.

(٣) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ص ١٩٣/ ١٩٤ -تحقيق ودراسة موسى ابن سليمان الدويني -مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

الفصل الخامس

اليهودية

تمهيد:

إن ما يغنينا عن الاستطراد في عرض العقائد والأديان باستقصائها جميعًا أننا اكتفينا بتلك التي سادت في أقطار واسعة من العالم واعتنقتها الملايين كالهندوسية والبوذية والزرادشتية وبقي علينا أن نعرض للديانتين اليهودية والنصرانية:

وتمهيدًا للحديث عنهما فنود أن نبين أولاً الغرض من هذه الدراسة في دائرتين:

الأولى:

في داخل مجتمعاتنا لتصحيح المفاهيم العقائدية في ضوء حملات التشكيك والتجهيل، حيث تخرجت أجيال وفق المناهج التعليمية التغريبية التي كان من أغراضها: إما أن تصبح العقيدة باهتة منزوعاً منها إيجابية الجهاد والاضطلاع بمسئوليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من شعب الإيمان الكفيلة بتحقيق المجتمع الإسلامي الذي يعين الأفراد على الحياة وفق تعاليم الإسلام وآدابه، أو إشاعة فكرة التقريب بين الأديان، أي تمييع فكرة ذاتية الحق تفرده دون صور الباطل المتعددة.

الثانية:

في التعامل الخارجي، ونقصد بذلك معرفة نفسيات وأخلاقيات من نتعامل معهم من أهل الكتاب، فلا تخدعنا الكلمات والعبارات المعلنة لأغراض سياسية وأهداف اقتصادية أو دعاوى للتقارب والنقاش وتبادل الرأي لمواجهة الإلحاد، بينما خطط التبشير تمضي قدمًا لاجتياح الأقطار الإسلامية في إفريقيا وآسيا. لا ينبغي أن تخدعنا هذه المظاهر وتحول بيننا، وبين الفهم الحقيقي للنفسيات والأمراض، ويصبح المفتاح المؤدي للفهم هو معرفة العقائد [1] الدينية التي يحملونها في قلوبهم، وتنطوي عليها جوانحهم، فإن

---

(١) قالت (جولدا مائير ذات يوم: (إن هذه الدولة -إسرائيل- موجودة نتيجة وعد أعطاه لها الله، يكون من السخف أن يطلب الاعتراف بشرعيتها) من مقال بيتر مانسفيلد -الشرق الأوسط- ١/ ١٩٩٠/٦.

اليهود -مثلاً- عندما يبالغون في القتل والتمثيل والتعذيب، فإنما ينفذون التعاليم المدونة في كتبهم المقدسة بتأكيد وإصرار، مع التهديد بسوء مصيرهم إن هم أخلوا بتطبيقها [(١)] ويعلق الأستاذ كمال عون على ذلك بقوله: (لو كان ما يأتيه اليهود من جرائم بشعة عملاً طارئًا يخالفونه تثبتاً لحكومة أو تأكيدًا لسياسة، أو دفاعًا عن النفس، ولو أن تلك القسوة التي يمثلونها كانت من وحي الظروف المحيطة بهم، أو من آثار الويلات التي طالما كرثتهم على مدى تاريخهم، أو من باب المعاملة بالمثل، لرجي أن تزول بزوال الباعث عليها، أما أن تستمد روحها من تعاليم الدين، وتنزل من نفوسهم منزلة اليقين، وتسقاها قلوبهم منسوبة إلى الهداة المرشدين، فذاك الداء الذي لا أمل معه في دواء، ولا يرجى منه شفاء، ما دام للدين أتباع، وما قامت باتباعه تلك التعاليم) [(٢)].

يحدث هذا على مسمع من العالم وبصره، وفي العصر الذي راجت فيه -إلى وقت قريب- طنطنة زوال صراع العقائد والأديان، وأنه عصر التسامح.

وأسفرت الأحداث أننا كنا نعيش في أوهام، فإذا كان الاستعمار العسكري قد انتهى، فإنه يحاول استعادة نفوذه -كما يذكر الدكتور أحمد شلبي- بطريق المبشرين أحيانًا وأحيانًا بطريق عملائه من السكان الأصليين، ويقول: (وكان كثيرًا من السكان الأصليين يتجمعون حول راية الإسلام إبان الصراع للتحرر، إذ كانت المسيحية تعد دين المستعمر، والإسلام دين المقاومة، فلما انتهى الاستعمار خفت صوت التجمع الإسلامي، وقلت شوكته بوصفه أدى مهمته، وانتهت أغراضه في حين زاد التجمع لنشر المسيحية وكثرت وسائله» [(٣)].

---

(١) اليهود من كتابهم المقدس أعداء الحياة الإنسانية ص ٤٣ -كمال أحمد عون- ط. دار الشعب بالقاهرة ١٩٦٩م.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) مقارنة الأديان (٢- المسيحية) ص ٣١ -مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٦٥ وينظر كتابه (الحروب الصليبية: (بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن) مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٦م. وقد صدره بعنوان (تحذير للمسلمين) أورد فيه كلمة نيكسون الرئيس الأسبق لأمريكا بمجلة الشئون الخارجية عام ١٩٨٥ م قال فيها: (روسيا وأمريكا يجب أن تعقد تعاونًا حاسمًا لضرب الصحوة الإسلامية).

كذلك ينبهنا الدكتور/ أحمد شلبي إلى آثار عمليات التنصير في بلاد المسلمين التي تستغل جهل بعض المسلمين بدينهم، أو تنتهز فرص الفقر والمرض لجذب المعوزين والمحتاجين، وآثار ذلك سياسيًا واقتصاديًا، لأن المسيحية التي يعلّمها المبشرون ليست المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام «إنما هي التي نسميها «المسيحية السياسية» التي ترمي -أولاً- إلى ربط دول آسيا وأفريقية بعجلة الغرب عن طريق نشر الدين، وترمي -ثانيًا- إلى خلق فكر مسيحي يقف أمام المسلمين وأمام الفكر الإسلامي في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والدولية»(١).

وتقتضي المناسبة شرح بعض أبعاد الحركة المسكونية المتولدة من الحركة التبشيرية التي تبناها المؤتمر التبشيري العالمي بأدنبره سنة ١٩١٠م، وقد حضر هذا المؤتمر ١٢٠٠ مندوب أغلبهم من الإنجليز والأمريكان، من بينهم (بلفور) واعتذر (روزفلت) الرئيس الأمريكي الأسبق في آخر لحظة.

ورأس المؤتمر (جون موت) الأمريكي ومخطط أعمال التبشير في المؤتمرات على مدى نصف قرن، وكان شعاره: تنصير العالم خلال ٣٠ عامًا. ومن أقوال بلفور عقب انتهاء المؤتمر: (إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرًا من العقبات)(٢).

وعندما نقوم بدراسة الديانتين اليهودية والنصرانية لا ننسى الصلة الوثيقة بين عقائد اليهود والبروتستانت من النصارى:

وسنبدأ أولاً باليهودية ممهدين لذلك بإعطاء فكرة عامة عن تاريخ بني إسرائيل.

تاريخ بني إسرائيل:

إن دراسة تاريخ بني إسرائيل يشكل ركنًا هامًا في دراسة العقيدة اليهودية والتطورات التي مرت بها، حيث حرفوا الوحي الإلهي بالتوراة الأصلية الضائعة التي أنزلت على موسى عليه السلام، فقد اصطبغت العقيدة اليهودية بصبغة الأحداث على مراحل تاريخ الإسرائيليين، وصاغها الحاخامات في كتبهم، ومنها «التلمود»، و«بروتوكلات صهيون»

(١) المسيحية ص ١٣.

(٢) من خطاب اللواء أحمد عبد الوهاب إلى جريدة الأهرام في ٢٣/ ٢/ ١٩٨٩م.

اللتين تعد محتوياتهما المفتاح الحقيقي لفهم شخصية الصهيوني المعاصر. يقول الدكتور علي عبد الواحد وافي: «الأسفار الخمسة بالتوراة مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار -تاريخهم الطويل» (١).

كذلك فإن الإحاطة بتاريخهم بوضع الحقائق المحيطة بقضايا كثيرة، فإن من أبرز معالم تاريخهم صور العداء مع الشعوب المختلفة. يقول الأستاذ العقاد في وصفه لطباعهم: «لا يعرف التاريخ لهؤلاء القوم فترة واحدة جمعتهم على ألفة ووئام مع جيرانهم، فدخلوا مصر ونفر منهم المصريون، وعادوا إلى كنعان ونفر منهم الكنعانيون، وقامت لهم في عهد النبي داود عليه السلام فشغلتهم الإغارة على جيرانهم، واتقاء الغارة من أولئك الجيران، ثم جاء سليمان الحكيم عليه السلام فبنى لهم الهيكل فثاروا عليه.. ثم انقسموا بعده قسمين: إلى الشمال وإلى الجنوب. وحفظت كتبهم ما قاله الشماليون في الجنوبيين، وما قاله الجنوبيون في الشماليين، ثم سباهم البابليون، وحملوهم إلى أرض بابل، فلم تنعقد الألفة بينهم وبين جيرانهم، وسرحهم «كورش» عاهل الفرس بعد حين.. إلى أن يقول في ختام وصفه لهم: «وجملة تاريخهم بعد العودة من السبي تكرار لهذا التاريخ، ولما تفرقوا في البلاد بعد هدم الهيكل، حدث لهم، في كل بلد ما حدث في البلد الآخر»(٢) .. هذا هو التاريخ العام لهم، وسنعود له مرة أخرى معللين مفسّرين.

أما عن القسوة والوحشية في الحروب، فحدث ولا حرج عن بشاعتها مما سجلته التوراة نفسها، كما يقرر العلامة غوستاف لوبون (ويعرف جميع قراء التوراة وحشية

---

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، الدكتور علي عبد الواحد وافي- مكتبة نهضة مصر بالفجالة - مصر - ١٣٨٤هـ: ١٩٦٤م.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس محمود العقاد ص ٤١ مكتبة غريب بالقاهرة ١٩٦٨ م أما الانقسام المذكور فالمقصود به: إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب وقامت الحروب بينهما وظلت مشتعلة الأوزار يرثها خلف عن سلف، حتى لتقرأ في ختام الحديث عن كل ملكين متقابلين في يهوذا وإسرائيل هذه العبارة بنصها (وكان بينهما حرب كل الأيام) وقال تعالى: ﴿**بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**﴾ [الحشر: ١٤]. وينظر كتاب (اليهود من كتابهم المقدس) للأستاذ كمال أحمد عون، ص ٦٦/ ط دار الشعب عام ١٩٦٩م.

اليهود التي لا أثر للرحمة فيها، وما على القارئ، ليقنع بذلك، إلا أن يتصفح نصوص سفر الملوك التي تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار، وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل، وكان الأهالي الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فيبادون باسم (يهوه) من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن، وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء»[(١)].

وإذا عرفنا من هذه اللمحات في تاريخ بني إسرائيل بعض الحقائق المتعلقة بنفسياتهم وطبائعهم التي لم تتغير في واقعهم المعاصر، فإننا نريد بعد ذلك الوقوف على بعض الواقعات الهامة في تاريخهم توطئة لاستقراء وقائعها وتحليل أبعادها، بل إن الديانة اليهودية نفسها قد تأثرت بديانات ومعتقدات بابل- بإقرار أحد مراجعهم وهو قاموس التوراة الذي يقرر: «أن تفهم الديانة العبرية مستحيل ما لم تؤخذ بعين الاعتبار، وبشكل مستمر، الديانات والثقافات الأخرى التي نمت وترعرت في وادي الفرات.. إن الأصول القضائية البابلية، وكذلك الطقوس المعمول بها في المعابد البابلية، يجب أن تؤخذ كعوامل حاسمة التأثير على الشرائع العبرانية في الأصول القضائية والطقوس الدينية»[(٢)].

إن هذا الخليط من الديانات والثقافات والطقوس أفقد التوراة وحدة الموضوع لأنها ترجع إلى مصادر متعددة «وهو الرأى الذي يجمع عليه العلماء اليوم سواء كانوا من رجال اللاهوت أو غيرهم»[(٣)].

أهم الواقعات التاريخية لبني إسرائيل:

سنقتصر على أهم الواقعات التاريخية لبني إسرائيل بغية الإجابة على السؤال التالي:

---

(١) اليهود في تاريخ الحضارات ص ٤٧، غوستان لوبون، ترجمة عادل زعيتر - ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٧٠ م . وإننا نعتقد براءة داود عليه السلام مما نسب إليه، ولعل صاحب هذا النص يحاول تبرئة قومه من هذه الأفعال بنسبتها إلى النبي داود عليه السلام، وقد أشار لوبون إلى أن التوراة كتاب ألف في أدوار مختلفة أشد الاختلاف (ينظر ص ٧٢ من المرجع السابق).

(٢) قاموس التوراة -منشورات سكرينبر- نيويورك ١٩٠٩ م نقلاً عن: التوراة - تاريخها وغاياتها ص ٢٩- سهيل ديب -ط. دار النفائس ١٤٠٦ هـ.

(٣) التوراة الهيروغليفية ص ٤٦.

هل أقاموا حضارة مستقرة بفلسطين، وكان لها صفة الاستمرار ومن ثم يصبح دعوى إعادتها دعوى مقبولة على ضوء تاريخ الحضارات التي أقامها غيرها من الأمم؟

وربما كان التطلع إلى إجابة سؤال آخر أهم وهو:

إذا أقيمت لهم دولة مرة أخرى، هل تلتزم بالقيم الأخلاقية وتقيم كياناً حضارياً يفيد البشرية، أم تستأنف نشاطها الهدام العدائي للأمم والشعوب كدأبها طوال تاريخها، ومن ثم يصبح مصيرها إلى الزوال ما دامت قائمة على الاستعمار والظلم واغتصاب الأرض- فلسطين- من أهلها الأصليين؟ (١).

إذا بدأنا بتاريخ هجرة يعقوب عليه السلام «الملقب بإسرائيل» من بلاد كنعان «فلسطين وما إليها» إلى مصر بسبب المجاعة، فقد كان الوزير حينذاك بمصر هو يوسف عليه السلام وظلت سلالات بني إسرائيل بمصر تنعم بالحياة هناك، ثم تغير موقف المصريين القدماء حيث اتخذوا من بني إسرائيل خدمًا وعبيدًا.

وبقي بنو إسرائيل كذلك إلى أن أرسل الله -تعالى- إليهم وإلى فرعون وقومه رسولين من نسل «لاوي» «ليفي Levi» -أحد أبناء يعقوب هما موسى وأخوه هارون -عليهما السلام- يدعوانهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الكواكب وأرواح الموتى والملوك والحيوان والنبات... وظل موسى وفرعون وقومهما في مشادات مع فرعون حتى أتيح لهم الخروج من مصر إلى سيناء (٢).

وخلال أربعين سنة كان بنو إسرائيل «يتيهون» في صحراء سيناء عقاباً لهم على رفض الانصياع إلى أوامر موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة وهي فلسطين(٣)».

---

(١) زوال إسرائيل حتمية قرآنية، الشيخ أسعد التميمي، ط. المختار الإسلامي بمصر.

(٢) يقول الدكتور عمر فروخ بكتابه الإسلام والتاريخ ص ١٦٢ : ١٦٣- ط. دار الكتاب العربي ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م. يقول: إن الأمة التي تزول حضارتها عن سطح الأرض لا تعود مرة ثانية إلى سطح الأرض وبالحضارة التي زالت معها بينما الأرض تموت (يزوي نباتها ثم يتيبس ويكون حطامًا) ولكنها ترجع في (العام التالي) إلى الحياة بالنبات الذي كان لها في العام السابق).

(٣) باختصار من كتاب (الأسفار المقدسة في الأديان السابقة قبل الإسلام) ص ٧ الدكتور عبد الواحد وافي.

وبعد فناء هـــذا الجيل الجبان نشأ جيل آخر تمرس بشئون القتال، فأكمل الله -تعالى- دينهم، وأتم عليهم نعمته بعد أن تلقى موسى ﷺ من ربه -عز وجل- التوراة.

ثم يأتي الانتصار على يد يوشع خليفة موسى ﷺ بعد وفاته على بلاد «كنعان، فلسطين» واحتلوها بعد إبادة معظم أهلها.

ويرى جوستاف لوبون أنه (لم يكن هنالك فتح بالمعنى الصحيح على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخًا من تعداد الانتصارات، وتقتيل الأهالي وانهيار أريحا) [(١)].

ويفسر سبب نجاح بني إسرائيل بانقسام العشائر الكنعانية قائلاً: (ويفسر انقسام العشائر الكنعانية الكبير حقيقة النجاح الذي ناله بنو إسرائيل القليلو الذوق والضعيفو الأهلية للحرب والسيئو السلاح) [(٢)].

ولا يقر جوستاف لوبون لبني إسرائيل بإسهامهم في أية حضارة، معللاً ذلك بأن فلسطين أو أرض الميعاد - لم تكن غير بيئة مختلفة لهم، فالبادية كانت الوطن الحقيقي لهـــم [(٣)]، ويحدد بداية تاريخ اليهود الحقيقي في عهد ملوكهم وربما يقصد بذلك الفترة التاريخية التي أصبح فيها رؤساؤهم ملوكًا ذوي سلطان كبير ومنهم داود وسليمان -عليهما السلام- بعد أن كان رؤساؤهم السياسيون هم القضاة [(٤)].

أما النكبات التي حلت بهم فإن من أشهرها غارة بختنصر ملك بابـــل في سنتي ٥٩٦ و٥٨٧ ق. م، بما يعرف في التاريخ «بنفي بابل» حيث ظلوا في الأسر زهاء خمسين عامًا حتى

---

(١) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٣٤- جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر - ط. الحلبي بمصر ١٩٧٠ م، ويدلل لوبون على مدى تضخيم الانتصارات بقوله: (إن من يقرأ سفر صموئيل وسفر القضاة بشيء من روح النقد يبصر دور العنت الذي جاوزه بنو إسرائيل في استقرارهم بفلسطين، غير أن هذه الأقاصيص نفسها إذا ما نظر إليها من خلال أبخرة الحماسة الدينية ألقت في النفوس وهمًا قائلاً إن ذلك الفتح ساطع معجز) ص ٣٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٦ (ولا يقر لهم بإنشاء أمة إلا ببداية شارل- أو طالوت) فاستحقوا أن تفتح لهم صفحة صغيرة من التاريخ الحقيقي الذي كان لهم في العالم.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٢، ويقول في مقدمة كتابه (لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة) ص ١٥.

(٤) الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص ٨.

تغلب قورش ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ ق. م، فوقعوا تحت سيطرة الفرس زهاء قرنين كاملين، ثم تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الإسكندر الأكبر، ثم تحت سيطرة الرومان.

وعندما قاموا بثورة في عهد الإمبراطور أدريان ١٣٥م أخمد الرومان ثورتهم وأخرجوهم من ديارهم، فأصبحوا مشتتين في مختلف بقاع الأرض [١].

وإذا عدنا إلى الفترة التي سمح لهم قورش بدخول فلسطين، وإعادة بناء هيكلهم، فإنهم لم يتمتعوا خلالها باستقلال حقيقي، لأنهم كانوا «مهددين من قبل ملوك فارس الذين كانت تساورهم الريب حول كل حجر يضاف إلى الأسوار آمرين قُساةً بوقف العمل في غير مرة» [٢].

لهذا حق لجوستاف لوبون في تأريخه للحضارات والأمم أن يستخلص أن استقلال اليهود لم يكن غير اسمي، ويستطرد فيقول «وما فتئ الفرس والأغارقة والرومان يبسطون سلطانهم المرهوب بالتتابع على تلك المملكة الهزيلة، فتتميز هذه المملكة غيظًا من هذا الاستعباد المتصل، فلا تجد ما تتعزى به عن عجزها سوى إلقاء فارغ الخطب» [٣].

ويبدو أن لوبون اكتفى بظاهر الوقائع والأحداث، ولم يتتبع النشاط الخفي لليهود طوال تاريخهم، إذ من دأبهم العمل من وراء الستار وتكوين الجمعيات السرية التي تضم لها الشخصيات من ذوي النفوذ والسلطان، وتعويض النقص في عددهم باستخدام غيرهم من أعضاء الأحزاب والجماعات والأندية.

ولكن المتابع لأنشطتهم الخفية يقف على محاولاتهم الدائبة للاستحواذ على الثروات، والسيطرة على الأمم، وسعيهم الحثيث للوصول إلى مراكز السلطة السياسية فضلا عن مسئولياتهم عن الكثير من الثورات والحروب في تاريخ العالم.

ولقد صدرت في السنوات الأخيرة -عقب نكبة فلسطين- الكثير من الكتب والبحوث والدراسات حول دور اليهود في أبرز الأحداث التاريخية والمعاصرة.

ومن الوثائق التي تسربت من أحد اجتماعاتهم السرية، ما يكشف النقاب عن بعض

---

(١) الأسفار المقدسة: للدكتور وافي ص ٩.

(٢) اليهود في تاريخ الحضارات: جوستاف لوبون ص ٤١.

(٣) المرجع نفسه.

هذا الدور، تلك الوثيقة المتضمنة لخطبة أحد كتاب الحاخامات في روسيا قال فيها: «قد بلينا بسبي بابل، وذقنا به مر العذاب، أما الآن فقد صرنا وحدنا القادرين على كل شيء، هدمت هياكلنا، وحرقت مذابحنا، ولكننا شيدنا منها كثيرًا، وأقمنا بدلها الآلاف المؤلفة، مضى علينا في العبودية ثمانية عشر قرنًا، وخرجنا من وهدة الذل وعلونا على كل الشعوب» [(١)].

وعلى أية حال، فقد خدع اليهود الأمم عندما بنوا حركتهم على صلتهم التاريخية بفلسطين، «مع أن هذه الصلة قد انتفت نهائيًا منذ تخريب الإمبراطور تيطس للهيكل سنة ٧٠ م وتشتيتهم في أنحاء الإمبراطورية الرومانية سنة ١٣٥ م في عهد الإمبراطور هادريـــان» [(٢)].

كما ظهر من بينهم من يعارض هذا الزعم. يقول أدوين مونتاجو- الوزير البريطاني «١٩١٦- ١٩٢٢»: «إنني يهودي، ولكنني أعترف بأنه لا توجد قومية يهودية وأن فلسطين ليس لها علاقة باليهود» [(٣)].

ونكتفي بهذا القدر كي نبحث في مصادر العقائد اليهودية ودرجاتها من الصحة والثبوت.

---

(١) مكائد يهودية عبر التاريخ -عبد الرحمن حنبكة ص ٤١٦- ط. دار القلم بيروت.

(٢) إسرائيل فتنة الأجيال، إبراهيم خليل أحمد ص ٣٣١- مكتبة الوعي العربي ١٩٧٠م.

(٣) نفسه ص ٣٠٨.

مصادر العقائد والأفكار والخطط اليهودية

سنعرض هذا المبحث لمصادر العقائد والأفكار والخطط عند اليهود وهي تتكون من:

أولاً: العهد القديم.

ثانيًا: التلمود.

ثالثًا: بروتوكولات حكماء صهيون.

أولا: العهد القديم:

وسنتكلم بإيجاز عن كل واحد منها بادئين بالعهد القديم، مستندين إلى تقسيم الدكتور وافي بكتابه (الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام) حيث قسم العهد القديم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول:

كتب موسى عليه السلام، أو الأسفار الخمسة وهي: سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر التثنية، وسفر اللاوين، وسفر العدد، وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة في نظر اليهود[١].

سفر التكوين:

ويقص تاريخ العالم من تكوين السموات والأرض إلى استقرار أولاد يعقوب في أرض مصر، مع تفصيل في قصص آدم (عليه السلام)، وحواء ونوح والطوفان ونسل سام أحد أبناء نوح، وهو الذي انحدر منه شعب بني إسرائيل»[٢] وخاصة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط.

---

(١) ولكن الدكتور حسن ظاظا يختصره ثلاثة أقسام: التوراة والأنبياء والكتب (أو أسفار الحكمة) أما التوارة والأنبياء فإنهما يسيران في نسق تاريخي متصل، ويحكيان قصة حياة العبريين منذ البداية إلى عودتهم من السبي البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. أما القسم الثالث وهو الكتب فإنه تراث أدبي يكثر فيه الشعر والأمثال والقصص. ص ١٢- ١٣ من كتابه: الفكر الديني اليهودي- أطواره ومذاهبه. دار القلم- دمشق ١٤٠٧١٩٨٧م.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د/ علي عبد الواحد وافي ص ١٤- مكتبة نهضة مصر ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

(٢) سفر الخروج:

يعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر، وقصة موسى (عليه السلام) وخروجه مع بني إسرائيل، وتاريخهم في أثناء مرحلة «التيه» التي قضوها في صحراء سيناء واستغرقت أربعين عامًا. وبجانب هذه القصص يشتمل الخروج على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات.

(٣) سفر التثنية:

شغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسة وشئون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات.

(٤) سفر اللاوين:

شغل معظمه بشئون العبادات وخاصة ما تعلق منها بالأضحية والقرابين والمحرمات من الحيوانات والطيور. وقد نسب هذا السفر إلى اللاوين، وهم نسل «لاوي» Levi لأنهم سدنة الهيكل، والمشرفين على شئون الذبح والأضحية والقرابين، والقوانين على الشريعة اليهودية.

(٥) سفر العدد:

تضمن إحصائية عن قبائل بني إسرائيل وجيوشهم وأموالهم [١].

القسم الثاني:

ويسمى بالأسفار التاريخية، وهي اثنا عشر سفرًا تعرض لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين في فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم وملوكهم وأيامهم والحوادث البارزة في شئونهم.

القسم الثالث:

يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، وهي أناشيد ومواعظ معظمها ديني

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥.

أما عن اللغة التي دونت بها التوراة أصلا فهي ليست العبرية، يرى الدكتور فؤاد حسنين أنها دونت بالمصرية القديمة، بل إن موسى (عليه السلام) وسائر الإسرائيليين لم يتكلموا العبرية بل الآرامية. ص ٥٨ من كتابه: التوراة الهيروغليفية.

وعددها خمسة أسفار.

القسم الرابع:

يسمى أسفار الأنبياء، وعددها سبعة عشر سفرًا يعرض كل منها لتاريخ نبي من أنبياء بني إسرائيل الذين أرسلوا إليهم بعد موسى وهارون [١].

وبعد عرض هذا البيان الإحصائي، يأتي دور عرض آراء الباحثين بالأعين الفاحصة المدققة.

موجز لآراء بعض الباحثين:

يلاحظ أنه لم يتعرض باحث- قديمًا أو حديثًا [٢]-في مقارنة الأديان لموضوع مصادر العهد القديم «أو التوراة»[٣]، إلا وأثبت أنها ليست التوراة الأصلية التي تلقاها موسى عليه السلام بالوحي[٤].

وفي مقدمة من فحص هذه الأسفار علماء الكنيسة الكاثوليكية أنفسهم. حيث بحث المجمع المسكوني الثاني للفاتيكان «١٩٦٢- ١٩٦٥» هذه المشكلة التي تتعلق بوجود أخطاء

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥: ١٦.

(٢) وسنعرض في بحثنا هذا لنموذج من كل منهما: أحدهما صاحبه الإمام ابن حزم، والثاني موريس بوكاي.

(٣) يرى الأستاذ إبراهيم خليل أحمد أن (التوراة) كلمة عبرية بمعنى (قرآن) (كتابه محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٣٥)، بينما يفسرها الدكتور أحمد شلبي بأنها تعني (الشريعة أو التعاليم الدينية) (كتابه اليهودية ص ٢٣٨).

(٤) وبناء على الدراسة النقدية للفيلسوف اليهودي سبينور أثبتت أن موسى (عليه السلام) لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص عاش بعدهُ بقرون عديدة ص ٢٧١. ويقرر أننا نجهل مؤلفي كثير من الأسفار، ولا نملك هذه الأسفار في لغتها الأصلية ص ٢٥٥/ ٢٥٦ من كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة ترجمة د/ حسن حنفي.

وينظر أيضًا كتاب (التوراة الهيروغليفية) للدكتور فؤاد حسنين علي، حيث عرض لعدة شواهد تؤيد الرأي القائل بأن التوراة التي بأيدينا ليست لموسى عليه السلام ص ٤٢. كذلك يرجح أنها وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التي بشر بها إخناتون ص ٥٩- ط. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة -بدون تاريخ.

في بعض نصوص أسفار العهد القديم، وأصدر صيغة تشير إلى وجود شوائب به. وفيما يلي نص الفقرة المدرجة بالوثيقة المسكونية الرابعة:

(بالنظر إلى الوضع الإنساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الإنسان، بما لا تقل عن معرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الإنسان غير أن هذه الكتب تحتوي على شوائب، وشيء من البطلان، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي) [(١)].

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: (لقد كان هناك نشاط أدبي بين الإسرائيليين في عهد مبكر فسجلوا تقاليدهم القبلية، وقوانين الجماعة الإسرائيلية، وهذا بجانب الأغاني الشعبية وترانيم العبادة، وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووصى.. وبعد أن استقرت حياة الطائفة الإسرائيلية بدأت تظهر بالتدريج، وعن غير قصد عناصر من هذه الآداب، اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية، وبهذا أعطيت هذه العناصر وقارًا خاصًا تفردت به وتحولت بذلك إلى كتابات مقدسة. ولاشك أن الكُتّاب الأصليين لهذه الكتب لم يدر بخلدهم أن ما كتبوه وسجلوه سيكون له مثل هذه القداسة في حياة الطائفة الإسرائيلية في يوم من الأيام) [(٢)].

ونفهم من ذلك أن القوانين والتقاليد وترانيم العبادة والأغاني الشعبية اختلطت بأقوال الأنبياء والكهنة، ثم استمدت قدسيتها من كثرة تردادها جيلاً بعد جيل، وطغت الروح العامة للجماعة فلم يتوقف البعض للفحص والتمييز بين الوحي وغيره، بينما تثبت الدراسة الفاحصة لنصوص كثيرة بالأسفار الخمسة من أول وهلة- كما فعل الأستاذ ديدات- أنها ليست من عند الله تعالى، وقد أثبت ذلك في أكثر من سبعمائة جملة (وما عليك -هكذا يوجهنا- إلا أن تفتح

---

(١) النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام ص ٢٦٢، للمهندس /أحمد عبد الوهاب- مكتبة وهبة بمصر ١٤٠٠ هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٥.

وإلى نفس المضمون تشير دائرة المعارف الفرنسية (لاروس) فتقول تحت كلمة (توراة): (العلم العصري ولا سيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات، أن التوراة لم يكتبها موسى، وأنها عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها، ألفوها على التعاقب معتمدين في تأليفها على روايات سماعية) ص ٩٩ من كتاب اليهود من كتابهم المقدس كما لعون.

هذه الأسفار عشوائيًا وسوف ترى:

(وقال الرب لموسى) سفر الخروج ٦: ١٣.

(وكلم الرب موسى) سفر الأحبار ١١: ١.

(فتكلم موسى بين يدي الرب) سفر الخروج ٦: ١.

(فقال موسى للرب) سفر العدد ١١: ١١.

(ثم قال الرب لموسى) سفر التثنية ٣١: ١٤

ومن الواضح هنا أن هذه ليست كلمات الرب، ولا كلمات موسى عليه السلام فالضمير هنا هو ضمير الغائب كما هو واضح، مما يعني أن هذا الكلام لشخص ثالث يسجل أحداثًا سمع عنها)[١].

بمثل هذا المنهج تعرض علماء كثيرون مسلمون وغير مسلمين للتوراة بالنقد العلمي، كالتثبت من صحة النصوص بالمقارنة بين السابق واللاحق، أو مراجعة التسلسل للواقعات التاريخية، أو التحقق من مدى الاحتفاظ بالنسخة الأصلية التي كتبها موسى عليه السلام، أو الموازنة بين بعض النصوص وبين الديانات والثقافات التي كانت سائدة في بابل[٢].

---

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص ٣٩، أحمد ديدات، ترجمة نورة أحمد النومان- ط. مكتبة أبي القاسم /جدة.

ويأتي الدكتور فؤاد حسنين أيضًا بعبارات أخرى تتعلق بموسى عليه السلام يستحيل صدورها منه أمثال: (وأما الرجل موسى فكان حليمًا جدًا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض) أو (وأيضًا الرجل موسى كان عظيمًا جدًا في أرض مصر في عيون فرعون وعيون الشعب) كذلك الخبر الخاص بوفاته (فمات هناك موسى عبد الله في أرض موآب حسب قول الله ودفنه في الخواء في أرض موآب مقابل..) ص ٤٢ من كتاب (التوارة الهيروغليفية).

(٢) يقول الأستاذ "موريس فودن" ناظر المدرسة العليا في باريس والمدرس في القسم الديني بها عن التوراة: لو سألنا في أي وقت جمع كل كتاب من كتب التوراة وفي أي حال وظروف، وبأقلام من كتب، لا نجد أحدًا يجيبنا عن تلك الأسئلة وما شابهها إلا بأجوبة متخالفة جدًا، وإن كافة ما كتب مشكوك في كاتبه، وإن كل ما في التوراة هو عبارة عن خليط من كتابات عديدة جدًا جمعت في أجيال متباينة، وأن المذاهب العلمية ترفض أغلب أقوال العلماء النقل التي هي أساس = = اعتقاد اليهود والنصارى، وتقوض بنيان ادعاء السابقين وتبرئ الأنبياء من تلك الكتابات، وأن

والحق أن كثرة المؤلفات الناقدة للتوراة توقعنا في حيرة: فأيها نختار وأيها ندع؟ وتزداد حيرتنا إذا كان أصحابها من أتباع اليهودية أو النصرانية أنفسهم فضلاً عن من أسلم من كبار علمائهم (١).

ومن بين هذه المؤلفات والبحوث سنقتصر على انتقاء بعض آراء كل من الإمام ابن حزم «المتوفى ٤٥٦هـ» بكتابه «الفصل في الملل والنحل»، والطبيب الفرنسي المعاصر موريس بوكاي بكتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم»: سنعرض باختصار لنقد الإمام ابن حزم للعقيدة اليهودية ومصادرها، وهو يعد من أبرز العلماء الذين استخدموا المنهج النقدي لمصادر المعلومات للعقائد كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها، بعد عرضها على الأدلة العقلية:

تصحيح هذه الكتب كالنقش في الماء أو البناء على الهواء، ولكن ما الحيلة ونحن من مائة سنة حيارى بين أسانيد يمحو بعضها بعضًا، فالجديد يناقض سابقه والسابق يناقض الأسبق، وقد تناقض أجزاء الدليل الواحد، وأيسنا من الوصول إلى معرفة صاحب الكتاب الحقيقي.. وقد صدق على شهادة الأستاذ موريس فودن ٥٠٠ عالم في جمعية دار المعارف الكبرى بباريس.

من كتاب (محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن) ص ٧١: ٧٢، للمستشار محمد عزت الطهطاوي -مكتبة النور / مصر الجديدة ١٩٨٦م.

(١) على سبيل المثال :

الدين والدولة: علي بن ربن الطبري- تحقيق عادل نويهض.

في إثبات نبوة محمد ﷺ: دار الآفاق الجديدة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م.

رجال ونساء أسلموا (٣ حلقات)، عرفات كامل العشي- دار القلم- الكويت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

محمد ﷺ في الكتاب المقدس - للبروفسور عبد الأحد داود ترجمة فهمي شما- مراجعة أحمد محمد الصديق- رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

إفحام اليهود. للسموأل بن يحيى المغربي -تقديم وتحقيق د/ محمد عبد الله الشرقاوي، دار الهداية بمدينة نصر/ مصر ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن لإبراهيم خليل أحمد -مكتبة الوعي العربي.

حوار في المسجد النبوي، رزق هيبة- مكتبة التراث الإسلامي بمصر ١٩٨٣ م ويحكي قصة إسلام الأستاذ/ زكي عريبي عميد اليهود في مصر.

رسالة في اللاهوت والسياسة. سبينوزا، ترجمة وتقديم د/ حسن حنفي -مراجعة د/ فؤاد زكريا.

يقول ابن حزم: (نذكر إن شاء الله -تعالى- ما في الكتب المذكورة من الكذب لا يشك كل ذي مسكة تمييز في أنه كذب على الله -تعالى- وعلى الملائكة -عليهم السلام- وعلى الأنبياء -عليهم السلام-، إلى أخبار أوردوها لا يخفى الكذب فيها على أحد كما لا يخفى ضوء النهار على ذي بصر» (١).

ويرى أن الإصرار على الاستمساك بما في كتبهم من أكاذيب وأباطيل يرجع إلى مكابرتهم لعقولهم، وغلبة أهوائهم عليهم وتقليدهم لأسلافهم وعصبية واستدامة لرياسة دنيوية.

ولا يفوته المسارعة بالمقارنة بين مصادرهم ومصادر الإسلام الثابتة اليقينية فيقول: (نحمد الله كثيرًا على ما هدانا له من الإسلام ونحلة السنة واتباع الآثار الثابتة ونسأله تثبيتًا على ذلك، وأن يجعلنا من الدعاة إلى رحمته ورضوانه عند لقائه ... آمين» (٢).

ويعد الإمام ابن حزم من أوائل علماء مقارنة الأديان، حيث رسم المنهج ووضع الأساس، كما ناقش بعض علمائهم وأفحمهم بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية (٣) وسنلخص أبرز الانتقادات التي طعن بها التوراة التي بأيدي اليهود، حيث حرفت وبدلت.

أما التوراة الحق التي أنزلها الله -تعالى- على موسى ﵇، فإننا معشر المسلمين نقرها (لأنه -تعالى- أخبرنا بذلك في كتابه الناطق على لسان رسول الله ﷺ ونقطع على أنها ليست هذه التي بأيديهم بنصها» (٤).

وأول ذلك أن التوراة التي بأيدي «السامرية» غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، يزعمون أنها المنزلة، ويقطعون أن التي بأيدي اليهود محرفة مبدلة، وسائر اليهود يقولون إن التي بأيدي السامرية محرفة ومبدلة.

ويستند أول ما يستند إلى نص في التوراة منسوب إلى الله -تعالى- بقوله «أصنع بناء آدم كصورتنا كشبهنا».

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ١١٦، ط. مكتبة المثنى ببغداد.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧.

(٣) انظر على سبيل المثال ص ٢٠٥ حيث يقول (ولقد فضحت بهذا وجه بعض علمائهم).

(٤) المرجع نفسه ص ٢٠٣.

ويرى ابن حزم أنه لو لم يقل إلا كصورتنا لكان لـــه معنى صحيح، وهو أن نضيف الصورة إلى الله -تعالى- إضافة الملك والخلق، لكن قوله: كشبهنا منع التأويلات وأوجب شبه آدم لله عز وجل، وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل.

وفي النص الذي يتناول لوط عليه السلام وعلاقته بابنتيه، يروي الإمام القصة الواردة بالتوراة، ويعلق عليها بوصفها فضائح وسوآت تقشعر من سماعها جلود المؤمنين بالله تعالى، العارفين حقوق الأنبياء -عليهم السلام- [(١)].

وكذلك وصفه لإطلاقهم على نبي الله يعقوب عليه السلام، أنه خدع أباه وغشه بأنه من الفضائح والأكذوبات وأشياء تشبه الخرافات، لأن هذا التصرف مبعد عمن فيه خير من أبناء الناس مع الكفار والأعداء، فكيف من نبي مع أبيه النبي أيضًا؟[(٢)].

ويلحق نقده للتوراة بنقده لسائر كتبهم التي يضيفونها إلى الأنبياء -عليهم السلام-:

منها كتاب يوشع، ففيه براهين قاطعة بأن بعض متأخريهم ألفه لهم، حيث يتضمن نصًا يفيد بناء سليمان بن داود -عليهما السلام- لبيت المقدس.

«ومن المحال الممتنع أن يخبر يوشع أن سليمان عليه السلام بنى بيت المقدس ويوشع قبل سليمان بنحو ستمائة سنة»[(٣)].

---

(١) المرجع نفسه ص ١٣٣.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٤، ويرى الدكتور حسن حنفي: إن النقاد المسلمين اتبعوا هذه الوسيلة للكشف عن تلفيق الروايات، وأن الغالب على دراسات المسلمين هي إثبات التناقض في النصوص والتحريف في العقائد، وقد ضرب على ذلك مثلاً بابن حزم (مقدمته لكتاب: رسالة في السياسة واللاهوت لسبنوزا ص ٢٧. وبهذه المناسبة يحسن توضيح معنى الحديث النبوي المتصل بهذا الموضوع، ومصدرنا كتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة حيث قال: أما الحديث (إذا ضرب أحدكم فيجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته) ص ٢٦، أولا (لا يقولن أحدكم لأحد قبح الله وجهك ووجهًا أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته، يقول الإمام ابن خزيمة في شرحه للحديث: (أراد إن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب) ص ٢٦ من كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل للإمام ابن خزيمة، تحقيق د/ محمد مصطفي الأعظمن - ط دار الكتب السلفية بمصر ١٤٠٣ هـ. =

ويفحص الإمام ابن حزم بعناية نصوص الكتاب الذي يسمونه (الزبور) ويتضمن المزامير المنسوبة إلى داود ﷺ، ويبين مخالفتها الصريحة لأدلة العقل الصحيحة، منها في المزمور الأول: (قال لي الرب: ابن اليوم ولدتك) ويتساءل الإمام في هذا الموضع فيقول: (فأي شيء تنكرون على النصارى في هذا الباب. ما أشبه الليلة بالبارحة)؟.

وفيه في المزمور الرابع وأربعين منه «عرشك بالله في العالم وفي الأبد قضيت العدل قضيت ملكك أحببت الصلاح وأبغضت المكروه، وكذلك دهنك إلهك بزيت القرح بين إشراكك»[(١)].

=وفي رواية (لا تقبحوا الوجه فإن ابن آدم خُلق على صور ة الرحمن) ص ٢٧ ص ٢٨ - أو معناه عند الإمام ابن خزيمة أن إضافة الصورة للرحمن في هذا الخبر إنما هو إضافة الخلق إليه لأن الخلق يضاف إلى الرحمن إذا خلقه الله وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن لأن الله صورها ألم تسمع قوله عز وجل ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]؟ فأضاف الله عز وجل الخلق إلى نفسه إذ الله تولى خلقه ، وكذلك قوله عز وجل ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: ٧٣] أضاف الله الناقة إلى نفسه وقال ﴿تأكل في أرض الله...﴾ فأضاف الله الأرض إلى نفسه إذ تولى خلقها فبسطها... إلى أن يقول (فما أضاف الله إلي نفسه على مضافين : إحداهما إضافة الذات ، والأخرى إضافة الخلق فتفهموا هذين المعنيين لا تغالطوا).

ب: فمعنى الخبر إن صّح عن طريق النقل مسندا - فإن ابن آدم خلق على صورة التي خلقها الرحمن حين صور آدم ثم نفخ فيه الروح، قال الله عز وجل (خلقكم ثم صوركم). ص ٢٨ من كتاب التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل للإمام ابن خزيمة.

(١) ويقول ابن حزم (هذه سوأة الأبد ومضيعة الدهر وقاصمة الظهر وإثبات إله آخر على الله -تعالى- دهنه بالزيت إكراماً لــه ومجازاة على محبته الصلاح وإثبات إشراك الله تعالى) ص ٢٠٥.

ويلاحظ أن الفصل الثاني والعشرين من سفر الخروج يتكلم عن حكم الآلهة مرارا وتكرارًا ولا سيما في المباهلة (وإذا لم يوجد السارق يقدم صاحب المنزل إلى الآلهة ليحلف).. (وكل دعوى جناية فإلى الآلهة ترفع.. ومن تحكم الآلهة عليه يعوض صاحبه مثلين).. من كتاب (التوراة بين الوثنية والتوحيد) سهيل ديب- دار النفائس ١٤٠٥ هـــ -١٩٨٥م.

وما زال اليهود إلى الآن يدعون مع الله آلهة أخرى (انظر: وثيقة الحاخام جوهاشيم برن، الذي شرح بها وثائق المخطط السري اليهودي الأخير)وقال: [أيها الرفاق، هنيئا لكم قرب تحقق وعود (يهوه) و(أدوناري) الكبير رب الأرباب، هذه الوعود هي أكثر مما نستحق، فلنتضرع إلى الآلهة لتستجيب دعاءنا). من كتاب (مكايد يهودية- عبد الرحمن حبنكة ص ٣٩٥).

ويتضح من هذا النص إثبات إله آخر وهذا دين النصارى، وبعده يأتي نص آخر، يخاطب الله -تعالى: (وقفت زوجتك عن يمينك وعقامها من ذهب، أيتها الابنة اسمعي وميلي بأذنيك وأبصري، وآنسي عشيرتك وبيت أبيك، فيهواك الملك وهو الرب والله فاسجدي له طوعًا».

وعندئذ يعلق ابن حزم مبديًا تعجبه الشديد على النص والسابق عليه فيقول: «ما شاء الله كنا أنكرنا الأولاد فأتونا بالزوجة والأختان، تبارك الله فما نرى لهم على النصارى فضلا أصلا ونعوذ من الخذلان» (١).

ويمضي في نقده على هذا المنوال مستندًا إلى عقيدة التوحيد والتنزيه لله -سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل إلى عرض بعض النصوص التي تتصل بالإيمان بالآخرة والبعث، فمنها ما يتفق مع قول الملحدين الدهرية مثل «الناس كالشعب إذا خرجت أرواحهم نسوا ولا يعلمون مكانهم ولا يفهمون بعد ذلك».

ويرى الإمام ابن حزم أن دين اليهود يميل إلىهذا ميلاً شديدًا؛ لأنه ليس في توراتهم (ذكر معاد أصلا ولا لجزاء بعد الموت وهذا مذهب الدهرية) ثم يستنتج من أن ما حوته كتبهم من عقائد باطلة يصبح حجة لنا على قيامهم بالتبديل والتحريف، ومعجزة لنبينا ﷺ (٢).

وقد اطلع ابن حزم على ما كتبه الأحبار في «التلمود» مبينًا أن اليهود أخذوا دينهم من الأحبار وإليهم يرجعون في نقلهم لتوراتهم، وكتب الأنبياء وجميع شرائعهم، وهم الذين بدلوا الدين بأنهم عملوا لهم هذه الصلوات عوضًا مما أمر الله -تعالى- به من القرابين، ثم يسرد بعض النصوص التي تعد حقًا من الخرافات التي كتبها الأحبار، وقد حصنوا أنفسهم بقداسة خاصة ومكانة يرتفعون بها حتى على الله تعالى، (فمما أجمع أحبارهم لعنهم الله أن من شتم الله تعالى، وشتم الأنبياء يؤدب، ومن شتم الأحبار يموت أي: يقتل) (٣).

ومن أعجب الوقائع التي يسجلها ابن حزم ما سمع علماءهم يذكرونه ولا يتناكرونه أن

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٣١٧.

أحبارهم اتفقوا على أنهم (رشوا بولس البنياميني -لعنه الله- وأمروه بإظهار دين عيسى ﷺ وأن يضل أتباعهم ويدخلهم إلى القول بألوهيته، وقالوا لــه نحن نتحمل إثمك في هذا، ففعل وأبلغ من ذلك حيث قد ظهر) [١].

ثم يقارن بين ما أحدثه «بولس» في النصرانية وما حاوله عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوء اليهودي الحميري لعنه الله، ليضل من أمكنه من المسلمين «فنهج طائفة رذلة كانوا يتشيعون في علي ﷺ أن يقولوا بألوهية علي» [٢].

وإن كان اليهود قد نجحوا عن طريق بولس في إفساد دين النصارى فإنهم لم يحققوا مآربهم في الإسلام، إذ لم يؤثر ابن سبأ إلا في قلة ضئيلة، وهم الباطنية والغالية من الشيعة.

وكان العاصم من الوقوع فيما وقع للنصارى سلامة منهج المسلمين في القبول والتلقي، حيث إننا «لا نصدق في ديننا بشيء أصلا إلا ما جاء في القرآن وما صح بإسناد الثقات ثقة عن ثقة، حتى يبلغ إلى رسول الله ﷺ فقط وما عدا هذا فنحن نشهد أنه باطل» [٣].

ويتضح لنا مما تقدم براعة الإمام ابن حزم في نقده لنصوص الكتب الدينية عند اليهود، ومن ثم فإنه قد سبق عصره من حيث وضع المنهج في نقد نصوص الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، بينما لم يعرف علماء الغرب هذا المنهج إلا أخيرًا جدًا في العصر الحديث. وفي هذا الصدد: يقول موريس بوكاي: (إن معالجة الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية للنصوص شيء قريب العهد في بلادنا، ففيما يخص العهد القديم والعهد الجديد، ظل الناس يقبلونها على ما هما عليه طيلة قرون عديدة) [٤].

ويعرض بعد ذلك للنتائج التي ترتبت على استخدام علم نقد النصوص، حيث تم اكتشاف مشاكل مطروحة وخطيرة، منها ما توصل إليه بعض المؤلفين من المتناقضات والأمور البعيدة عن التصديق لكل من يريد أن يحتفظ بسلامة مقدرته على التفكير وحسه

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٢.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٤.

(٤) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم -دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة تأليف موريس بوكاي الترجمة العربية -دار المعارف بمصر ١٩٨٧ م ص ٩.

الموضوعي، وكان من المأمول التصريح بوجود هذه المتناقضات، ولكن نرى الدكتور بوكاي يأسف حقًا لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافًا لكل منطق. ويختم هذا الأسف بقوله: (ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادرًا على فضح مواطن الضعف من هذا النوع، فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت في جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعتبر غالبًا من المعارف الأساسية جدًا» (١).

وكشأن إمامنا ابن حزم، أقدم الدكتور موريس بوكاي على عقد مقارنة بين نصوص كتب اليهود والنصارى وبين القرآن الكريم، وخلص منها إلى التأكد بأن القرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ عن طريق جبريل- ﵇- وقد كتب فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المسلمون عند الصلاة، وأنه لا يحتوي على مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث.

وكان لدى هذا العالم من الأمانة والشجاعة الأدبية بأن يصرح بذلك معلنًا عن نتيجة بحثه المنهجي الموضوعي، فقال: (لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق، وبموضوعية تامة بحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، وأن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي، استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث) (٢).

---

(١) المرجع نفسه ص١٠.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣. وتأمل في بيان ذلك قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [فصلت: ٥٣] ونحن نرى بوكاي في اتباعه هذه الطريقة في البحث عن الحق مستضيئًا بنور الفطرة، لينقذ نفسه من أسر البيئة وأغلال التقاليد حوله، بخلاف أترابه الذين خضعوا لها. ويصور لنا الدكتور وولتر أوسكار لند برج التجربة التي يمر بها أثناء مراحل طلب العلم فيقول: (وحتى عندما تتحرر عقول الناس من الخوف، فليس من السهل أن تتحرر من التعصب والأهواء، ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله هو صورة الإنسان، بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على=

وسنعرض فيما يلي بإيجاز لنقده للتوراة في ضوء المعارف الحديثة:

نقد موريس بوكاي للتوراة في ضوء المعارف الحديثة:

تتكون التوراة من خمسة أجزاء كما بينا آنفًا حسب عقيدة اليهود وهي: التكوين، والخروج، والسفر اللاوين، والسفر العدد، وسفر التثنية.

وتتناول التوراة موضوعات كثيرة، منها أصل الكون وحتى دخول الشعب اليهودي أرض كنعان، الأرض الموعودة بعد الخروج من مصر، وبالتحديد حتى موت موسى عليه السلام وتستخدم حكاية هذه الأحداث كإطار لعرض التدابير الخاصة بالحياة الدينية، والحياة الاجتماعية للشعب اليهودي، ومن هنا جاء اسم التوراة، أي الناموس [(١)].

وظلت اليهودية والمسيحية لقرون طويلة تعتبران أن موسى عليه السلام هو كاتب التوراة اعتمادًا على ما ورد فيها من أقوال مثل قول الرب (اكتب هذا تذكارًا في الكتاب)، أو ما ورد في سفر العدد (وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب)، أو الآية الواردة في سفر التثنية (وكتب موسى هذه التوراة).

وابتداء من القرن الأول قبل الميلاد، كان هناك دفاع عن الرأي القائل بأن موسى عليه السلام قد كتب الأسفار الخمسة كلها، أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تمامًا، وبدأ العلماء يشككون فيه، حيث رأى أحدهم استحالة أن يكون موسى عليه السلام قد كتب بنفسه كيف

= الأرض. وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تسمح مع أسلوبهم في التفكير، أو مع أي منطق مقبول. وأخيرًا عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي تجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية). من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ص ٣٨ ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، مراجعة وتعليق د/ محمد جمال الدين الفندي.

ونحن نحمد الله -تعالى، على أن علماءنا لا يمرون بهذه الأزمات؛ لأن الحقائق العلمية الكونية والطبيعية لا تتعارض مع الآيات القولية -أي القرآن الحكيم- كما أثبت بوكاي، وكما دلنا على ذلك علماؤنا من قبل، ومنهم الإمام ابن القيم.

(١) المرجع نفسه ص ٢٦.

مات [١].

وقد قام (ريشار سيمون) بدراسة هذه القضية بكتابه (التاريخ النقدي للعهد القديم) نشره ١٦٧٨م، وفيه يؤكد على الصعوبات الخاصة بتسلسل الأحداث والتكرارات وفوضى الروايات وفوارق الأسلوب في أسفار موسى الخمسة.

ثم قام جان استروك ١٧٥٣م بدراسة أخرى نشرها على الملأ بناء على ملاحظة أساسية هي: وجود نصين جنبًا إلى جنب في سفر التكوين يحتوي كل منهما على خاصية مختلفة في تسمية الرب: إذ يسميه أحدهما بيهوه، ويسميه الثاني بألوهيم [٢].

وهناك أخطاء أخرى ذات طابع تاريخي اكتشفها عدة مفسرين يهود ونصارى حيث وقفوا على عدة تعديلات مختلفة وإضافات لاحقة للنصوص الأصلية:

وعلى سبيل المثال قدم الأدب ديفو، بالنسبة لأسفار موسى الخمسة وحدها في المقدمة العامة التي تسبق ترجمته لسفر التكوين، قدم تفصيلا بكثير من النقاط المتنافرة التي لا يبدو لنا - أن الفكرة العامة التي نستطيع الخروج بها من هذه الأخطاء، هو أنه لا

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٧. ويذكر الدكتور حسن حنفي أن آباء الكنيسة ظنوا قديمًا أن موسى عليه السلام هو مؤلف التوراة، وظل هذا الاعتقاد في العصر الوسيط حتى جاء سبينوزا ولوذر وشكّا في نسبة الأسفار إلى موسى عليه السلام، ثم ظهر نقاد كثيرون حتى أتى فلاوزن وأعلن نظريته المشهورة القائمة على المصادر الأربعة متأثرًا بأفكار هيكل عن تطور التاريخ. (مقدمة كتاب: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا ص ٢٣/ ٢٤) وظهر نقاد كثيرون بفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة والدانمارك.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨، ٣٩.

ويرى الدكتور حسن ظاظا أن النص التوراتي ليس له سياق موحد بل يرتد إلى أربعة ينابيع هي:

١- مصدر يحمل اسم (يهوه) علمًا على رب العبريين الوطني القديم ورواته كانوا من الجنوب.

٢- مصدر يحمل اسم (ألوهيم) علما على الله باسمه المنتشر في أسباط إسرائيل بالشمال.

٣- مصدر تشريعي بَحْت.

٤- حواشي الكهنة (الفكر الديني اليهودي ص ٢٦ - ٢٧).

٥- كذلك يذكر الدكتور فؤاد حسنين أن نقاد التوراة أدركوا منذ قرنين أن قصص سفر التكوين تختلف فيما بينها حول لفظ الجلالة، فأحيانًا تستخدم لفظ (يهوه) وأخرى اسم (ألوهيم) وأدى ذلك إلى القول باعتماد التوراة علىمصدرين مختلفين. التوراة الهيروغليفية ص ٤٦.

يجب أن نأخذ النص مأخذًا حرفيًا [١].

وقد خلص موريس بوكاي في دراسته القيمة إلى القول بأن سفر التكوين يتضمن أكثر المتناقضات وضوحًا مع العلم الحديث ويحصرها في ثلاث نقاط جوهرية:

(١) خلق العالم ومراحله.

(٢) تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض.

(٣) رواية الطوفان [٢].

أولاً: خلق العالم ومراحله:

(أ)تتحدث بعض الآيات في الإصحاح الأول عن «النور» الذي يضيء نهارًا في صباح اليوم الأول من أيام الخلق كما تروي التوراة، بينما لا تذكر التوراة «أنوار» السموات في سفر التكوين إلا فيما يتعلق بخلق اليوم الرابع.

يبدو من غير المنطقي هنا أن يوجد النور أَوَّلاً، ولأن الليل والنهار لا يتعاقبان إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت نجمها الخاص بها أي: الشمس [٣] فكيف يظهر ضوء الشمس أولا -أي: النور- بينما لم تخلق إلا في اليوم الرابع حسب رواية التوراة؟

(ب) تحتوي إحدى الفقرات التي تتحدث عن ترتيب المخلوقات على مزاعم لا يمكن قبولها في ضوء العلم الحديث، إذ يشير سفر التكوين إلى خلق الحيوانات الأرضية في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وهذا الأمر غير مقبول على ضوء المعلومات العلمية الحديثة كما يرى موريس بوكاي.

(ج) وتنتهي رواية الخلق بالنص على أن الله -تعالى- فرغ في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع «تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا».

---

(١) المرجع نفسه (٣) ص ١٣٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٠ والواقع أن الدراسة النقدية لم تقتصر على استروك والأب ديفو حيث توالى العلماء والباحثون في نقد التوراة، الأمر الذي أدى بأن أنشأ البابا (لجنة التوراة) عام ١٩٠٦م من أجل الحد من النظريات النقدية، ومع هذا توالت واستمرت (ينظر تعليق د/ حسن حنفي بكتاب سبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسة) ص ٢٣/ ٢٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٤١.

ولا نستطيع المرور على هذا القول بغير تعليق، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وقد ردّ على هؤلاء المغضوب عليهم بقوله: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾[ق: ٣٨].

وبيت القصيد في النقد الموجه إلى النص التوراتي يتلخص في أنه يقسم روايته إلى أيام بالمعنى الدقيق، أيام الأسبوع الذي نعرفه ونقدره في حياتنا الدنيوية، بينما من المعروف تمامًا من وجهة النظر العلمية في أيامنا أن تشكل الأرض والكون قد تم على فترات زمنية شديدة الطول، لا تسمح المعطيات الحديثة بتحديد مدتها حتى تقريباً.

لـــذلك فإن تعاقب الأحداث في النص الكهنوتي يناقض المعلومات العلمية الأصيلـــة [١].

وقد تنبه الأستاذ موريس بوكاي- عندما قارن بين الأيام في التوراة والقرآن -إلى أنها تعني (مراحل)، أو (فترة زمنية) وليس الأيام المتداولة بيننا في الدنيا. ودليله على ذلك آيات منها ما قاله تعالى: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [السجدة: ٥]، وقوله عز وجل ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج: ٤]، ويقرر بوكاي في النهاية: (فمن حقنا إذن أن نقبل، فيما يتعلق بخلق العالم، بقول القرآن ضمنًا بفترات زمنية طويلة رقمها بالعدد ٦، ولاشك أن العالم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات هو ستة مراحل، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جدًا تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها، وتصبح شيئًا تافهًا) [٢].

(١) المرجع نفسه ص ٥٤ والكهنوتي نسبة إلى الكهنة الذين أعادوا روايتي الخلق على مشيئتهم.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٠. (يقول سبينوزا: (إننا نرى معظم اللاهوتيين وقد انشغلوا بالبحث عن وسيلة لاستخلاص بدعهم الخاصة وأحكامهم التعسفية من الكتب المقدسة بتأويلها قسرًا، وبتدبير هذه البدع بالسلطة الإلهية ويصفهم بأنهم الذين لم يتورعوا عن تحريف الكتاب في مواطن كثيرة). ص ٢٤١ من كتاب (رسالة في اللاهوت والسياسة) وبمناسبة الحديث عن التأويل كأحد الطرق لتحريف النصوص بطريقة غير مباشرة، فإننا نرى لزامًا علينا تصحيح الخطأ الذي وقع فيه الدكتور حسن حنفي في مقدمته لكتاب (سبينوزا) ص ٤٣ عندما عرض لمنهج ابن ميمون الفيلسوف اليهودي ومؤداه (إذا تعارض العقل مع النقل «المعنى الحرفي» وجب تأويل النص ورأى تدعيمه بنص لابن تيمية ظن أنه يؤيد هذا المنهج. ويلزمنا تصحيح النص المقتبس بسبب=

ثانيًا: تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض:

يحدد التقدير العبري الوارد بالعهد القديم تاريخ خلق العالم بسبعة وثلاثين قرنًا قبل الميلاد، وهو مخالف تمامًا لما نعرفه بواسطة العلم الحديث، إذ من العسير معرفة ما يتعلق بخلق الكون، وكل ما يمكن تحديده على وجه التقريب هو تكون النظام الشمسى تقريبًا بأربع مليارات ونصف من السنوات (١).

كذلك أخطأت التوراة في سفر التكوين عندما حددت الفترة الزمنية التي تفصل بين إبراهيم وآدم -عليهما السلام- فأدت إلى الزعم بأن آدم عليه السلام كان قبل المسيح بثمانية وثلاثين قرنًا.

وقد ثبت أن هذه التقديرات الوهمية من عمل الكهنة اليهود في القرن السادس قبل الميلاد، وتتعارض مع المكتشفات العلمية التي حددت تاريخ الخلق بعصر سابق بكثير (٢).

ويقرر موريس بوكاي بأنه لا أحد يستطيع أن يحدد بشكل دقيق تاريخ ظهور

= اللبس الذي وقع فيه د/ حسن حنفي حيث ظن أنه رأى ابن تيمية، بينما الصحيح أن الشيخ أورده منسوبًا إلى الرازي ومن نحا نحوه من المتكلمين الذين يرون تقديم الدليل العقلي على الدليل السمعي إذا تعارضا في تصورهم.

والنص المنسوب لابن تيمية على هذا النحو مبتسر، ولو أكمله الدكتور حسن حنفي لوجد في نهايته ما ينقضه من أساسه؛ لأن ابن تيمية عقبه بالتعليق عليه بقوله: (ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء- يقصد المتكلمين كالرازي ومن اتبعه- يضع كل فريق لأنفسهم قانونًا فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعًا فما وافق قانونهم قبلوه، وما خالفهم لم يتبعوه، وهذا يشبه ما وضعته النصارى من أمانتهم التي جعلوها عقيدة إيمانهم وردوا نصوص التوراة والإنجيل إليها).

من كتاب (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) ص ٣ على هامش كتاب منهاج السنة أو (درء تعارض العقل والنقل) بتحقيق د/ محمد رشاد سالم. وينظر معجم أعلام الفكر الإنساني تصدير د/ إبراهيم مدكور المجلد الأول -ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر ١٩٧٤ م- مادة ابن تيمية (ص ٧١- ٨٤).

(١) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

الإنسان، ومع ذلك فيمكن التأكيد بوجود أطلال الإنسانية مفكرة وعاملة ويحسب قدمها بوحدات تتكون من عشرات من ألوف السنين.

وعلى أية حال فإن المعطيات العلمية تسمح بتحديد تاريخ الإنسان أبعد بكثير من العصر الذي يحدده سفر التكوين لأوائل البشر [١].

ثالثًا: رواية الطوفان:

يبدأ موريس -أولاً- فيبين أن الإصحاحات ٦، ٧، ٨ من سفر التكوين مخصصة لرواية الطوفان، ولكنها تتضمن روايتين منفصلتين في مقاطع متداخلة كل في الآخر مما يجعلها تتناقض مع بعضها البعض تناقضًا صارخًا، حيث يحاول اليهود تعليل هذا التناقض بسبب اختلاف مصدريهما، أي المصدر اليهودي، والمصدر الكهنوتي،وعلى أية حال، فإن الرواية في شمولها هي كما يلي:

(لما عم فساد البشر أراد الله -تعالى- تدميرهم، فحذر نوحًا وأمره ببناء السفينة التي سيدخل بها وزوجته وأولاده الثلاثة بزوجاتهم الثلاث، وكائنات أخرى حية، ويختلف المصدران بالنسبة للكائنات الحية، فهناك مقطع من الرواية «وهو كهنوتي الأصل» يشير إلى أن نوحًا قد أخذ زوجًا من كل نوع، ثم يحدد المقطع التالي «وهو من الأصل اليهوي» أن الله قد أمر بأخذ سبعة من كل نوع من ذكر وأنثى من الحيوانات المسماة بالطاهرة، وزوجًا واحدًا من الحيوانات المسماة بغير الطاهرة، ولكن بعد ذلك يتحدد أن نوحًا لن يدخل السفينة فعلا إلا زوجًا من كل نوع من الحيوانات. ويؤكد المتخصصون، مثل الأب ديفو أن المعنى به هنا هو مقطع معدل من الرواية اليهودية)[٢].

كذلك فيما يدل على الاختلاف بين النص اليهودي، والنص الكهنوتي أن الأول يشير إلى أن عامل الطوفان هو ماء المطر، بينما يشير الثاني إلى أن الطوفان مزدوج، أي: ماء المطر والينابيع الأرضية [٣].

كذلك هناك اختلاف بين النصين في مدة الطوفان، إذ تقول الرواية الأولى اليهودية:

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٧، ٥٠، ٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٢.

(٣) المرجع نفسه: ربما يقصد بوكاي بالمصدر اليهودي، المصدر الإلهي والكهنوتي نسبة إلى الكهنة.

أربعون يومًا فيضانًا، على حين يقول النص الكهنوتي: مائة وخمسون يومًا.

وحسب تسلسل ميلاد الأنبياء الثلاثة آدم ونوح وإبراهيم -عليهم السلام- فإن التوراة تحدد مولد إبراهيم عليه السلام بثلاثة قرون بعد الطوفان.

ولكن حسب الرواية الواردة في التوراة تبين أن الطوفان عم كل الجنس البشري، وكل الكائنات الحية التي خلقها الله -تعالى- قد فنيت.

وعندئذ يتساءل موريس بوكاي: هل من المعقول أن البشرية -والأمر كذلك- قد أعادت تكوين نفسها ابتداء من أولاد نوح وزوجاتهم في هذا الزمن القليل؟ ويقرر بناء على هذه الملاحظة البسيطة عدم معقولية هذا النص (١).

وتلك هي الملاحظة الأولى.

أما الملاحظة الثانية فتتضح على ضوء المعارف الحديثة التي تثبت استحالة صحة رواية الطوفان الواردة في التوراة: وتوضيح ذلك أن الطوفان حسب تقدير هذه الرواية يكون قد وقع في القرن الـ ٢١ أو٢٢ قبل الميلاد، أي في العصر كانت ظهرت قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التالية، وهو ما تؤكده المعارف التاريخية الحديثة (٢).

ففي مصر مثلاً يقابل التاريخ (٢١٠٠ ق. م) الفترة الوسطى الأولى قبل الأسرة الحادية عشرة. وفي بابل أسرة أور الثالثة.

وعلى ذلك يتضح أنه لم يحدث انقطاع في هذه الحضارات، وبالتالي لم تفن البشرية كلها كما تقول التوراة.

وفي ضوء ذلك كله -كما يرى موريس بوكاي- فإن النصوص التوراتية التي وصلت إلينا لا تعبر عن الحقيقة، ثم يتساءل متعجبًا: هل أنزل الله -تعالى- شيئًا غير الحقيقة؟

ولما كانت الإجابة -قطعًا- بالنفي، فلابد من افتراض وجود تحريف بواسطة البشر، لا سيما إذا عرفنا أن مؤلفًا مثل سفر التكوين قد عدل على الأقل مرتين على مدى

---

(١) ومما يجدر الإشارة إليه أن الآية القرآنية خصصت قوم نوح فحسب قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧].

(٢) المرجع نفسه ص ٥٣.

ثلاثة قرون.

ويستطرد متسائلا: (فكيف ندهش حين نجد فيه أمورًا غير معقولة أو روايات يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء، منذ أن سمح تقدم المعارف البشرية، إن لم يكن بمعرفة كل شيء، فعلى الأقل بامتلاك معرفة كافية عن بعض الأحداث تسمح بإقامة الحكم على درجة اتفاق الروايات القديمة بهذه المعرفة) [١].

وبعد هذا التعريف بالتوراة، ونقد بعض نصوصها، ننتقل إلى المصدر الثاني أي: التلمود.

(١) المرجع نفسه ص ٥٤.

ثانيًا: التلمود

يحتل التلمود المكان الأسمى كأحد مصادر العقائد والأفكار عند اليهود، وقد يفضلونه على التوراة نفسها أو العهد القديم، ويتخذونه «دستورًا للعمل» بهدف السيطرة على البشرية، واحتواء الأديان والأمم [١].

والتلمود -في تعريف جامع- هو: (هذه الأحاديث الشفوية التي سجلت بعد ذلك - أي بعد التوراة. والتي كانت ثمرة النظر ودراسة الأسفار التي جاءت عن يهوه) [٢]، ويسمى متن التلمود (المشنا)، ولــه شرحان أو (جمارتان) أحدهما جمارة أورشليم، والأخرى جمارة بابل [٣].

وإذا أردنا فهم الشخصية اليهودية على حقيقتها والوقوف على خلفيات الأحداث الجارية الآن علىمسرح السياسة العالمية، أو المتصلة بجرائمهم التي يرتكبونها ليل نهار بفلسطين المحتلة، فما علينا إلا دراسة هذا التلمود، وتحليل بعض نصوصه، ومعرفة كيفية تنفيذ تعاليمه بواسطة الجمعيات السرية كالماسونية.

وسنعرض لبعض النصوص ونحللها، ثم نبين كيفية تنفيذ تعليماته بواسطة جماعة الماسونية، إذ لابد لمعرفة مكانة التلمود عند اليهود، من إلقاء الضوء على بعض النصوص الواردة به، وهي بنفسها تصور هذه المكانة:

-اعلم أن أقوال الحاخامات هي أفضل من أقوال الأنبياء.

-إن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارة (التلمود) فليس له إله.

-إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله.

---

(١) المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية: أنور الجندي ص ١١- دار الاعتصام ١٩٧٧م.

(٢) في العقائد والأديان للدكتور محمد جابر عبد العال ص ٢١٨-الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧١م.

(٣) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: د/ محمد علي البار ص ٦١، ويذكر أن ما تدعى جمارة فلسطين أو أورشليم، رغم إنها لم تكتب في أورشليم القدس و(المشناة) بمعنى المثنى أو المكرر، أي: إنها تكرار وتسجيل للشريعة، ثم (الجمادا) أي الشرح أو التعليق، والتلمود بمعنى التعاليم (الأسفار المقدسة للدكتور وافي ص ٢٢).

-إن مخافة الحاخامات هي مخافة الله [١].

ويتضح لنا من دراسة أحد نصوصه مدى التغيير الذي أحدثه الحاخامات بواسطة التلمود، حيث حولوا عيد الفطر الموجود في التوراة إلى (طقوس يذبح فيها نصراني أو غيره، ويوضع دمه في هذا الفطير المقدس. وقد جاء في التلمود عندنا مناسبتان دمويتان ترضيان إلهنا يهوه، إحداهما عيد الفطر الممزوج بالدماء البشرية، والأخرى مراسيم ختان أطفالنا)[٢].

وعندما نشر التلمود، وقرأه بعض رجال الدين النصارى، انفجرت عواطف المسيحيين بسبب الشتم والقذف الموجود في التلمود لعيسى ابن مريم عليه السلام، وقامت مذابح كثيرة لليهود في أوروبا بإيطاليا وبريطانيا وفرنسا وأسبانيا وروسيا كذلك تكررت أوامر إحراق التلمود بسبب ما يتضمنه من احتقار للدين المسيحي.

كل ذلك أدى إلى قيام حركات إصلاحية بين اليهود، حذفت بعدها (المواد الموجهة إلى النصارى، أو ترك مكانها غفلا، أو وضع رموز لمعانيها يشرحها الأحبار لتلاميذهم» [٣]، أي أن هناك إصرارا من جانبهم على التمسك بتعاليم التلمود كاملة وتنفيذها، وهذا ما تؤكده دائرة المعارف البريطانية التي تقول: «وتشهد إسرائيل حاليًا عودة شديدة للتمسك بالتلمود والأصولية [٤] (Fundementalism).

وإننا نعبر أمام هذه الأعمال عن ألمنا ودهشتنا معًا. أما ألمنا، فإنه يرجع إلى مشاهدتنا بأعيننا ما يقع على أرض فلسطين هذه الأيام، وما حدث من قبل من مذابح مشهورة، كمذابح دير ياسين وصبرا وشاتيلا وغيرها، بحيث لا تعد ضحايا الأعياد ومراسيم الختان شيئًا يذكر إلى جانبها، بالرغم من بشاعتها ومظهرها الإجرامي في حق الإنسانية.

---

(١) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: للدكتور /محمد علي البار، ص ١٦١، ١٦٢ وغيرها من النصوص التي تبين مكانة التلمود، إلى جانب نصوص أخرى كوصف الإسرائيلي عند الله بأنه معتبر أكثر من الملائكة، واعتبار الشعب اليهودي هو الشعب المختار، وباقي الشعوب فهم حيوانات، ولا يجيز التلمود أن يشفق اليهود على أعدائهم، ولا يعتبر لأرواح غير اليهود حرمة، كما ينص على أن من العدل أن يقتل اليهودي كل أممي لأنه بذلك يقرب قربانًا إلى الله (ينظر كتاب اليهودية للدكتور شلبي ص ٢٧٥ وما بعدها).

(٢) المرجع نفسه ص ٧١.

(٣) نقلاً عن الصدر السابق ص ٥٦.

(٤) المرجع نفسه ص ١٤٦ .

وأما دهشتنا فإنه بالرغم من النصوص التلمودية المهينة للمسيحيين، فقد استطاع اليهود خداع الملايين منهم للانضمام إليهم في ما يسمى حركة بناء الهيكل، على زعم أن المسيح المنتظر لن يظهر إلا بعد بنائه على أنقاض المسجد الأقصى، «ومحاولات اليهود لهدم المسجد الأقصى أصبحت خبرًا مكررًا تنشره الصحف اليومية، مع وثائق متعددة عن الخطط الجهنمية لتنفيذ هذا المشروع وضمان عدم ثورة العالم الإسلامي»[(١)].

وربما يخفف من درجة عجبنا أن نقف على بعض أسرار الماسونية التي يتخذها اليهود كأداة لتنفيذ أهدافهم، واتخاذ التلمود كمصدر للفكر الماسوني:

التلمود كمصدر للفكر الماسوني:

قلنا فيما سبق أن اليهود -لقلة عددهم- عوضوا هذا النقص بتكوين الجمعيات والهيئات والنوادي، تحمل شعارات جذابة لتجذب إليها أصحاب النفوذ والأموال ورجال الأدب والصحافة والفن والوزراء، وأساتذة الجامعات وغيرهم من رواد المجتمعات في مختلف البلدان.

ومن هذه المجتمعات جماعة «الماسون» أو «البناؤون الأحرار» .. والماسونية هي جمعية سرية -ترجع- في الرأي الأرجح [(٢)]- إلى بداية القرن الأول الميلادي في عهد هيرودس أكريبا الثاني ملك الرومان الذي أهمه ظهور المسيح عليه السلام فدعاه ذلك وبمعاونة مستشاريه إلى إنشاء «جمعية سرية باسم «القوة الخفية» وكانت تتلخص مهمة هذه الجمعية في التخلص والقضاء على المسيحية وأتباعها» [(٣)].

وقد حدد الملك هيرودس الهدف من إنشاء هذه الجمعية، ويتلخص في محاربة

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢٨ ويقول الدكتور محمد علي البار (وقد انضم إليهم ملايين النصارى في الولايات المتحدة الأمريكية وتبرعوا بمئات الملايين.. الخ).

(٢) هذا هو الذي يرجحه الدكتور عبد الرحمن عميرة، حيث هناك احتمالات أخرى، عن تاريخ نشأة الماسونية (كتابه المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ص ٢٩) ويرى أن التلمود هو الأصل الذي يستقون منه أفكارهم (١ ص ٨١).

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠ - ط. /دار اللواء بالرياض ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤.

المسيحية التي تكاد تقوض الديانة اليهودية وتزعزع أركانها [(١)].

والبيان الذي ألقاه آنذاك طويل، إذ أوجزنا مضمونه فإنه يعبر عن عقائد اليهود نحو المسيح ﷺ، حيث ينكرون «ألوهيته» ونبوته، ويخشون منه على ديانتهم اليهودية، كما لا يقرون بأنه المسيح الذي ينتظرونه، لذلك فإنهم حاكموه وأوقعوا عليه أشد العقوبات، فصلبوه- حسب اعتقادهم- ودفنوه بعد موته ونصبوا حراسًا على قبره [(٢)]، ونرى في هذا البيان العداء العميق للمسيحية والمسيحيين.

ثم قرر أن تكون أعمالهم خفية، واختار دهليزاً «سماه المحفل» لعقد الاجتماعات السرية فيه (لكي لا يرانا أحد ولا يسمعنا أحد ولا يعرف بنا أحد).

وفي المرحلة الثانية للماسونية -كما يذكر الدكتور الزغبي- والتي تبدأ سنة ٥٥ م نشطت الماسونية، ودست على المسيحيين بعض عملائها ليدخلوا في المسيحية وينسفوها، وربما كان منهم (بولس) الذي انحرف بالمسيحية [(٣)].

كل ذلك كانت تأتيه الماسونية بدافع الحقد التلمودي الذي يصور المسيح ﷺ بأبشع الصور: ونكتفي بإيراد نصين:

(١) (يسوع المسيح ارتد عن دين اليهود وعبدة الأوثان. وكل مسيحي لم يتهود فهو وثني عدو لله ولليهود).

(٢) «يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم، بين الزفت والقطران والنار وأمه مريم أتت به من زناها بالعسكري باندرا (كذبًا وبهتانًا) والكنائس المسيحية بمقام القاذورات والواعظون فيها كلاب نابحة» [(٤)].

كذلك فإن الإسلام كان -ولا يزال- مستهدفًا لهجمات الماسونية، إذ يرى الدكتور عبد الرحمن عميرة أن الماسونية -أو اليهودية العالمية- وراء الكثير من الخلافات بين

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٠ -ط /دار اللواء بالرياض ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤.

(٢) المذاهب المعاصرة للدكتور عبد الرحمن عميرة ص ٣٠.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٣.

(٤) من كتاب (المسيح المنتظر وتعاليم التلمود) ص ١٥٧ للدكتور محمد علي البار -ط /دار السعودية/ بجدة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م.

المسلمين، كاتجاهي نفي القدر والجبريين، وكذلك فكرة خلق القرآن التي يتصل سندها «بلبيد بن أعصم اليهودي القائل بخلق التوراة»[(١)].

بل بدأ النشاط الماسوني مبكرًا بقيادة عبد الله بن سبأ الذي كان يؤسس (الخلايا الماسونية السرية) في تنقلاته بين العراق ومصر والشام... وهو يغري الرعاع، وينشر المبادئ الهدامة للإسلام، ومنها الزعم بألوهية علي بن أبي طالب ﷺ[(٢)].

مسئولية الماسونية عن الثورات الكبرى في العالم:

إذا كان التلمود مصدرًا للفكر الماسوني، فلابد من إزاحة الستار عن الجمعيات الماسونية التي تنفذ تعاليم التملود وتحققها في الواقع، فقد ورد في أحد نصوصه ما يلي:

«يجب على كل يهودي أن يبذل جهوده لمنع استملاك باقي الأمم في الأرض لتبقى السلطة لليهود وحدهم. وقبل أن يحكم اليهود العالم بصورة نهائية يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم، وعندما يأتي المسيح، ويحصل النصر المنتظر تكون الأمة اليهودية إذ ذاك في غاية الإثراء، لأنها تكون قد حصلت على جميع أموال العالم، وتحفظ هذه الكنوز في سرايا واسعة»[(٣)].

وكنا قبل الاطلاع على هذا النص وغيره نظن أن التوسع في تصوير ذلك الدور للماسونية كأداة لهدم الحكومات وإثارة الحروب والنزاعات في العالم، هو لون من المبالغـــة[(٤)] في تضخيم دور اليهود بصورة أكبر بكثير من حجمهم، ولكن الحق أننا

(١) المذاهب المعاصرة ص ٤٢.

(٢) مقدمة كتاب الخطر اليهودي (بروتوكولات حكماء صهيون) للأستاذ محمد خليفة التونسي ط مكتبة دار التراث ص ١٩٧٧ م.

(٣) نقلاً عن كتاب: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود ص ١٥٧ للدكتور محمد علي البار، وقد استخدمنا لفظ (الثورات) كمصطلح سائد، وهي في حقيقتها حركات انقلابية تهدم الأنظمة القائمة وتستحوذ علىالسلطة بطريقة غير شرعية لتفتح الطريق لأتباعها من الماسونيين للاستحواذ عليها.

(٤) باختصار من كتابه (المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية) ص٩- ، ط. دار الاعتصام بمصر عام ١٩٧٧ م. وكان وراء إسقاط الخلافة العثمانية ما وراءه من شروط وضعتها إنجلترا على

كلما قرأنا أكثر عن تاريخ الثورات، وعرفنا شخصيات من المتآمرين الحقيقيين المختفين وراء الستار، تبين لنا صحة التعليلات الآنفة، حيث يستغلون الأزمات القائمة ويستثمرون حركات الجماهير ويوجهونها لصالحهم.

ويرى الأستاذ أنور الجندي أن أبرز أهداف الماسونية هو احتواء المسيحية وتدميرها من الداخل، والعمل على تزييف الإسلام والسيطرة على مجتمعاته، واستطاعت أن تحقق ثلاثة أعمال كبرى فتحت الطريق لإقامة إسرائيل في قلب العالم الإسلامي، وهذه الأعمال هي:

(١) الثورة الفرنسية التي أتاحت لهم تملك وجوه النشاط الثقافي والصحفي والسيطرة على رجال السياسة والحكم.

(٢) إسقاط القيصرية وإقامة البولشفية في روسيا.

(٣) إسقاط الخلافة العثمانية.

وسنكتفي بأن ننزع من وقائع التاريخ بعض الشواهد الدالة على صحة هذه الاستدلالات لنأخذ حذرنا من استفحال هذا الخطر الداهم علينا وعلى العالم، ولكي لا ننسى- والأجيال بعدنا - دور اليهود في إلغاء الخلافة العثمانية؛ لأن السلطان عبد الحميد رحمه الله -تعالى- رفض التنازل لهم عن أرض فلسطين.

ففيما يتعلق بالثورة الفرنسية، ظهر من خباياها أن «ميرابو» أحد نبلاء فرنسا في العهد الملكي -وهو من الماسون- أقنع «الدوق دورليان» بالاشتراك في الثورة للإطاحة بالملك لويس السادس عشر لكي يستولي هو على عرشه. ولكن المتآمرين اليهود تخلصوا منهما معًا بعد نجاح الثورة.

ولما قام «روبسبيير» الذي اختاره اليهود لتولي الحكم بعد الثورة ليزيح الستار عن حقيقتهم ودوافعهم، في كلمة ألقاها بالجمعية الوطنية، أردته رصاصة قاتلة فمات بسره

لسان (كرزن) رئيس وفدها في مؤتمر توران ومنها إعلان الدولة (اللادينية) حيث ضرب الإسلام في كيانه السياسي، وقد عبر العلامة شبلي النعماني عن هذه الفاجعة أصدق تعبير بقوله (إن زوال الدولة العثمانية في الواقع زوال ملك المسلمين وملتهم) ص ٦٦ من كتاب (في مسيرة الحياة) للأستاذ أبي الحسن الندوي -ط دار القلم /بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

الذي لم يبح به [١].

ويبدو أنه عندما حقق اليهود الماسون أغراضهم وأصبحت مقاليد السلطة في أيديهم أو أيدي أتباعهم، لم يعد يفزعهم إذاعة الأسرار، بل ربما أباحوا بها تفاخرًا وتحديًا، ومثال ذلك الكلمة التي ألقاها رئيس محفل الشرق الأكبر الفرنسي ١٩٢٣، وقال فيها: «نشرب الآن النخب التالي نخب النظام الجمهوري الفرنسي ابن الماسونية العالمية» [٢].

وإذا تكلمنا عن دور اليهود في الثورة البولشفية وسيطرتهم على مقاليد السلطة في روسيا الماركسية، فيكفينا إحصاء عدد أعضاء المكتب السوفيتي هناك من اليهود إذ كان يتألف من «سبعة عشر عضوًا: منهم أربعة عشر يهوديًا صريحًا وثلاثة من أصول يهودية أو من صنائع اليهود وزوجات الثلاث يهوديات، وهم ستالين وفيرشيلوف ومولوتوف» [٣].

أما الحديث عن إلغاء الخلافة العثمانية فإنه حديث يدمي القلب حقًا ويفتح أعين المخدوعين إلى أسباب الكوارث التي أصابت -وما زالت تصيب العالم الإسلامي -ما لم يلتئم شمله من جديد، فقد زال بزوال الدولة العثمانية ملك المسلمين وملتهم، كما وصفه العلامة شبلي النعماني.

---

(١) المذاهب المعاصرة: للدكتور عبد الرحمن عميرة ص ٩٦، وقال في هذه الكلمة: (إنني لا أجرؤ على تسميتهم في هذا المكان وفي هذا الوقت.. كما أنني لا أستطيع كشف الحجاب الذي يعطي هذا اللغز في الثورات منذ أجيال سحيقة) هذا وقد ورد بالنص بالبروتوكول الثالث (تذكروا الثورة التي نسميها (الكبرى)، إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيدًا لأنها من صنع أيدينا..) ص ١٣٨/ ١٣٩ - بروتوكولات حكماء صهيون.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧.

(٣) ص ٧١/ ٧٢، من مقدمة كتاب (الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون: للأستاذ محمد خليفة التونسي، وقد كتب ذلك في سبتمبر ١٩٥١، ولانرتاب في أن نفوذهم ما زال كما هو حتى الآن إذ يصعب تصور تنازلهم عن السلطة من تلقاء أنفسهم. ويلفت نظرنا الأستاذ التونسي إلى مؤشر هام بقوله: (وتأمل الشعار اليهودي البلشفي في صدر هذا الكتاب وحوله النجمة المسدسة وهي شعار علم إسرائيل).

وما زالت الخبايا التي كانت وراء إلغاء الخلافة الإسلامية تظهر على السطح بمرور الزمن، وظهرت الوثائق التي تجعلنا نصحح بعض الأفكار والآراء التي حشت كتب التاريخ بالأكاذيب، والأغاليط المتعمدة أحيانًا: كتصوير أتاتورك بالبطولة أو اتهام السلطان عبد الحميد بالدكتاتورية، أو وصف حركة جمعية الاتحاد والترقي بأنها أخذت بيد تركيا إلى التقدم والحضارة.

هذا بينما أظهرت الوثائق أن الأحداث كانت تمضي بخلاف ذلك تمامًا، فقد خلع السلطان عبد الحميد لإخلاصه في الدفاع عن فلسطين، ومواجهة اليهود، وكان أتاتورك من طائفة «الدونما» اليهودية التي تتظاهر بالإسلام نفاقًا، وتبين في نهاية المطاف، لبعض المخدوعين الذين اشتركوا في المؤامرة ما تورطوا فيه (فهذا رأنور باشا) الذي قام بالدور الرئيسي في الانقلاب على الخلافة ١٩٠٨م، والذي تسبب في تدهور الدولة العثمانية، يقول في حديث له مع «جمال باشا» إذ كانا يحللان أسباب الانحدار الذي أصاب الدولة التركية: (أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟)، وبعد تحسر عميق قال: «نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرتنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية، فهذا ذنبنا الحقيقي» (١).

---

(١) مكائد يهودية عبر التاريخ ص ٢٧٩ للدكتور عبد الرحمن حبنكة.

بروتوكولات حكماء صهيون

إذا بدأنا بتعريفها، فإن الأقرب إلى الدقة وصفها بأنها «مجموعة من المبادئ الأساسية الاستراتيجية»، ولا يمكن تغيرها بحال، يزنون بها -وهم اليهود- تنفيذهم العملي» (١).

وهذه البروتوكولات -بالرغم من عدم الترابط الظاهر بين بنودها -إلا أن- الدارس لها بمنهج تحليلي يتضح لـــه في النهاية، أنها اتخذت شكل نسق متكامل وتضمنت خطة عمل مترابطة ترمي إلى إيقاع الأمميين «أي غير اليهود» في شباك النفوذ اليهودي، ووضعت السبل التي تحاصر فيه الأمميين في كافة أوجه أنشطتهم وصنوف حياتهم، أي: حياة الفرد ومعتقداته وسلوكياته، وحياة المجتمعات ونظمها الاقتصادية والسياسية والتربوية والثقافية.

كذلك تبدو الصلات واضحة بين بعض نصوصها، ومحتويات التلمود والتنظيمات الماسونية، وإلى القارئ بعض الشواهد:

-إننا مختارون من الله لنحكم الأرض.

-يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان.

-إن الأمميين كقطع من الغنم وإننا الذئاب.

-إننا كنا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونية (٢).

أما عن تاريخها فيرجع إلى أخريات القرن الماضي، واكتنف ظهورها على العالم -بعد أن كانت في شكل وثائق سرية- كثيرًا من الملابسات الملفتة للأنظار (فقد طبعت لأول مرة في روسيا ١٩٠٥م ثم انتشرت ترجماتها في سائر الأقطار الأوربية بلغات عدة، ولوحظ - كما أشار الأستاذ العقاد أنها لا تظهر في لغة من اللغات إلا اختفت على أثر ذلك، وأنها اختفت أو تختفي كلما عادت إلى الظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد) (٣).

وعندما نشرها لأول مرة أعلن اليهود على لسان زعيمهم «هرتزل» التبرؤ منها، وأنها مزيفة، وضغط اليهود على بريطانيا للتدخل في روسيا لمصادرة نسخ

---

(١) حقيقة اليهود، فؤاد بن عبد الرحمن الرفاعي ص ٢٧، دار القسام بالكويت رجب ١٤٠٦هـ.

(٢) من كتاب (الخطر اليهودي -بروتوكلات حكماء صهيون) ترجمة محمد خليفة التونسي وتقدير الأستاذ العقاد -مكتبة دار التراث بمصر ١٩٧٧م، الصفحات ١٤٥، ١٨٤، ١٧٢، ١٩٠.

(٣) تعقيب محمد خليفة التونسي على كتاب (الصهيونية العالمية للعقاد) ص ١٥٧- ط مكتبة غريب بالفجالة بمصر عام ١٩٦٨م، ويعلق في الختام بقوله: وتفسير هذه الظاهرة فيما نرى أن اليهود يجمعون نسخها كلما عادت إلى الظهور، يفضح مؤامرة من مؤامرات (الصهيونية العالمية).

الكتاب،وكذلك فعلوا أيضًا في فرنسا، وعملوا على إيقاف طبعه في ألمانيا «وشاع أنه ما من أحد ترجم هذا الكتاب، أو عمل على إذاعته بأي وسيلة، إلا انتهت حياته بالاغتيال أو بالموت في ظروف مريبة» [١].

وهناك شواهد كثيرة ترجح صحة نسبة البروتوكلات إلى اليهود، منها الدراسة المقارنة التي قام بها الصحفي البريطاني «فكتور مارسون» [٢]، على أثر الانقلاب الشيوعي في روسيا ١٩١٧م، حيث رأى في هذا الانقلاب تحقيقًا عمليًا لتوقعات ناشرها الروسي نيلوسي، منذ نشر البروتوكلات عام ١٩٠٥، وكان يحذر الروس حينذاك من مؤامرات اليهود [٣].

كذلك فإن من يراقب ويتفكر في أحوال العالم المعاصر، كما فعل (هنري فورد بكتابه: اليهودي العالمي) - يميل إلى تصديق ما ورد بهذه الوثائق السرية لأن الواقع يشهد بآثارها على أحوال الأمم والشعوب، كما تشهد بصمات الأصابع على صاحبها، فقد صرح ذات مرة لأصدقائه قائلاً: «مهما كانت حقيقة هذه البروتوكلات، فإنها تتفق مع ما هو واقع الآن. ولا يختلف مضمون هذه البروتوكلات عما جاء في التلمود، ثم يمضي فيذكر أحد نصوصها الذي يتضمن أن الثورة الفرنسية من صنع الماسون [٤] وكل من يرجح صحتها يستند إلى مطابقة الواقع لتعاليمها، وأن «لسان الحال أصدق من لسان المقال» [٥].

البروتوكولات والحركات الصهيونية:

ولكي لا يتشعب بنا الحديث عن البروتوكولات، فإننا نعرض لمضمونها من بعض

---

(١) حقيقة اليهود - فؤاد بن سيد الرفاعي ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧.

(٣) ومما قاله نيلوس حينذاك: ولا يعلم إلا الله وحده كم كانت المحاولات الفاشلة التي بذلتها لإبراز هذه البروتوكولات إلى النور، أو حتى لتحرير أصحاب السلطان، وأن أكشف لهم عن أسباب العاصفة التي تتهدد روسيا البليدة من سوء الحظ إنها فقدت تقديرها لما يدور حولها) ص ٢٤٤- البروتوكلات (تعقيب سرجي نيلوس).

(٤) الماسونية تحت المجهر -د/ إبراهيم فؤاد عباس ص ٢٨ دار الرشاد - جدة ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

(٥) مقدمة البروتوكولات للعقاد ص ١٢.

المسالك المتصلة بأهداف بحثنا، ومنها:

(أ) صلة البروتوكولات بمضامين تلمودية صريحة أوخفية (وغاية ما هنالك أن التلمود قد أجملت حيث عمدت هذه الوثائق إلى التفصيل والتمثيل)[(١)].

(ب) لعل هذه الدراسة المقارنة وما شابهها تجعلنا نعيد تقويم بعض الشخصيات، وتفسير بعض الأحداث المؤثرة في عالمنا الإسلامي تاريخياً وفي العصر الحديث، وذلك ببحث مدى تطابقها مع تعاليم هذه الوثائق ونصوصها بين وقائع الأحوال والتصريحات المعلنة، أوالسير بالشعوب إلى حتفها مع إيهامها بأنها تمضي نحو المستقبل المزدهر.

(ج) تحول اليهودية إلى دين سياسي في العصر الحاضر باسم الصهيونية فقد برزت في نهاية القرن التاسع عشر تقريبًا «مفاهيم الصهيونية السياسية كتعبير عن اليهودية، غلفت نفسها بمنطق لغة السياسة وأساليب الوصول إلى الحكم» [(٢)].

* * *

(أ) إننا نجد أحد الأمثلة المعبرة عن التحام نصوص التلمود مع البروتوكولات فيما أوردته أحد نصوص التلمود بعد وصف الأمم والأجناس بالحيوانات وكيفية السيطرة عليهم: (يجب أن نزوج بناتنا الجميلات للملوك والوزراء والعظماء وأن ندخل أبناءنا في الديانات المختلفة، وأن تكون لنا الكلمة العليا في الدول وأعمالها، فنفتنهم ونوقع بينهم ونجعلهم يحارب بعضهم بعضًا، وفي ذلك كله نجني الفائدة الكبرى) [(٣)].

ثم نقرأ عن النتائج المتحققة في البروتوكول الأول كالآتي: «ومن المسيحيين أناس قد أضلتهم الخمر، وانقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات والمجون المبكر الذين أغراهم به

---

(١) مقدمة البروتوكولات للعقاد ص ١٢.

(٢) د/ حامد ربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك ج ١ ص ٤١ - ط. دار الشعب بمصر ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٣م.

كذلك يحدد تاريخ ١٥/ ٥/ ١٨٩١ م موعدا لإعلان البابا الكاثوليكي ليون الثالث عشر إرادة الكنيسة في أن تتدخل في الأحداث، وأن تدفع بالقوى السياسة المدافعة عن مبادئها في سبيل تحقيق أهدافها المدنية (نفس المصدر).

(٣) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود - د/ محمد علي البار ص ١٦١.

وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهرماناتنا «أي: المربيات بالمنازل» في البيوتات الغنية، وكتبتنا ومن إليهم، ونساؤنا في أماكن لهوهم -والهين-، أضيف من يسمين «نساء المجتمع» أو الراغبات من زملائها في الفساد والترف [(١)].

وربما كان النصيب الأوفر عند تنفيذ مثل هذه الخطط للمجتمع الأمريكي، فقد أورد هنري فورد بكتابه «اليهودي العالمي» ما يثبت بالأدلة الوثيقة كيف دمروا (الأخلاق والقيم باحتكار تجارة الخمور والبغاء والأزياء الماجنة والأشرطة الوضعية والمسرحيات البذيئة والآداب الساقطة) [(٢)].

بل لا يخلو مجتمع من المجتمعات بأقطار الأرض قاطبة من آثار أفعالهم، فكيف نجحوا؟

الحق أنهم تعمقوا في فهم النفوس البشرية ودوافعها وغرائزها، واستطاعوا بذلك قيادة عملائهم كيفما شاءوا.

ولنقف قليلاً على تحليلاتهم النفسية لهؤلاء:

ينص البروتوكول الرابع عشر بإحدى فقراته على الآتي: (ومعظم الناس الذين يدخلون في الجمعيات السرية مغامرون يرغبون أن يشقوا طريقهم في الحياة بأي كيفية، وليسوا ميالين إلى الجد والعناء. وبمثل هؤلاء الناس سيكون علينا أن نتابع أغراضنا، وأن نجعلهم يدفعون جهازنا للحركة). وفي فقرة أخرى نراهم يصفون الأمميين الذين يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية بالفضول أو رغبة الحصول على الأشياء الطيبة، كما يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان (وأنتم لاتتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأمميين إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بنفسه، وكيف يسهل من ناحية أخرى أن تثبط شجاعته وعزيمته بأهون حنبة، ولو بالسكوت

---

(١) البروتوكولات ص ١٢٦ وينص البروتوكول الخامس على أنهم بذروا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرنًا ص ١٤٤. ويذكر أن هناك طائفة عددها نحو ٤٠٠ أسلموا في مصر عام ١٩٤٢ م تعليقه على البرتوكولات ص ١٥٤/ ١٥٥.

(٢) معركة الوجود بين القرآن والتلمود: د/ عبد الستار فتح الله سعيد ص ٥٤.

بساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك تدفعه إلى حالة خضوع، ذليل كذل العبد) [١].

ولكن سلطان المطامع والمنافع والشهوات لاتعمل وحدها -كما يرى الأستاذ العقاد في تحليله لنفوس أولئك الأعوان- بل لابد أيضًا من أساليب الهدم والخداع أي: هدم الأخلاق والأوطان والأديان، وهي كالحصون التي تحمي ضحاياها (أما إذا أصبح المسلم غير مسلم، وأصبح المسيحي غير مسيحي، وأصبح الوطني لا يبالي بوطنه، وأصبح الضمير الإنساني ولا موضع فيه للحلال والحرام، فهي على الأقل -ميدان لاموانع فيه ولا عقبات، وإن لم يكن فيه أعوان وأذناب) [٢].

(ب) إذا كان التلمود يغذي كما -رأينا في اليهود- روح العنصرية والامتياز عن باقي الأمم، وتنمي في أنفسهم الاستهانة والاحتقار لغيرهم من الأجناس والشعوب والأديان، فإن الغاية هي بسط سلطانهم على العالم كله.

إذا كان الأمر كذلك، فإن قراءة البروتوكولات بهذا الفهم لا تزيد عن كونها برنامج تفصيلي للأهداف اليهودية المتحققة على أرض الواقع ومفتاحًا للوعي المتكامل لكثير من الواقعات التاريخية والمعاصرة، وحفزًا للهمم -هذه هي غايتنا- لوضع البرامج العلمية والخطط الهادفة المضادة في سبيل استكمال وظهور اليقظة الإسلامية المرتقبة التي تنمو الآن في رحم الأمة.

وإذا أخذنا برأي ابن خلدون صاحب النظرية التي تدرس تاريخ الأمم وواقع المجتمعات والحضارات بتشبيهها بالجسد الإنساني [٣]، رأى كجسد حي يتكون إجمالاً من رأس مفكر وقلب نابض وجسد تتقاذفه الغرائز (إن لم يخضع لأوامر ونواهي الشرع)، فإننا نرى في تَطبيق نظريته على مضمون البروتوكولات أقرب الطرق لاستيعابها، وهذا ما

---

(١) البروتوكولات ص ١٩١.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس العقاد ص٧٦، ويقول أيضًا (فحسب الصهيونية كسبًا أن تتهدم أركان الوطنية والدين وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب، فتستريح من هذه العوائق في طريقها، وتتفتح الأبواب لسلطان المال والخداع بغير شريك ولا حسيب) (المرجع نفسه ص ٧٩).

(٣) ويرجع الفضل إلى الدكتور حامد ربيع إلى لفت النظر إليها وبيان أثرها التطبيقي في الممارسة على النظريات السياسية الغربية.

سنفعله بمنهج تركيبي في القوالب الآتية:

-تغيير العقائد والأفكار بإزاحتها وإحلال بدلها نظريات زائفة.

-صنع القيادات وجعلها تابعة للخلايا الماسونية السرية، وقد عرفنا نفسيًا كيف يسوقون الأعوان والأتباع إلى ما يريدون.

-صرف جماهير الشعب عن المتابعة والاهتمام بما يدور حولها، حتى تخرج من حلبة الصراع وتتفسخ إرادتها، وتصبح طوع البنان تتحرك كالسائمة لا تدري من أمرها شيئًا.

(١) العقائد والأفكار:

ورد بالبرتوكول الثاني أن نجاح دارون وماركس ونيتشه كان بترتيبهم مع ترقبهم للأثر الغير أخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي [١]، ويبدو أن بعض الأعضاء كانوا مكلفين بتتبع آثارها الأخلاقية، فسجلوا في البروتوكول التاسع هذه الملاحظة:

«ولقد خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين وجعلناه فاسدًا متعفنًا بما علمناه نظريات معروف لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها» [٢].

كذلك حرصوا على الترويج لما سموه بالنظريات المبهرجة، أي: التي تبدو في ظاهرها تقدمية أو تحررية، وهي في حقيقتها ليست كذلك ولا يوجد عقل واحد بين الأمميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة «التقدم» يختفي ضلال وزيغ عن الحق، ما عدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية إذ ليس هناك إلا تعليم حق واحد» [٣].

ويسجل البروتوكول الأول أنهم أول من صاغ فيها الناس قديمًا «الحرية والمساواة والإخاء»، فأخذت الجماهير ترددها كالببغاوات، بينما (حرمت الفرد من حريته الشخصية الحقيقية التي كانت من قبل في حمى يحفظها من أن يخنقها السفلة) [٤]، ولكنهم يفخرون بأن هذه الصيحة جلبت إلى صفوفهم فرقًا كاملة بينما هي في الواقع

(١) البروتوكولات ص ١٣٢.

(٢) المرجع نفسه ص ١٥٩.

(٣) المرجع نفسه ص ١٨٣.

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٨.

تحطم سلامتهم واستقرارهم ووحدتهم مدمرة بذلك أسس الدول [(١)].

(٢) القيادات:

تمضي الخطة في هذا الصدد خلال ثلاث شعب: **أحدها**: إزاحة الفئة الممتازة التي تستحق تولي زمام الأمور عن جدارة واستحقاق لتفوقها، واستبدالهم بوكلائهم التابعين لهم (وسنخضع الرعاع لهذا النظام لأنهم سيعرفون أن هؤلاء القادة مصدر أجورهم وأرباحهم وكل منافعهم الأخرى) [(٢)].

والثانية: الحط من كرامة (رجال الدين من الأمميين) في أعين الناس باعتبارهم عقبة كؤود في طريق اليهود «وأن نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يومًا فيومًا» [(٣)].

والثالثة: السيطرة الاقتصادية بالحصول على الاحتكار المطلق للصناعة والتجارة، مع تجريد أصحاب الأراضي من الأمميين من أراضيهم لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم، مع العمل على استنزاف الثروات بحيث تصبح في أيدي اليهود، فيعم الفقر الطبقات العاملة «وعندئذ يخر الأمميون أمامنا ساجدين ليظفروا بحق البقاء» [(٤)].

(٣) جماهير الشعب:

ربما تتضح فاعلية البروتوكولات الخطيرة في التنفيذ بشكل واقعي أكبر إذا طالعنا الفقرات المتصلة على الجماهير، وكيفية قيادتها بعد إفقادها الوعي وخلخلة إرادتها، حيث تتشابك النصوص بعضها ببعض كالسلاسل الحديدية التي تقيد أيدي الإنسان وأرجله، هذه السلاسل الشيطانية وحدها لتحقيق الإفساد الذي يسعى إليه اليهود، فما البال بها بكلها؟

إنها تتشابك وتتعقد فلا تترك عضوًا من الأعضاء في جسد الأمة الممثل في جماهير الشعب إلا وقد أحاطت به والتفت حوله، فبدءًا من تدمير الحياة الأسرية وإفساد أهميتها التربوية، إلى السيطرة على الصحافة بنشر التعصبات الدينية والقبلية، وبث الفوضى

(١) المرجع نفسه ص ١٢٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٣.

(٣) المرجع نفسه ٢٠٤.

(٤) المرجع نفسه ص ١٤٩.

الاجتماعية، إلى تضليل الرأي العام، وإيقاعه في الحيرة بتغييرات من جميع النواحي لكل أساليب الآراء المتناقضة، حتى لا يكون له رأي في المسائل السياسية [(١)].

وإمعانًا في صرف الجماهير عن الاهتمام بالمسائل السياسية، فإنهم يلهونها بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات الفراغ وغيرها، ولا ينسون أيضًا تدبير الأزمات الاقتصادية وإلجاء الحكومات إلى القروض وتحميلها بالفوائد [(٢)].

(ج) كيف أفلح اليهود -وهم أصحاب الدين المغلق- من إقامة دولة وكيان قائم على عقيدة دينية؟

تمهيدًا للإجابة على هذا السؤال نستطلع بعض مواد البروتوكولات، ومنها (إن السياسة لاتتفق مع الأخلاق في شيء) [(٣)]، وفي نص آخر يشير إلى ضرورة سحق كيان حكومة الأقلية الفاضلة العادلة التي تقف ضدهم، ثم تأتي الخطوة التالية أي: (نستثير مرض ضحايانا من أجل المنافع، وشرهم ونهمهم، والحاجات المادية للإنسانية، وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده مستقلاً بنفسه أن يحطم طليعة الشعب، وبذلك نضع قوة إرادة الشعب تحت رحمة أولئك الذين سيجرونه من قوة طليعته) [(٤)] أي يؤسد الأمر إلى غير أهله، وأضف إلى ذلك الالتزام بشعارهم وخلاصته (كل وسائل العنف والخديعة) [(٥)].

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ العقاد في وصف أساليب الصهيونية وتتلخص في (استطلاع الأسرار والخفايا، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوي النفوذ، والاتجاه بها إلى الوجهة التي تحقق لها مصالحها وأغراضها) [(٦)].

---

(١) ينظر البروتوكولات الصفحات ١٦٣، ١٧٩، ١٤٦، ١٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٣: ٢١٨.

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٤) المرجع نفسه ص ١٣٠ ويفسر الأستاذ التونسي الطليعة بأنهم الممتازون الذين يتقدمون طوائف الشعب ويتزعمونها ويقضون في أمورهم.

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٦) الصهيونية العالمية ص ٧٥، ويتحدث عن (الصهيونية المستعمرة) التي ظهرت فقط في العصر الحديث، بينما لم تقم لليهودية كلها دولة في العالم منذ أكثر من سبعة وعشرين قرنًا، فلم تكن قط

ثم يكشف لنا الدكتور حامد ربيع عن أسرار أخرى لا تتوافر إلا للقلة، فقد عكف على دراسة أدوات الغزو الاستعماري أو ما يسميها «أدوات التسميم السياسي» الذي خضعت له المنطقة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخلص إلى لفت أنظارنا إلى طبيعة الاستشراق كأداة من أدوات الغزو الاستعماري، وبين أنشطته:

(١) كوسيلة للنفوذ الغربي في فهم العالم العربي.

(٢) كأداة لاستقطاع القوى غير المسلمة، وبذر عناصر الطابور الخامس في تلك الأقليات.

(٣) كأداة لإعادة تشكيل منطق الطبقات القيادية.

هذا، ولم يتهيأ للاستشراق النجاح إلا بعد بذره للمدارس الأجنبية والإرساليات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية، ثم الجامعات التي كانت أداة ثقافات غير عربية (وغير إسلامية أيضًا). وجاءت الحركة الصهيونية فانتفعت بكل هذه الخبرات وأضافت إليها [(١)].

قط في عداء المستعمرين بقوة حكومتها وجيشها، وإنما كان عملها في الاستعمار أنها تستتر وراءه، وتمهد له وتعتمد عليه في الاستغلال وامتصاص دماء الشعوب.

(١) باختصار من كتاب (الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني وإرادة التكامل القومي) ص ٢٨/ ٢٩، دار الموقف العربي بالقاهرة ١٩٨٢م. ويبرهن د/ حامد ربيع على صدق استنتاجاته بأن أمة الجهاد انحرف بها بعض قادتها إلى أسلوب التفاوض مثل سعد زغلول في مصر ونوري السعيد في بغداد، كذلك أخذت بعض القيادات الفكرية تسبح بحمد الحضارة الغربية: مثل طه حسين وتوفيق الحكيم، بينما عاش العقاد مشردًا ومات فقيرًا.

الألوهية

إن كل من يبحث عقيدة الألوهية في الديانة اليهودية المحرفة من مصادرها- التوراة والتلمود - يتضح أن فكرة الألوهية لديهم كانت قد انتكست في عصر تدوينهم لهذه الأسفار (فتصوروا الله عز وجل في صورة مجسمة، ووصفوه بكثير من الصفات غير اللائقة بالألوهية- تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا) (١).

منها الزعم الكاذب بأن الله (تعالى علوا كبيرا) استراح في اليوم السابع بعد خلق السموات والأرض، فأعلن القرآن الكريم كذبهم وبهتانهم بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ**﴾ [ق: ٣٨].

وتدل هذه الأسفار أيضًا على أنهم كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة مع تصورهم بأن لهم إلها خاصًا وإنهم هم أحباؤه.وتقول السيدة/ مريم جميلة المهتدية للإسلام «وكان تصوري لإله اليهود مشوهًا وغير لائق، فقد بدا لي الله في صورة وكيل مقاطعة دنيوية» (٢) واعتقدت بعض فرقهم بوجود ابن لله.

وهناك تخيلات وأوهام يلحقونها بالله -تعالى-، منها ما يرويه التلمود عن أعماله في الليل والنهار، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل (كمذاكرة التلمود مع الملائكة، ومع ملك الشياطين والاعتراف بالخطأ بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل والبكاء والندم والغضب على بني إسرائيل والقضاء عليهم بالتشريد والشقاء)، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرا (٣).

إن مثل هذه الاعتقادات الباطلة المخالفة لعقائد التنزيه لله تعالى جعلت عالمًا غربيًا كبيرًا- وهو -ول ديورانت- يميل إلى ترجيح أن الفاتحين اليهود «عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه على الصورة التي كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلهًا: الإله يهوه، فيهوه ليس خالقهم بل مخلوق لهم، وفي يهوه صفاتهم الحربية: التدمير والسرقة، ويهوه قاس مدمر متعصب لشعبه لأنه ليس إله كل الشعوب، بل إله بني إسرائيل فقط، وهو بذلك عدو للآلهة الآخرين، كما أن شعبه عدو للشعوب الأخرى» (٤).

---

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د / علي عبد الواحد وافي ص ٢٤.

(٢) رجال ونساء أسلموا ج ١ ص ٣٩ -ط. دار القلم- الكويت ١٣٩٨ هـ / ١٩٨٧م.

(٣) الأسفار المقدسة ص ٢٨/ ٢٩.

(٤) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٤ نقلا عن (المخططات التلمودية للأستاذ أنور الجندي ص ٢٩).

من هنا، حق لكل منصف من علماء مقارنة الأديان -كالقرافي- أن يتساءل (فأين هذا القول من قول المسلمين؟ إن خلق الله -تعالى- لجملة العوالم كخلقه لأقل جزء من جناح بعوضة، وإن إيجاده بأن يقول للشيء: كن فيكون) [١].

ويستخلص من ذلك - وكذلك يفعل كل باحث منصت لصوت العقل، ومستخدم لموازين العدل -أنه شتان بين عقائد اليهود بمصادرها المحرفة- وبين عقائد المسلمين الذين يثبتون لله -تعالى- الصفات اللائقة بكماله وجلاله -عز وجل- من التوحيد والتمجيد اللائق بجلال الربوبية وتعظيم الله -تعالى- (وأما قول اليهود فتأنف منه دبغة الجلود، وهذه المواضع وشبهها من أعظم الأدلة على تبديل التوراة وأنها غير المنزلة من الله تعالى، وهذا يجزم به كل عاقل) [٢].

الإيمان بالله واليوم الآخر:

يلاحظ الباحثون أن هناك اضطرابًا وغموضًا في عقيدة اليهود في اليوم الآخر، فهي أقرب إلى الإنكار منها إلى الإقرار والإيمان.

ويرجع ذلك إلى اختلاف النصوص الواردة عن الآخرة بين التوراة والتلمود: فقد خلت أسفار العهد القديم من ذكر اليوم الآخر ونعيمه وجحيمه، بينما ذكر التلمود في بعض فقراته الجنة والنار (ولكنها في صورة مضطربة أدنى إلى الخرافة والأساطير منها إلى حقائق العقيدة، فتذكر هذه الفقرات أن الجنة تأوي إليها الأرواح الزكية، وأنه لا يدخلها إلا اليهود، وأن أهلها يطعمون من لحم أنثى الحوت المملحة، كما يتناولون لحم طير كبير لذيذ الطعم ولحم إوز سمين، وأن شرابهم فيها نبيذ معتق عصره الله في اليوم الثاني من الأيام التي خلق فيها العالم، وأن النار لغير اليهود من المسلمين والمسيحيين» [٣].

ومن هنا اختلفت الآراء حول معتقدات اليهود عن اليوم الآخر، فيرى الدكتور وافي أن بعض فرق غير شهيرة من فرق اليهود كانت تذهب في عقيدتها إلى ما يقرره التلمود في هذه الفقرات، وكانت تفسرها بمدلولها الحقيقي لا بمدلولها المجازي [٤].

---

(١) الأجوبة الفاخرة (عن الأسئلة الفاجرة) للقرافي ص ١٤٨- ط دار الكتب العلمية -بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الأسفار المقدسة ص ٢٨.

(٤) المرجع نفسه ص ٢٩.

ويستدل من ذلك على أن أسفارهم من صنع أيديهم، وأن توراتهم المزعومة مخالفة للتوراة الصحيحة التي أنزلها الله -تعالى- على موسى عليه السلام نورًا وهدى للناس.

وقد وجدت هذه الاضطرابات في النصوص والاختلاف في التأويل صدى لدى اليهود والمعاصرين حيث تأتي أصدق شهادة على لسان السيدة/ مريم جميلة المهتدية للإسلام - حيث تخبرنا باعتقاد والدها وأفراد أسرتها وجميع أصدقائهم الذين (يهزأون من أي تفكير في الآخرة، ويقولون بأنها خرافة محضة وأن الإيمان بيوم القيامة والجزاء في الجنة والعقاب في النار ضرب من الأفكار البالية من مخلفات العصور القديمة) [١].

ثم تخبرنا بما هو أعجب وأدعى إلى التفكر والنظر في تطور هذه العقيدة في أذهان الصهاينة وارتباطها بفكرة إنشاء إسرائيل. فقد زعم أحد الأحبار بأنها «تعني حق اليهود الباطل في العودة إلى فلسطين» [٢].

---

(١) رجال ونساء أسلموا ج ١ ص ٥١ وذكرت أن فلسفة والدها كانت تتلخص في أن على الواحد منا أن يتجنب التفكير في الموت وأن يتمتع بمباهج الحياة بأقصى ما يستطيع.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٩ والحبر هو إبراهيم إسحق رئيس قسم الدراسات العبرية بجامعة نيويورك الذي زعم أيضًا بأن الإسلام مشتق من اليهودية.

الأنبياء

تنسب الأسفار لبعض الأنبياء -كما يذكر الدكتور وافي -أعمالا قبيحة تتنافى مع وضعهم الديني والاجتماعي، بل تتعارض مع الخلق الكريم في ذاته ولا يتصور صدورها إلا من سفلة الناس، كالقصص المفتراة عن إبراهيم ولوط وداود ونوح عليهم السلام(١).

ومن جهة أخرى يتوسع اليهود -لا سيما الذين لا يلتزمون بالنصوص المقدسة - في دائرة النبوة والأنبياء، ويدخلون فيها كل من هب ودب، فيرون في (الكهنة والأحبار الذين تلوا الأنبياء الأخيرين: دانيال وإستير وعزرا ونحميا وملاكي، استمرارا للوحي والنبوة).

ويضيف الدكتور حسن ظاظا إلى قوله: (بل إن كثيرًا من العلمانيين اليهود ممن ألهبت أرواحهم نيران الصهيونية الحديثة يبقون باب النبوة هذا مفتوحًا حتى القرن العشرين ليدخل منه تيودور هرتزل أيضًا) (٢).

كذلك فقد أنكروا نبوة نبينا محمد ﷺ، ولكنهم لم يفلحوا -ولا أفلح غيرهم- من النيل منه مهما اختلقوا من أكاذيب وافتراءات لأنها تتصدع وتنهار أمام شخصيته وأخلاقه التي تسمو على المطاعين والترهات لكل من درس سيرته بتجرد ونزاهة-، بل يتضح الإسلام في دائرته الواسعة - كدين وحضارة- مرتبطًا بشخصيته أوثق ارتباط، إذ يتضح أيضًا صدق نبوته إذا ما استخدمنا منه المقارنة بهذه الرؤية الجامعة لأن شخصيته وسنته ليست بمعزل عن شريعة الإسلام وأمة الإسلام لأنهما من آثاره الباقية، ﷺ.

وهذا ما فعله ابن تيمية بمنهجه المقارن الموسع المتضمن لهذه الشعب كلها:

بدأ بسرد مجمل مبينًا بعده تفاصيل ما أجمله، فقال: (وسيرة الرسول ﷺ من آياته وأخلاقه، وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم، من آياته وكرامات صالح أمته من آياته، وذلك يظهر بتدبير سيرته من حين ولد إلى أن بعث، ومن حين بعث إلى أن مات) (٣) وفصّل بعد ذلك حيث أورد أن نسبه من صميم سلالة

(١) الأسفار المقدسة ص ٤٠/ ٤٨. ومما يذكر أيضًا إن تاريخهم ازدحم أيضًا بالأنبياء المحترفين الذين ازدادوا زيادة كبيرة جعلت الجيل الواحد يشهد أكثر من ٤٥٠ من ذلك الصنف (ينظر كتاب المهندس أحمد عيد الوهاب(النبوة والأنبياء) مكتبة وهبة بالقاهرة -١٤٠٠ هـ/ ١٩٧٩م.

(٢) ص ٥- ٦ من كتاب (الفكر الديني اليهودي: أطواره ومذاهبه) دار القلم- دمشق ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م دار العلوم بيروت.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٤ ص ٨٠ مطبعة المدني بدون تاريخ، كذلك لا ينبغي إغفال بشارات التوراة والإنجيل بمجيء محمد ﷺ التي ينكرها اليهود والنصارى-عنادًا - منها =

إبراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وقد دعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولاً منهم.

وكان -عليه الصلاة والسلام- أكمل الناس تربية ونشأة، ولم يزل معروفًا بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق، وكان أميًا من قوم أميين، ولم يقرأ شيئًا عن علوم الناس، ومع هذا فإنه عندما أكمل أربعين سنة أتى بأمر هو أعجب الأمور وأعظمها، فجاء بعجائب الآيات وأكمل الشرائع، وظهر دينه بالعلم والحجة واليد والقوة، واتبعه ضعفاء الناس لا لرغبة ولا لرهبة وعاداه أهل الرياسة، وآذوه وآذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون(١).

وعندما اجتمع في أحد مواسم الحج بأهل يثرب، وكانوا قد سمعوا من جيرانهم اليهود عنه -آمنوا به واتبعوه فهاجر هو وأصحابه إليهم، ثم أذن له في الجهاد، ثم أمر به، فقام بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها في جميع حالاته.

وعندما مات ﷺ لم يخلف شيئًا إلا بغلته وسلاحه، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعًا من شعير.

= ما ورد في سفر التثنية (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران (-ينظر كتاب محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد -مكتبة الوعي العربي من ص ٣٥ إلى ٤٩، وكتاب النبوة والأنبياء المهندس أحمد عبد الوهاب من ص١١٩ إلى ص ١٦٢ على سبيل المثال لا الحصر ولعل أبرز الكتب التي عالجت نبوءات الكتاب المقدس بإسهاب هو كتاب (محمد ﷺ) تأليف البروفسور عبد الأحد داود المهتدي للإسلام ترجمة فهمي شمّا ومراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ وعن التبشير برسول الله ﷺ قال الأستاذ محمد قطب: وجاء الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام (يأتي من بعد الفارا قليط) وهذه كلمة يونانية معناها الحمد، أي إنها مشتقة من أحمد) وقد أبوا أن يترجموها في النسخة العربية وأبقوها هكذا لكي تظل غير مفهومة للقارئ، ولكيلا يعلم من هذا الذي سيأتي بعد المسيح (عليه السلام) وقد مر الزمن، ولم يأت بعد المسيح إلا محمد ﷺ).

وفي عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥م) نشرت صحيفة الأهرام المصرية هذا النبأ على إحدى صفحاتها: «عثر في دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر محمد ﷺ، ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور. ص ١١٦ من كتاب: علم التوحيد للصف الثاني الثانوي محمد قطب (الرئاسة العامة لتعليم البنات بالسعودية عام ط ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م).

(١) المرجع نفسه ص ٨١ مختصرًا.

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه[١]. وبعد هذه الأوصاف التي أوجزناها نقلا عن ابن تيمية، يأتي إلى المقارنة بين عقائده وشريعته والعقائد والشرائع الأخرى.

لقد جمع محاسن ما عليه الأمم ففي العقيدة والتوحيد لا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور نوعاً من الخبر عن الله، وعن ملائكته، وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء على أكمل وجه وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب.

وقس على ذلك العبادات والحدود والأحكام، وسائر الشرائع، وكلها أفضل وأرجح، فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل وقضاء بفضل، وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به، وبما هو أحسن منه [٢].

وينوه ابن تيمية بفضائل أمته ﷺ من حيث الشجاعة والجهاد في سبيل الله والسخاء والبذل، وكلها تعلموها منه، دون اتباع كتاب قبله مثلما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة.

وآمنت أمته بالرسل والأنبياء قبله، وآمنت بجميع الكتب المنزلة كما أمرهم ولم يستحلوا أخذ شيء من الدين من غير ما جاء به. ومن أدخل في الدين ما ليس منه مثل أقوال فلاسفة اليونان والفرس أو الهند، أو غيرهم وكان عندهم من أهل الإلحاد والابتداع.

وبالرغم من التنازل الذي حدث بين المسلمين إلا أنهم اتفقوا على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عمومًا، ودين محمد ﷺ خصوصا. ومن خالف هذا الأصل كان عندهم ملحدًا مذمومًا [٣].

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٣.

(٣) المرجع السابق ص ٨٥.

وينتهي شيخ الإسلام في الختام إلى بيان أن كمال علمه ودينه، يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقًا في قوله: (إني رسول الله) ﷺ (١).

وبعد: هذه هي معالم المنهج الموسع المستخدم بواسطة شيخ الإسلام، وسنعود إلى تطبيق بعض شعبه بعد حديثنا عن الديانة النصرانية، لأن أتباعها أيضًا لا يقرون بنبوته...

(١) المرجع نفسه ص ٨٦.

الفصل السادس

النصرانية

تمهيد:

لم ينقطع الحجاج العقلي مع أهل الكتاب منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران:٦٤].

واستمرت المحاورات والمناقشات -ومازالت- تشتد حينا وتضعف أخرى ولا يكاد يخلو عصر من المساجلات الشفوية والمدونة [(١)].

غير أننا نعيش في عصر تفَرد بمظاهر جديدة خلت منه العصور الماضية [(٢)] فقد تحولت فيه اليهودية إلى دين سياسي كما بينا آنفاً، كذلك فإن النصرانية قد دخلت نفس المرحلة، أي: اكتساب النفوذ السياسي بإعلان البابا الكاثوليكي ليـــون الثالث عشر في ١٥/٥/١٨٩١م (إرادة الكنيسة في أن تتدخل في الأحداث وأن تدفع القوى السياسية المدافعة عن مبادئها في سبيل تحقيق أهدافها المدنية) [(٣)].

كذلك صاحبت موجة الاستعمار موجات التبشير حتى وصفت هذه المرحلة المعاصرة بأنها امتداد للحروب الصليبية في العصور الوسطى، ولكن في أثواب جديدة أشد

---

(١) من أشهرها في العصر الحاضر محاورات الأستاذ أحمد ديدات مع رجال الدين النصارى، ومنها محاورته مع القس الأمريكي سوجارت.

(٢) وأبرزها اتفاق اليهود والنصارى في عدائهم للإسلام والمسلمين، فقد عم الفرح والسرور أوربا وأمريكا على أثر هزيمة المسلمين العرب في حرب يونيو ١٩٦٧ بينما لا ننسى مسئوليتهما عن إنشاء اسرائيل (٤٧/٤٨ من كتاب رسالة البابا بولس السادس - د/عبد الودود شلبي) ط. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨.

(٣) سلوك المالك في تدبير الممالك ج١ ص ٤١ تحقيق وتعليق د/حامد ربيع حيث يسجل أيضا إنه في نفس الوقت يلاحظ (تقييد الدلالة السياسية للدين الإسلامي وإبعاده بصورة أو بأخرى من الحركة السياسية ومن مفاهيم الصراع السياسي) نفس المصدر ص ٤٤.

وأخطر من سابقتها، إذ توالت الحملات على الإسلام وكتابه ورسوله ﷺ بأقلام حاقدة لا تبغي الحق بقدر ما تبغي الإساءة والطعن[١].

وها نحن أمام خيوط عدائية تشابكت في شكل استعمار عسكري وتشويه للإسلام وحملات تبشير ومن ثم فإنه من التبسيط المخلّ وصف كل هذا بأنه مجرد «غزو ثقافي».

كلا إنه تكتل ذو أبعاد دينية ونفسية وتاريخية وثقافية يحمل برمته طابع الاصطدام والتحدي الذي لم ينقطع بين الحضارتين: الغربية المسيحية والحضارة الإسلامية.

يقول الدكتور حامد ربيع: «هذه الرهبة التي ترسبت في ذهن القيادات الأوربية تعود إلى بداية العصور الوسطى، وظهرت خوفا من الدولة العثمانية يرتبط هذا الخوف بعملية تشويه الحقيقة الإسلامية.. الحضارة الأوربية استندت دائما إلى كبرياء شكلي، وهي في هذا وريثة الحضارة الرومانية: حضارة القوة والغطرسة.. عقدة الإسقاط تأبى إلا إضفاء عيوب الذات على الغير.. وتأتي الحركات التبشيرية لتكمل هذا التطور: تشويه الإسلام»[٢].

الأمة الإسلامية: أمة ودعوة:

ولكن الحق أننا أمة داعية، ولسنا أمة معتدية، رسالتنا الهداية إلى الحق لا السيطرة والاستعلاء وقهر الشعوب، وصفحات تاريخنا أنصع بياضاً من أية صفحات أمة أخرى، فلم تتعرض جيوشنا إلا لحماة الظلم ومانعي الدعاة من أداة رسالتهم، وكانت الحروب سجالاً بين جندنا وجند قاهري الشعوب الذين يقفون عقبة في سبيل الهداية، فلم تتعرض للسكان الآمنين المدنيين شيوخا ونساء وأطفالا ورهبانا في صوامعهم.

يقول الجويني: (ابتعث الله محمدا ﷺ إلى الثقلين، وحَتّم المستقلين بأعباء شريعته دعوتين:

---

(١) وتعدى الأمر إلى ممارسة الطعن أثناء حملات الزيارات الشخصية. يقول الأستاذ أحمد ديدات: (كنت وأصدقائي هدفاً دائما لخريجي هذا المعهد، أي: معهد تخريج الوعاظ النصارى -فلم يكن يمر يوم لا يضايقنا فيه هؤلاء بإهاناتهم للإسلام، والنبي ﷺ والقرآن). ص ٨٥ من كتابه (هل الكتاب المقدس كلام الله؟) - ترجمة نورة أحمد النومان - مكتبة أبي القاسم جدة.

(٢) الإسلام والقوى الدولية ص ٩/١١ - ط دار الموقف العربي ١٩٨١م.

إحداهما:

الدعوة المقرونة بالأدلة والبراهين والقصد منها إزالة الشبهات وإيضاح البينات.

والأخرى: الدعوة القهرية المؤيدة بالسيف المسلول على المارقين الذين أبوا واستكبروا بعد وضوح الحق المبين).

من هذا الفهم الفقهي الصحيح لرسالتنا والتطبيقات الواقعية المطابقة لحقائق التاريخ، يحق لنا أن نتألم ونمتعض مما يلاقيه العالم الإسلامي منذ الحروب الصليبية من روح عدائية، تظهر آثارها على أمتنا وشعوبنا الآن في أندونيسيا والفلبين وتايلاند والهند والحبشة والسودان وبلغاريا وألبانيا ويوغوسلافيا وغيرها من البلدان التي يستهدف فيها المسلمون لألوان من التعسف والظلم وكبت الحــريات وحملات التنصير.

ومع هذا كله فإننا سنتخلص بقدر طاقتنا من آثارها على النفس بالصبر والمثابرة، ونقيم منهجنا العلمي في عرض العقائد النصرانية وشرحها في ضوء قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (١)، محتكمين إلى المناقشة الهادئة بالحجج العقلية والطرق المنطقية لتوعية أبنائنا بحملات التشهير التي تجاوز أحيانا كل الحدود، ونأمل أيضا أن نلقى آذانا صاغية وقلوبا خاوية من التعصب وراغبة في معرفة الحق واتباعه، لا سيما بعد انحياز العالم الغربي لليهود مع استخدام التبشير لاستمرار استعمار العالم الإسلامي، فإن العلاقة وثيقة بينهما (وخاصة ما يصدر عن العالم الأنجلو سكسوني البروتستانتي الذي يخضع بحكم تراثه الديني والفكري إلى التأثير اليهودي وتفسيراته المتعسفة لنبوءات العهد القديم، حيث تدعي إسرائيل قيامها على مزاعم توراتية دينية يؤمن بها البروتستانت إيمانا أعمى)(٢).

---

(١) سورة التوبة آية: ٣٣، والصف آية: ٩.

(٢) غياث الأمم في التياث الظلم ص ١٥٣/١٥٤ تحقيق د/ فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمي -ط - دار الدعوة الإسلامية بالإسكندرية ١٤٠٠هجرية /١٩٧٩ م.

التعريف بالأناجيل

تعتبر الأناجيل في النصرانية -كما يقرر الشيخ أبو زهرة- بمكانة القطب والعماد في النصرانية، فهي تشتمل على أخبار شخصية المسيح ﷺ من وقت الحمل إلى وقت الصلب في اعتقادهم، وقيامه من قبره بعد ثلاث ليال ثم رفعه بعد أربعين ليلة، كما تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم والصلب والفداء(١).

وقد كثرت الأناجيل كثرة عظيمة كما أثبت ذلك مؤرخو النصرانية (ثم أرادت، الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي -أو أوائل القرن الرابع - أن تحافظ على الأناجيل الصادقة - في اعتقادها- فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة إبان ذلك)(٢) .

أما عن طريقة اختيار هذه الأناجيل فلا تخلو من طرافة حيث يروي التاريخ أن قسطنطين الأكبر جمع ثلاثمائة من القساوسة فوضعوا الأناجيل تحت طاولة العشاء المقدس ودعوا الله أن تصعد الأناجيل الصادقة فوق الطاولة، ويبقى الزائف منها تحتها، فصعدت الأناجيل الأربعة الحالية فوق الطاولة وأصدر قسطنطين قراراً باعتبار غيرها زائفة، وأمر بإحراقها وإعدام كل من احتفظ بنسخة منها(٣).

ويقول موشيم في كتابه (تاريخ الكنيسة): «لقد كانت هذه الأحكام ظالمة غير معقولة، حتى أن الملك نفسه ندم عليها بعد ذلك. فقد أصدر الملك قسطنطين حكمه بإحراق كتب فرقة آريوس فى ذلك الموكب ونفيهم من البلاد، لكنه بعد بضعة أعوام وفى ٣٣٠م حين قالت أخت الملك وهى على فراش الموت أن قراره ضد هذه الفرقة كان ظالماً، وقد أصدره بناء على تعصب أعداء آريوس لا على أساس الصدق والحق، ألغى الملك قراره هذا، ولكن آريوس كان قد مات قبل أن يصل إليه قرار العفو)(٤) .

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ٤٩/٤٨ -ط. الرئاسة العامة للبحوث العلمية بالرياض ١٤٠٤ هجرية.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩.

(٣) تاريخ الإنجيل والكنيسة ص ٦٦ لأحمد إدريس / دار الحراء بمكة المكرمة ١٩٨٧ م.

(٤) نقلاً عن المصدر السابق.

ومهما يكن من أمر، فلا ينبغي أن تنسينا هذه الأحداث المذهلة الوقوف على الوثائق الأصلية التي اعتمدت عليها الأناجيل، وهل تحمل فعلا كلمة الرب؟

الأصول المخطوطة:

يذكر القس سوجارت في مجال الإثبات أنه (يوجد ما يقرب من أربع وعشرين ألف مخطوط يدوي قديم من كلمة الرب، من العهد الجديد وحده في الواقع وأقدمها يرجع إلى ثلاثمائة وخمسين عاما بعد الميلاد. والنسخة الأصلية أو المنظورة أو المخطوط الأول لكلمة الرب لاوجود لها)[١].

ولكن الشيخ أحمد ديدات أثبت أن ذلك ليس دليلا على أنها من عند الله -تعالى- إذ ليس بين هذه المخطوطات -على كثرتها- اثنان متماثلان باعتراف علماء النصارى أنفسهم، فالإنجيل الذي بين أيديهم ليس إنجيل عيسى عليه السلام الذي هو من عند الله، أو عندما تتفحص هذه الكتب تجد العبادات الآتية المذكورة بنسخة الملك جيمس وهي:

«الإنجيل وفقا للقديس متّى»

«الإنجيل وفقا للقديس مرقس»

«الإنجيل وفقا للقديس لوقا»

«الإنجيل وفقا للقديس يوحنا»

---

(١) المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان -بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت ص ١٢١، جمع وترتيب د/أحمد حجازي السقا وتقديم الشيخ محمد الغزالي - مكتبة زهران بالأزهر بمصر ١٤٠٨ هجرية/١٩٨٨م.

صلة الأناجيل بالتوراة

وقبل الحديث عن الأناجيل الأربعة عند النصارى، يحسن بنا أيضا شرح العلاقة بينها وبين التوراة، وموقف كل من اليهود والنصارى منهما، فإن اليهود (يؤمنون بأن العهد القديم أو التوراة وحدها هي كلام الله، ولا يعترفون بالعهد الجديد، أما المسيحيون فيعتبرون العهد القديم كتاب الشريعة والعهد الجديد عهد الفضل والكفارة)(١) .

وتعليل ذلك أن الأناجيل خلت من الأحكام التشريعية واعتماداً إلى الرواية المنسوبة للمسيح عليه السلام أنه ما جاء لينقض الناموس - أي: شريعة موسى - بل ليكمله (وباستثناء الأمور التي يرى المسيحيون أن الإنجيل قد نسخها من التوراة فإنهم يؤمنون ببقيتها ويعتبرونها كتابا مقدسا إلهيا لا غنى عنه في التشريع)(٢) .

أما عن تاريخ التدوين فيذكر كولمان في كتابه (العهد الجديد) أن الإنجيل ظل خلال ثلاثين أو أربعين سنة موجودا بشكل عام بصورة شفوية وكانت الصياغة الشفوية بتأثير وعظ تلاميذ المسيح -عليه السلام- ووعاظ آخرين، ثم جمعت هذه الروايات الشفوية وكتبت(٣).

ويقول الأب كنغسر: «لا ينبغي الأخذ حرفياً بالأناجيل، فهي (مكتوبة بالمناسبة) أو (للنضال) أوردها الكتاب خطيا بروايات جماعاتهم عن المسيح(٤).

ألا يلفت نظرنا تعبيراته عن الكتابة بالمناسبة وللنضال؟ لا شك أنها تخفي وراءها عوامل نزاعات دينية وخلافات عقائدية.

إذاً لا بد لاستكمال حلقات البحث والتمهيد لفهم واستيعاب نصوص الأناجيل من ضرورة التعريف بالشخصية البارزة في تاريخ المسيحية المبكر، والتي ترتبط به العقائد والطقوس المسيحية -وهو بولس - أو شاول - كذلك ضرورة إلقاء الضوء على المعارضة

---

(١) تاريخ الإنجيل والكنيسة، أحمد إدريس ص ٦١ -ط. دار حراء بمكة المكرمة ١٩٨٧م.

(٢) المرجع نفسه: ويورد ابن كمونة اليهودي مضمون عقيدتهم في هذا الصدد حيث قالوا: (نحن مؤمنون بكل ما جاء في التوراة وفي آثار بني اسرائيل التي لا مدفع في صدقها لشهرتها وعلانيتها في الجماهير العظام. ونؤمن بأنه في أخريات أمرهم وعقائبه تجسمت اللاهوتية وصارت جنينا في بطن عذراء من أشرف نساء بني إسرائيل من نسل داود).. (من كتاب تنقيح الأبحاث للملل الثلاث: اليهودية - المسيحية - الإسلام) لسعد بن منصور ابن كمونة اليهودية (القرن السابع الهجري) ط. دار الأنصار بالقاهرة - تقديم د/عبد العظيم المطعني.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٧٦/٧٧ باختصار.

(٤) المرجع نفسه ص ٧٨.

الشديدة التي لقيها من أتباع المسيح عليه السلام، والتي لولا الإلمام بها، لما استطعنا أن نقف على البواعث الحقيقية لكتابة الأناجيل.

(أ) كلمة عن بولس:

لابد للباحث في النصرانية من الإحاطة بشخصية «بولس» الذي حَول مجرى عقائدها وعباداتها، عما جاء به عيسى عليه السلام إلى ديانة أخرى مخالفة تماما وصح نسبتها إلى «بولس» بدلا من نسبتها إلى المسيح عليه السلام.

فمن بولس؟ أو شاول؟

إنه يعرفنا بنفسه بقوله: (أنا يهودي فريس بن فريس على رجاء قيامة الأموات»)، وكان شديد العداء للمسيحيين، فأخذ يعمل فيهم قتلا، ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن ويسطو على الكنيسة[١].

وقد تضمن سفر الأعمال صنوفا من ألوان التعذيب والاضطهاد والتقتيل الذي فعله بالمسيحيين حتى اعترف بنفسه في نصوص كثيرة، منها ما جاء في الإصحاح الثاني والعشرين مخاطبا اليهود (كنت غيورا لله، كما أنتم جميعكم اليوم، واضطهدت هذا الطريق حتى الموت، مقيدا ومسلماً إلى السجون رجالا ونساء، كما يشهد لي أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للأخوة إلى دمشق ذهبت لآتي بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا).

ويعطينا الأستاذ إبراهيم خليل بعض اللمحات المميزة التي تفرق بينه وبين المسيح عليه السلام، من حيث المباحث الدينية وطرق الدعوة، فقد تميزت طريقة المسيح (بطابع السمو والبساطة حتى يفهمها لأول وهلة -الزارع والصانع والمثقف والأمي والرجل والمرأة دون أدنى إجهاد للذهن، وعندما سئل كيف يرث الحياة الأبدية؟ أجاب المسيح عليه السلام: (إن الدين هو حياة وقوة وليس مجرد تعاليم) ، الدين هو أن يعيش المرء في إطار أحكام الشرع لا يتعدى أوامر الله ولا يقترف نواهيه) [٢] .

(١) المسيحية للدكتور/ شلبي ص ٧٢.

(٢) نقلاً عن محاضرات في النصرانية ص ٨٨.

أما أسلوب بولس المدعو رسولاً، فإنه يعَبر عنه في هذا النص: (فإني إذ كنت حراً من الجميع استعبدت نفسي للجميع، لأربح الأكثرين، فصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس.. إلخ، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال)[١].

ويستخلص من تحليله لأقواله وتعاليمه أنه كان متعمقا في معرفة الفلسفة اليونانية فكانت سارية في كتاباته، هذه الفلسفة التي لم ترو قط عن المسيح عليه السلام[٢].

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إنه أشاع فكرة التمييز العنصري أيضاً، وهي تناقض مبادئ المسيح، وها هو نداء بولس إلى أهل غلاطية: (أطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة، إذن أيها الأخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد حرة). فأين هذا من قول المسيح (أحبوّا أعداءكم، باركوا لاعنيكم)[٣].

ويصف لوقا كيف تحول بولس إلى المسيحية فيقول: (وعندما كان بولس قريباً من دمشق، فبغتة أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض، وسمع صوتا قائلا: شاول، شاول لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب: أنا يسوع الذي تضطهده. فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له: قم وكرّز بالمسيحية). وكان ذلك حوالي سنة ٣٨ م.

وبعد هذه الواقعة التي تدعو حقّا إلى التأمل ثم العجب للتغير المفاجئ المذهل في شخص بولس وعقيدته ودعوته، تأتي في قصة لوقا جملة ذات بال - وتوصف بحق، كما وصفها الدكتور شلبي أنها غيرت وجه التاريخ، وهي (وللوقت جعل يكرّز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله)[٤].

(ولم تكن هذه الفكرة قد عرفت من قبل)

ومنذ ذلك الحين، أخذ يدعو إلى المسيحية بحميَة ونشاط، ويستخدم مواهبه من الذكاء وقوى الفكر، والقدرة على التأثير في الجماهير للسيطرة عليهم وانتزاع الثقة به،

---

(١) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن ص ١٢١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٣.

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٤.

(٤) المسيحية للدكتور شلبي ص ٥٣.

واستطاع بمواهبه ونشاطه وحركته الدائبة في الدعوة والخطابة والكتابة أن يفرض رأيه على المسيحيين «فيعتنقوه دينا، ويتخذوا قوله حجة زاعمين أنه رسالة أرسل بها»[(١)] .

أما وجه العجب في تحول بولس من حالة إلى نقيضها، فهذا الذي يجعلنا نشارك فيه رأي الأستاذ أبو زهرة -رحمه الله تعالى- حيث عَبر عن ذلك بأسلوبه البليغ، ومنطقه السديد، قال بعد بيانه إن انتقال بولس كالكثيرين من الكفر إلى-الإيمان- ربما لا يثير العجب، لأن لــه أشباه ونظائر، (بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين إلى الرسالة في الدين الذي كفر به، وناوأه وعاداه، فإن ذلك ليس له نظير وليس لــه مشابه ولم يعهد ذلك في أنبياء ورسل قط، وهذه توراة اليهود، وأسفار العهد القديم التي يؤمن بها المسيحيون كما وردها، وكما قالوها، ليذكروا لنا رسولاً بعث من غير أن يكون في حياته الأولى استعداد لتلقي الوحي، وصفاء نفس يجعله أهلاً للإلهام؟ ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته، وأنه إذا لم يكن للرسالة إرهاصات قبل تلقيها، ولا يكون على الأقل قبلها ما ينافيها ويناقضها، ولكن بولس أبو العجب استطاع أن يتغلب على ذلك العجب في عصره، وأن يفرض نفسه على المسيحيين من بعده، وأن يحملهم على نسيان العقل عندما يدرسون أقواله وآراءه وتعاليمه)[(٢)] .

(ب) النزاعات الدينية:

يوجهنا موريس بوكاي إلى أهم نزاع حدث بين أتباع المسيح عليه السلام منذ رفعه وحتى منتصف القرن الثاني حيث حدثت معركة بين اتجاهين أي: بين ما يمكن أن يسميه «المسيحية البولسية»، «اليهودية - المسيحية»، ويقصد بالأولى المسيحية من وضع بولس، والثانية المسيحية كمذهب يهودي، حيث أخذت الأولى بكثير من التدرج مكانة الثانية وانتصرت عليها.

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ٩٠.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ٩٠.

ويحدثنا التاريخ بأن (جماعة الرسل الصغيرة)، التي كانت مذهباً يهودياً أمينا على الممارسات، ومراسم المعبد، هذه الجماعة انفصلت عن بولس تماماً، وتصادمت معه بما يعرف بـــ (حادث أنطاكية ٤٩) (فقد أسقط بولس الختان والسبت، ومراسم المعبد بالنسبة إلى اليهود، وقد كان على المسيحية أن تتحرر من انتمائها السياسي الديني إلى اليهودية لتنفتح على الوثنيين)[١] وانتهى الأمر بهذه الجماعة من اليهود والمسيحيين إلى اعتبار بولس خائناً، ولديهم وثائق تصفه (بالعدو) وتتهمه (بالازدواجية المداهنة) وكان رئيس الجماعة إذ ذاك يعقوب قريب المسيح، وأخذت أسرة المسيح مكانة عظمى في كنيسة القدس اليهودية - المسيحية (وخلف يعقوب سيكون سمعان بن كليوفاس ابن خالة المسيح)[٢] .

وكانت رسالة اليهودية - المسيحية طيلة القرن الأول منتشرة في كل مكان أي على الساحل السوري الفلسطيني من غزة إلى أنطاكية، وفي آسيا الصغرى كذلك، وكانت روما أيضا مركزاً مهما لهم.

ويستخلص موريس بوكاي من الواقعات التاريخية والنزاع بين الطائفتين مغزى هاما حيث يتضح أن النصوص التي بين أيدينا اليوم بدأت بعد كثير من تعديلات المصادر -حوالي سنة ٧٠ م - أي في العصر الذي كانت فيه الطائفتان المتنافستان في ألدّ الخصام. ولما كان اليهود - المسيحيون - هم المسيطرين حتى ٧٠ م، ثم ضعفوا بعد ذلك وقل نفوذهم - فإن ذلك يفسر لنا كيف ظهرت الأناجيل الأربعة فيما بين هذا العام - وقبيل ١١٠م - ويرى الأب كننغسر بأنه لو لم يكن جو الخصومة المثارة من انقسام الفكر البولسي (لما وصلت إلينا هذه الكتابات التي بين أيدينا اليوم (كتابات القتال هذه)[٣] برزت هذه الكثرة من الكتابات التي ظهرت عن المسيح، عندما كانت المسيحية ذات

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي ص ٧١/٧٠ باختصار. ترجمة الشيخ حسن خالد - ط. المكتب الإسلامي ١٤٠٧ هجرية /١٩٨٧م.

(٢) المرجع نفسه ص ٧١.

(٣) المرجع نفسه ص ٧٣.

الأسلوب البولسي بعد أن انتصرت نهائياً، قد كونت مجموعة نصوصها الرسمية (القانون) الذي أبعد كل الوثائق الأخرى التي لا تتفق مع الخط المختار من الكنيسة [١].

ويزيدنا الدكتور أحمد شلبي إيضاحاً عن حركة الاضطهاد الموجهة إلى المسيحيين الأصليين أتباع عيسى عليه السلام، فيذكر أن المسيحية التي خرجت ظافرة لم تكن مسيحية عيسى بل مسيحية بولس، ومسيحية الفلسفة الإغريقية «ولما كانت هذه المسيحية قد ابتدعت أشياء لا يرضى بها المسيحيون الأصليون كألوهية المسيح والتثليث وغيرهما، فقد بدأ صراع جديد اعتبر فيه المسيحيون الأصليون متمردين، وأوقعت بهم المسيحية الإغريقية أو مسيحية بولس ألوانا من العنت والاضطهاد» [٢].

وبعد.. فإذا كانت هذه هي العوامل التي أحاطت -تاريخياً- بكتابة الأناجيل فإن محاولات التنقيح مازالت قائمة على قدم وساق، حيث «هناك ادّعاءات كثيرة لتناقضات في الكتاب المقدس لم يستطع العلماء حلها حتى الآن، وفيها ما يسر كل كافر ملحد. فهناك بعض الصعوبات النصية التي مازال العلماء يتصارعون معها إلى يومنا هذا. ولا ينكر هذه الحقيقة إلا من كان جاهلاً بالكتاب المقدس» [٣] هذا ولعل التعريف بنسخة الملك جيمس تقرب إلينا فهم هذه المحاولات.

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٣.

(٢) مقارنة الأديان (٢ - المسيحية) للدكتور أحمد شلبى ص ٥٠ - ط. مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م.

(٣) الحقيقة المجردة - يوليو ١٩٧٥: نقلاً عن (هل الكتاب المقدس كلام الله؟) ص ٧٧.

كتاب طائفة البروتستانت

نسخة الملك جيمس

وصفت هذا النسخة بأنها «أنبل إنجاز في تاريخ النثر الإنجليزي، فمراجعوها عام ١٨٨١/ أعجبوا ببساطتها، وسموها بقوتها ونغماتها المرحة... وإيقاعها الموسيقي وتعبيراتها اللبقة، فقد دخلت في تكوين خصائص المؤسسات الحكومية في الدول المتحدثة باللغة الإنجليزية»(١) .

ومع هذا فإن علماء اللاهوت الذين راجعوها، وساعدهم في إخراجها هيئة استشارية تمثل خمسين طائفة دينية، هم أنفسهم قرروا أن «نصوص الملك جيمس بها عيوب خطيرة جداً، وأن هذه العيوب والأخطاء عديدة وخطيرة مما يستوجب التنقيح في الترجمة الإنجليزية»(٢) .

مع العلم بأن هذه النسخة أقرّها البروتستانت بعد حذف سبعة كتب من أصل كتاب الرومان الكاثوليك، باعتبارها كتب مشكوك في صحتها (ويسمونها الأبوكريفا **Apocrypha**).

ويذكر القسيس سوجارت سبب الاستبعاد بأن البروتستانت يؤمنون بأن الأسفار المستبعدة ليست وحياً فيقول (وهناك بعض الأسفار، تعرف (بأبوكريفا) وهي لم توضع مع أناجيل البروتستانت، ولكن الكاثوليك يضعونها مع أناجيلهم لأسباب خاصة بهم، والسبب الذي يجعلنا لا نضم هذه الأسفار إلى الإنجيل: هو ببساطة أننا نؤمن بأنها ليست وحياً، وعندما تقوم بفحصها، تجد أمامك أسباباً كثيرة تكفي لإظهار أنها ليست وحياً)(٣) .

وعندما نهض الشيخ أحمد ديدات ليدلي بدلوه في المناظرة، ألقى الضوء على كلمة «أبو كريفا» واعتبرها من المصطلحات «الفنية» التي يستخدمها القساوسة بينما لا تعرف

---

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ للداعية أحمد ديدات ص ١٩، ترجمة نورة أحمد النومان - مكتبة أبي القاسم / جدة.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠ أما نسخة الكنيسة الكاثوليكية من الإنجيل فهي نسخة (واي أوليز) والمقصود بنسخة الملك جيمس تلك التي أهداها البطريرك (كيرلس لوكا) بطريرك القسطنطينية إلى الملك جيمس الأول (١٦٠٣/١٦٢٥م).

(٣) المناظرة الحديثة ص ١٢١.

الجماهير المسيحية معناها (ومعناها: مشكوك في أمره -ضعيف- ليس أهلا لأن يوضع في كتاب الله، ولهذا السبب استبعدها البروتستانت واعتبروها تلفيقاً)[١].

ثم أشار إلى نسخة الملك جيمس باعتبارها النسخة المعتمدة وتساءل: «معتمدة ممن؟ ليس من الله تعالى، معتمدة من الملك جيمس، إنه هو الذي اعتمدها، وليس الله تعالى»[٢].

إنجيل متَّى:

يصف بوكاي هذا الإنجيل بقوله: «يشغل إنجيل متى المكانة الأولى بين الأناجيل الأربعة، في ترتيب تقديم كتب العهد الجديد، وهذا مثبت تماماً لأن هذا الإنجيل في صورة ما، ليس إلا امتداداً للعهد القديم.

إنه كتب ليَعرف بأن (عيسى عليه السلام يكمل تاريخ بني إسرائيل)[٣].

لذلك فقد كتب متَّى إنجيله بالعبرانية ليبشر اليهود بالمسيحية.

أما عن تاريخ كتابته ومدى صحة نسبه إلى متى، فإن بعض العلماء والنقاد (يميلون إلى القول بأن هذا الإنجيل من تأليف أتباع متى، وأكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي ٨٥ و٩٠ م» [٤].

وحول ما يدور من علامات استفهام حول تاريخ تدوينه وترجمته ومعلومتنا عن شخصية المترجم، غير ذلك من بيانات ضرورية لتوثيق نصوصه يقرر الشيخ أبو زهرة أن كل هذا يؤدي إلى فقد حلقات في البحث العلمي[٥].

---

(١) نفس المصدر ص ١٣١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٢.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم -موريس بوكاي ص ٨٠ ترجمة الشيخ حسن خالد - ط المكتب الإسلامي ١٤٠٧ هجرية /١٩٨٧م.

(٤) محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد ص ١٣٤ ويذكر إن متَّى يعتمد على المعجزات التي تعزى إلى المسيح، ويحرص حرصاً شديد - يدعو إلى الريبة - على أن يثبت أن كثيرا من نبوءات العهد القديم قد تحققت في شخص المسيح عليه السلام).

(٥) محاضرات في النصرانية ص ٥٤.

كذلك يقرر الكاهن (جيمس كلسي) أن (التعاليم القديمة تعزو هذا الإنجيل إلى الحواري متى. هذا ما يقوله الناس، لكن العلماء في عصرنا الحاضر يرفض معظمهم وجهة النظر هذه)[١].

وربما يعتمد في ذلك على ما يراه بعض الباحثين المسيحيين «أن الجزء الذي ألفه متى الحواري ضاع في زمانه، وأن ما بين أيدينا الآن لم يصرح مؤلفه فيه باسمه»[٢].

لذلك يتساءل الأستاذ أحمد ديدات متعجباً (فإذا لم ينسب هذا الكتاب (بشارة متى) إلى الحواري متى، فكيف نقبله كلام الله)؟، وهو يستند في نفي نسبة الكتاب إلى متى -إلى رأى الأستاذ فيليبس- وهو عالم في اللاهوت بالكنيسة الإنجليزية الذي يقول «لقد اعتمد الكاتب على الغامضة التي ربما كانت مجموعة من التراث الشفهي». ويعني بالــ Q هنا كلمة Quella بالألمانية وتعني مصادر)[٣].

إنجيل مرقص:

ومن الثابت تاريخياً أن مرقص لم ير المسيح عليه السلام. يقول عبد الله الترجمان: (وأما مرقص فما رأى أيضا - عيسى عليه السلام - قط، وكان دخوله في دين النصارى كذلك بعد رفع عيسى وتنصر على يد «بترو» - أي بطرس- الحواري)[٤].

واختلف الباحثون حول الإنجيل المنسوب إليه، فمن قائل إن كاتبه هو «بطرس» رئيس الحواريين عن مرقص في مدينة رومية ونسبه إلى مرقص، ومن قائل إن مرقص ما كتب إنجيله إلا بعد وفاة بطرس وبولس[٥] (وليس بين أيدينا ما نرجح به إحدى الروايتين عن الأخرى فمن الذي كتبه؟).

---

(١) المناظرة الحديثة ص ١٥٥ أي بمعنى آخر: إن القديس متى لم يكتب البشارة التي تحمل اسمه ص ٤٦ هل الكتاب المقدس كلام الله؟

(٢) تاريخ الإنجيل والكنيسة - أحمد إدريس ص ٦٩.

(٣) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات ص ٤٦.

(٤) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ص ٦٦ عبد الله الترجمان (القس انسلم كورميدا) تقديم وتعليق د/محمود على حماية - ط. دار المعارف ١٩٨٤م.

(٥) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي ص ٨٦.

ولم يقف التساؤل عند هذا الحد، بل تداعى إلى غيره حيث ظهر أمام الدراسة النقدية لمضمون إنجيل مرقص، سؤال آخر عن مصادره التي نقل عنها فقد اعتبر الكتاب المحدثون أن القسم الأخير منه عملا مضافا. يقول كولمان: (إن مخطوطات يونانية أكثر حداثة، وبعض نصوص أضافت إلى هذا القسم خلاصة رؤى ليست لمرقص، بل هي مأخوذة من أناجيل أخرى) [١].

ويرى الأب كنغر وهو عالم كبير في اللاهوت إنه بعد انتشار الكتابات المتقاربة لمتَّى ولوقا ويوحنا، خلص العلماء إلى نتيجة هامة عن مرقص، وهي أنه يأخذ المواد من يمين وشمال لدى الإنجيلين الآخرين. ويتضح من ذلك مدى الحرية التي كان يمارس بها الأسلوب الأدبي للسرد الإنجيلي حتى بداية القرن الثاني.

وعندئذ يعلق موريس بوكاي على هذه النتيجة بقوله في صيغة تعجّب: (فياله من اعتراف لا عوج فيه عن وجود الممارسة البشرية في نصوص الكتابات المقدسة تقدمه لنا هذه الأفكار من عالم كبير في اللاهوت !)[٢] .

إنجيل لوقا:

نذكر أولا ما اتفق عليه المؤرخون عن واقعة ثابتة تحقق منها العلماء المحدثون أيضا، وهي أن لوقا «لم يدرك عيسى عليه السلام، ولا رآه أبدا، وإنما تنصّر بعد رفع عيسى، وكان ممن تنصّر على يد بولس الإسرائيلي، وبولس لم يدرك عيسى ولا رآه، وكان أكبر أعداء النصارى) [٣]، ويذكر الشيخ أبو زهرة أن الباحثين متفقون على أنه من تلاميذ بولس ورفقائه، ولم يكن من تلاميذ المسيح ولا من تلاميذ حوارييه [٤].

أما عن وصف إنجيله، فنجد أنفسنا أيضا حيال عدة احتمالات وافتراضات تكاد تتساوى مع بعضها البعض، فيتعذر على الباحثين المدققين الاختيار بينها إلا بصعوبةٍ بالغة،

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم - موريس بوكاي ص ٨٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٧.

(٣) تحفة الأريب ص ٦٤/٦٥.

(٤) محاضرات في النصرانية ص ٥٨/٥٩.

حيث يتوالى ظهور مشكلات أخرى بغير حل كما سنرى: فقد اختلف الباحثون في مكان مولده - وهل هو أنطاكي أم روماني؟ وهل اشتغل بمهنة الطب أم كان مصورا؟

ويدعونا الاختلاف -حول مهنته بالذات- إلى التوقف قليلا لمناقشة من يرجّح امتهانه لصناعة الطب، لأن (هذه المهنة لها قيمتها الخاصة لأنها تلقي على حياة لوقا نورا ساطعا، فترينا الرجل العلمي العملي المدقق المحقق الرقيق الأسلوب الجميل الديباجة، لأن الرومان لم يسمحوا في وقتهم لأحد أن يتعاطى مهنة الطب، إلا لمن جاز امتحانات عدة على جانب عظيم من الصعوبة والدقة والخطورة)[١].

ولكن موريس بوكاي لم يأخذ بهذا الرأي الذي يشير أيضا إلى أن (الكثيرين قد تأكدوا من المهنة الطبية لكاتب الإنجيل من دقة وصفه للمرضى)، ويرى أن هذا التقدير مبالغ فيه، ولأن لوقا لم يعط (وصفات) من هذا النوع بالذات، والمفردات التي يستعملها هي ذاتها التي يستعملها كل إنسان مثقف في زمانه)[٢].

وبمراجعة الأسطر الأولى من إنجيل لوقا يتضح أنه يروي عن آخرين، بينما لم يكن هو من الشهود المعاينين، فقد قال ما يأتي:

(١) (إذا كان كثيرون قد أخذوا في ترتيب قصص الأمور المتيقنة عندنا)

(٢) (كما سلمها إلينا الذين كانوا معاينين منذ البدء وخادمين للكلمة)

(٣) (رأيت أنا أيضا بعد أن أدركت جميع الأشياء من الأول بتدقيق أن أكتبها لك بحسب ترتيبها أيها العزيز تاوفيلس).

(٤) (لتعرف صحة الكلام الذي وعظت به) [٣].

لهذا كان لوقا في نظر كولمان مؤرخاً، وفي نظر الأب كننغر (قصاصاً بارعاً)[٤].

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ٥٨.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٨٨.

(٣) إنجيل ربنا يسوع المسيح للقديس لوقا (الفصل الأول) نقلاً عن (هل الكتاب المقدس كلام الله؟) لأحمد ديدات ص ٨٣.

(٤) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص ٨٧، وثاوفيلي هذا -كما وصفه ابن البطريق- رجل من عظماء الروم. وهناك من يقول إنه كان مصريا لا يونانيا (محاضرات في=

ونظراً لأن لوقا كان وثنياً اهتدى إلى المسيحية، فقد أشار كولمان في دراسته إلى تجاهله الآيات الأكثر يهودية لدى «مرقص»، وإبرازه لكلمات عيسى -عليه السلام- ضد كفر اليهود، في حين كان «متّى» يجعل المسيح يطلب من الرسل البعد عنهم. ويعلق موريس بوكاي على ذلك بقوله: (وهذا مثل رهيب من كثير، يوضح لنا أن الإنجيليين كانوا يقولون عن المسيح ما يناسب رؤاهم الشخصية، فيقدمون لنا بحسن نية أكيدة وبقناعة شخصية من كلمات المسيح، النص الذي يتفق مع وجهة نظر الطائفة التي ينتمون إليها) [١].

وبالمقارنة بين سلسلة نسب المسيح عليه السلام عند لوقا ومتّى، تبرز إحدى أبرز التناقضات في الكتاب المقدس، فيقول الأستاذ ديدات: (من بين داود وعيسى "أوصى" الله لمتّى بتسجيل ستة وعشرين سلفا فقط «لابنه» ولكن لوقا الملهم أيضا سجل واحداً وأربعين سلفاً لعيسى) [٢].

إنجيل يوحنا:

يصف الأستاذ الشيخ أبو زهرة هذا الإنجيل بقوله: (لهذا الإنجيل خطر وشأن أكثر من غيره في نظر الباحث، لأنه الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكرا صريحا لألوهية المسيح عليه السلام) [٣].

وكان الرأي المعتمد في العصور الماضية هو اعتبار يوحنا (ابن خالة عيسى عليه السلام، ويزعم النصارى أن عيسى حضر في عرس يوحنا، وأنه حول الماء خمرا في ذلك العرس، وهذه أول معجزة ظهرت لعيسى، وأن يوحنا لما رأى ذلك ترك زوجته، وتبع عيسى على دينه وسياحته) [٤].

=النصرانية ص ٥٩)

(١) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص ٧٥.

(٢) المرجع نفسه ص ٨٨ ويقول: (وفي المقابلة بين السلوك العام لكل من إنجيل لوقا وإنجيل متّى كان الدليل على ذلك).

(٣) محاضرات في النصرانية ص ٦٠.

(٤) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، عبد الله الترجمان ص ٦٦.

ولكن لم يعد هذا الرأي مسلما به في العصر الحديث، بعد إجراء التحقيقات والدراسات في الكتب المقدسة، حيث صححت كثيراً من المعلومات الخاطئة السابقة، وبدأ البعض يسأل (من هو الكاتب؟ إنه سؤال موضوع جدال. إذ الآراء تختلف كثيرا في هذا الموضوع)(١) .

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ "موريس فوردن" ناظر مدرسة العلوم العليا في باريس والمدرس في القسم الديني بها، وقد صدق على شهادته خمسمائة عالم في جمعية دار المعارف الكبرى بباريس.

قال الأستاذ موريس (وأما عن إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك أنه كتاب مزور أراد صاحبه أن يضاد الحواريين متّى ويوحنا، وادعى أن هذا الكتاب المزور هو للحواري يوحنا الصياد الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه...)(٢) .

ويرى الأستاذ محمد تقي العثماني -بعد مراجعة مستفيضة لآراء العلماء ونتائج بحوثهم في مضمون هذا الإنجيل والملابسات الدائرة حوله- يرى أن المحرّر هو أحد تلاميذ بولس (وزاد إليها من جاء بعده جملاً وعبارات كشف عن كون المؤلف شاهد عيان لسيدنا المسيح عليه السلام)(٣) .

إنجيل برنابا «أحد الأناجيل غير المعترف بها»:

قبل الحديث عن إنجيل «برنابا»، فإننا نحب توضيح موقفنا منه أولاً؟ فلسنا حريصين على الاسترشاد به لإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ، فلنا أدلتنا الكافية بذاتها - كذلك

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص ٩٠.

(٢) محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٧٢، المستشار محمد عزت الطهطاوي - مكتبة النور بمصر الجديدة ١٩٨٦م، كذلك أبدى شكه في صحة نسبة الأناجيل الثلاثة الأولى حتى مرقص ولوقا إلى من نسبت إليهم من الحواريين لدرجة تعادل الرفض تماماً.

(٣) ما هي النصرانية ص ١٥٣.

ندفع الزعم بأنه من تأليف المسلمين [١] - لأنه ليس من عقائدنا ولا مبادئنا اتباع طريقة (الغاية تبرر الوسيلة)، وإزاء ذلك فإن الإقرار بصحة هذا الإنجيل أو استبعاده لدينا سواء.

إن الحديث إذن عن إنجيل برنابا أدنى لقضية الخلاف العقائدي بينه وبين بولس، إذ يبدو من نصوصه أنه تحمله كثيرا، ثم أعلن على الملأ أوجه الخلاف بعد أن طفح الكيل ولم يعد يحتمل الصبر عليه، وضمّن ذلك صدر إنجيله، فقال تحت عنوان (الإنجيل الصحيح ليسوع المسمى بالمسيح: نبي جديد مرسل من الله إلى العالم بحسب رواية برنابا رسوله). ثم يصف نفسه بأنه رسول يسوع الناصري المسمى المسيح... إلخ، **فلماذا استبعد هذا الإنجيل ولم يعترف به؟...**

العوامل الحقيقية وراء استبعاد إنجيل برنابا

لنعد مرة أخرى للإلمام بأجواء النزاعات التي ظهرت فيها الأناجيل، حيث ظهر الصراع بين طائفتي المسيحيين الأصليين أتباع المسيح عليه السلام والمسيحيين البولسيين أتباع بولس.

وفي ذلك الوقت كان «برنابا» من أوائل الذين عرفوا حقيقة «بولس» ففضح نواياه، وأذاع على الملأ خبايا عقيدته الباطلة التي دسها على المسيحيين دسّا.

ثم ظهرت كتابات برنابا لتكشف القناع عن المشادة التي حدثت بينهما في قوله: (أيها الأعزاء، إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيّه يسوع المسيح، برحمته العظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان

---

(١) يقول الأستاذ محمد عبد الرحمن عوض (لو ألف هذا الكتاب شخص ما.. مسلماً أو غير مسلم لنسخه أعداء المسيحية وروجوا لـه واستدلوا به - وهو ما لم يحدث- بل ظل في طي الكتمان حتى ظهر مترجما إلى الإيطالية ثم إلى الإنجليزية والأسبانية وأخيرا إلى العربية) ص ٥٥ من كتابه / الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، دار البشير بالقاهرة ١٩٨٦ م، مع العلم بأن القرار بتحريم إنجيل (برنابا) صادر ٤٩٥م أي: قبل البعثة المحمدية. ص ٤٧.

الذي أمر به الله دائما، مجوّزين أكل لحم نجس الذي ضل في عدادهم بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى)[١] .

ويمضي في حديثه محذراً من أتباع بولس، ومؤكداً مخالفته لتعاليم يســوع عليه السلام لأنه عاشره بنفسه وعرف تعاليمه فيقول: (وهو السبب الذي لأجله أسطّر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي يسوع، لكي تخلصوا، ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه، لتخلصوا خلاصا أبديا)[٢] .

ويصبح استبعاد إنجيل برنابا مفهوما في ضوء انتصار المسيحية البولسية على المسيحية اليهودية، ولصيقاً ببحث مضامينه العقائدية المخالفة لعقائد النصارى الحالية، ولما كان من المستحيل التوفيق بين النقيضين، فما أسهل استبعاده.

أجل هذه هي القضية، وكان إنجيل برنابا (أكثر اتساقا في عرضه لحقيقة الألوهية مع شريعة موسى وما جاءت به التوراة، وكان برنابا شاهد صدق على أن عيسى ابن مريم جاء متمما للناموس وليس ناقضا له)[٣] .

ومهما يكن من أمر، فإننا كما قلنا من قبل لسنا في حاجة كمسلمين إلى الاسترشاد بهذا الإنجيل، كل ما هنالك إننا نبغي إيضاح ما يستخلصه كل باحث بالمقارنة بينه وبين الأناجيل الأخرى، فإذ اتبع في تقويم مضمونه موازين التوثيق للكتاب المقدس (فإن إنجيل برنابا في ضوئها يأتي موثوقا به)[٤] .

ومن أجل معرفة الحق والدعوة إليه، نضمّ صوتنا إلى صوت الإمام محمد أبو زهرة، فإن (من أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية، أن تعنى الكنيسة بدراسته، ونقضه، وتأتي بالبيانات الدالة على هذا النقض، وتوازن بين ما جاء في رسائل بولس ليعرف القارئ والباحث أيهما أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق وأوثق به اتصالا)[٥] .

---

(١) مقدمة إنجيل برنابا - نقلاً عن محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد ص ٩٣.

(٢) إنجيل برنابا ١: ٢ - ٩ نقلاً عن ما هي النصرانية؟ محمد تقي العثماني ص ٢٠٢.

(٣) الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأناجيل الأربعة، محمد عبد الرحمن عوض ص ١١٨.

(٤) ما هي النصرانية؟ ص ٢٥٨.

(٥) محاضرات في النصرانية ص ٨١. وينظر أيضا (ما هي النصرانية) لمؤلفه محمد تقي العثماني الذي عدد فيه أموراً أربعة تنفي كون إنجيل برنابا من تأليف رجل مسلم (ص ٢٤٢٤ - ٢٤٦).

تعقيب:

وبعد هذا العرض الموجز للأناجيل، والإحاطة بملابسات تدوينها والتعريف بكتابها، أصبحنا أمام خطوة تالية يقتضيها منهج بحث علم الأديان المقارن، وذلك على ضوء الاتفاق على مبادئ أساسية تحدد الأركان اللازم توافرها في أي كتاب سماوي، من حيث التثبت من مصدره، وتوافر ضمان النقل بسلاسل إسناد موثوق بها ومتصلة.

ولنتفق أولا على الأركان اللازمة للإقرار بصحة هذا الكتاب، فإن (أي كتاب سماوي يستحق أن نخضع له والامتثال لأحكامه لا يكفي في إسناده إلى شخص ذي إلهام مجرد الظن والوهم، بل أن يثبت ذلك الكتاب أنه من الله -عز وجل- أولا، وأنه هو الذي أنزله على النبي الفلاني ثانيا. وهذا الثبوت يكون بسند متصل في جميع طبقاته متواتر في عامة مراتبه، أي رواه أناس كثيرون يؤمن تواطؤهم على افتراء الكذب، فلا يكون هناك تغيير أو تبديل أو زيادة أو نقصان)[(١)] .

وعلى ضوء ذلك، نعفي أنفسنا من الخوض ثانية في الحديث عن سلاسل الإسناد بعد ما عرضناه آنفا، إذ لم يسلم إنجيل من الأناجيل الأربعة من أوجه الطعن والتشكيك والاتهام للكتّاب مما نقلناه عن علماء النصارى أنفسهم[(٢)]، غير أنه لا يصح الانتقال إلى نقد المضمون، إلا بعد ثبات تقريرين صريحين:

أولهما:

إثبات التحريف نصًا على لسان بطرس في رسالته الثانية حيث قال: (إن الرسائل كلها منها أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب أيضا)[(٣)] .

---

(١) محمد ﷺ نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن المستشار محمد عزت الطهطاوي ص ٦٤.

(٢) قال علي بن ربّن الطبري (وكان نصرانيا فأسلم): على أن من أدىّ تلك الأخبار إليكم لم يكن فيهم أجداد عسى أنه أخذها من شاهد المسيح أو موسى عليهما السلام من آبائه وأجداده، كما تدعي العرب عن آبائها وأجدادها الذين شاهدوا النبي ﷺ، فإن الرجل منهم يحدثه عن جده أو جد جده أو بعض بما رأى.

(٣) محمد ﷺ ص ٦٦، وأدّاه إلى أعقابه (الدين والدولة ص ٢٠٤) ويستطرد قائلا: (فأما أخباركم=

والثاني:

مبررات التحريف نفسها، أي الجذور النفسية والأخلاقية لأعمال التحريف، إذ ربّما هان الأمر لو كان استثناء، أما استناده إلى فلسفة ثابتة، فهذه هي الطامة الحق يقول أحد المؤرخين: (كان بين متبعي رأي أفلاطون وفيثاغورس مقولة مشهورة هي أن الكذب والخداع لأجل أن يزداد الصدق وعبادة الله ليسا بجائزين فقط، بل قابلان للتحسين، وتعلم هذا الكلام منهم يهود مصر قبل المسيح - ويظهر ذلك جليا في كثير من كتب اليهود القديمة، ثم أثّر وباء هذا الخطأ السيئ في المسيحيين، كما يظهر هذا الأمر بجلاء من الكتب التي نسبت إلى الكبار كذبا)[١].

نقد المضمون:

إن المسلمين والنصارى متفقون، كما يذكر الأستاذ أحمد ديدات - على أن وحي الله -تعالى- لا بد أن يخدم واحدا من هذه الأغراض الأربعة:

إما أن يعلمنا المبادئ والعقائد.

أو يلومنا على خطأ ارتكبناه.

أو يقدم لنا الصواب.

أو يهدينا إلى الصلاح[٢].

وقد أخذ الأستاذ ديدات يفحص الكتاب المقدس، وفق هذه الأغراض فأذهله العثور على نماذج تبعث على الخجل والاستياء مما تضمنته من رواية قصص عن زنا المحارم بل إن نبوة «حزقيال» تتضمن تفاصيل جنسية تخجل منها الكتب الجنسية الممنوعة[٣].

=فإنها أداها إليكم عراقي عن جزري عن شامي وشامي عن عبراني وفارسي عن رومي ومشرقي عن مغربي، بأسباب مظلمة متفاوتة - تحقيق عادل نويهض - دار الآفاق الجديدة بيروت ١٣٩٣ هجرية / ١٩٧٣ م.

(١) برشليم المؤرخ في بيان علماء القرن الثاني ص ٦٥ المجلد الأول من تاريخه المطبوع ١٨٣٢م نقلاً عن المصدر السابق ص ٦٦.

(٢) هل الكتاب المقدس كلام الله؟ أحمد ديدات ص ٦٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٧١. وقد ذكر الأستاذ ديدات أثناء مناظرته للقس سوجارت أن هيئة الرقابة=

ومما يلاحظ في سلوك الأطفال أن هذه القصص أثمرت تغييرات راسخة في نفوسهم -بناء على التجارب التي أجراها الدكتور فيرنون جونز - عالم النفس الأمريكي المشهور، فلا بأس إذن من انتشار حوادث الاغتصابات وجرائم القتل وزنا المحارم التي تسجلها الجرائد اليومية، بل ليس (من العجيب إذن أن يقيم الرومان كاثوليك والميثوديون «إحدى الطوائف النصرانية» أعراسا بين اللوطيين في " بيوت ربهم "، حتى قام ثمانية آلاف لوطي بمسيرة استعراضية في حديقة هايد بارك بلندن في يوليو ١٩٧٩ م مصاحبا بتشجيع وهتافات وسائل الإعلام)(١).

هذه هي ثمرة بعض نصوص الكتاب المقدس، ثم لنعقد مقارنة جزئية بثمرة تعاليم القرآن، الذي جاء مؤيدا للحق بالكتب السابقة ومهيمناً عليها. فمن أقوال عيسى عليه السلام (كل شجرة طيبة تطرح ثمرة طيبة، وكل شجرة خبيثة تطرح ثمرة خبيثة) أجل (هذا هو المحك، المحك الثمرة. لقد أوجد الإسلام أكبر مجتمع في العالم لا يتعاطى المسكرات، يوجد حوالي ألف مليون مسلم في العالم وهم في عمومهم لا يعاقرون المسكرات، ولا يشربون الخمر، هذه هي الثمرة)(٢).

=بحكومة جنوب أفريقيا قد أصدرت أمرا بحظر تداول بضعة صفحات من الكتاب المقدس، دون أن تدري أنه جزء من سفر حزقيال من الإصحاح الثالث والعشرين. (من كتاب المناظرة الحديثة ص ١٥٠). ويحكي العقاد عن إحدى القصص الجنسية الفاضحة التي رفضت الرقابة الأمريكية نشرها بحجة إفساد الأخلاقيات العامة، فاحتكم المحامي إلى الكتاب المقدس الذي يحتوي على (قصص فاضحة ومخجلة ومهينة للإنسان، فكيف تضعون مثل هذا الكتاب في أيدي الأطفال والفتيان، بينما رواية ليست كتابا مقدسا، ولا يمكن أن تكون منتشرة مثل الكتاب المقدس، فإما أن تفرجوا عن هذه الرواية وإما أن تصادروا الكتاب المقدس). وأفرجت المحكمة عن الرواية. ص ١١١ - ١١٢ من كتاب (في صالون العقاد كانت لنا أيام) أنيس منصور - ط. دار الشروق ١٤٠٣ هجرية /١٩٨٣ م.

(١) المرجع نفسه ص ٦٨ واستشهد بقول برناردشو ص ٧٠: (الكتاب المقدس من أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، احفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح).

(٢) المناظرة الحديثة ص ١٧٥. كذلك أثبت نصاً من مجلة الحقيقة المجردة أكتوبر ١٩٧٧ (إن قراءة قصص الكتاب المقدس للأطفال يفتح الباب لغرض مناقشة العبرة وراء الجنس، وإن الكتاب=

ويرجع ذلك إلى تحريم القرآن الكريم للخمر ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة : ٩٠].

ولنقارن ذلك بما يحدث بالأمة الأمريكية، حيث يوجد - حسب قول سوجارت أحد عشر مليون سكير، وأربعة وأربعون مليوناً من مدمني الخمر (هذه هي أمتكم والأخ سوجارت لا يجد اختلافا بين الخمسة والخمسين مليونا؟ هو يعتبرهم مدمني خمور، أما الإسلام فلا شرب خمر، حتى على سبيل المجاملات الاجتماعية)(١) .

ومن إجابات الدكتور محمد علي البار عن أسئلة حول أسباب انتشار مرض الإيدز، علّله بانتشار الشذوذ الجنسي في الولايات المتحدة، إذ يوجد أكثر من عشرين مليون شخص، ولهم جمعيات خاصة وكنائس خاصة تزوّج الرجال بالرجال !!

كذلك لابد من ملاحظة الفاحشة هناك بدرجة مذهلة مستندا إلى مثال من صحيفة «هيرالد تريبيون» التي ذكرت في عددها بتاريخ ١٩٧٩/٦/٢٩ أن عشرة بالمائة من العائلات الأمريكية تمارس ما يسمى بنكاح المحرمات، ويقدر عدد الفتيات الأمريكيات اللواتي نشأت علاقة جنسية بينهن وبين آبائهن بحوالي ١٥ مليون فتاة.

[الشرق الأوسط في ١٩٩٠/٣/١٨ص ٩].

ويضيف الأستاذ ديدات بيان أثر الكتاب المقدس على السلوك الشائن ممثلا في زنا المحارم، حيث تنتشر بمعدلات وبائية بين البيض في جنوب أفريقيا، يصل إلى ثمانية في المائة، كذلك بلغت النسبة معدلات وبائية في أمريكا، كما بيَّن سوجارت (ويضرب مثلا من الكتاب المقدس، فيذكر إن الإنجيل يحتوي على عشر حالات من زنا المحارم)(٢) .

وإزاء ذلك فإنه لا يعقل أن يكون هذا الكتاب من عند الله (٣).

المقدس إذا لم يهذب وينقح قد تعتبره مجالس الرقابة صالحا للكبار فقط لمن جاوزوا الثامنة عشرة من العمر) ص ٧٠ هل الكتاب المقدس كلام الله؟

(١) المرجع نفسه ص ١٧٦.

(٢) المناظرة الحديثة ص ١٤٢.

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٣.

والآن تأتي المناسبة للحديث بإيجاز عن الكتاب المنزل من عند الله -تعالى- حقا، المحاط من كل جانب بما يبرهن على أنه - كتاب الله عز وجل وحده - الذي سلم من التبديل والتحريف.

القرآن الكريم كلام الله تعالى

وتسنح الفرصة الآن لنعطر حديثنا عن القرآن الكريم، إذ سيبقى بحثنا ناقصا لو لم نعرج على الحديث عنه لأنه كلام الله تعالى، إذا تبين بعد التمحيص والمناقشة والاستدلالات المتنوعة استبعاد أن يتضمن الكتاب المقدس الوحي الكامل الصحيح من الله تعالى، ففي الطرف المقابل تتجلى وتشع حقيقة القرآن الكريم ـــ كلام الله تعالى ـــ وتصبح أضوأ بهاء وأشد لمعانا، لأنه الكلام الذي ﴿**لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤٢].

وتكفينا الإشارة في هذه العجالة إلى حقيقتين بارزتين:

أولهما: كيفية تلقيه وحفظه، ونستند في ذلك إلى أقوال الأستاذ (سفساف الأرثوذكسي) عضو الجمعية العلمية بأوروبا في كتابه المسمى «أصول الفقه الإسلامي»، فإنه سجل الأحداث التاريخية بحذافيرها، شأن كل باحث أمين مدقق بموضوعية كاملة فأثبت حقيقة الوحي وكيفيه نزوله على رسول الله ﷺ وهى الحالة التي شاركه فيها الأنبياء والرسل قبلة كدانيال وموسى وغيرهما (وتستمر هذه الحالة ما دام الوحي حتى إذا تم أخبر الرسول ﷺ أصحابه بنفس ألفاظ الملك فيحفظونها على الفور عن ظهر قلب حرفياً، وكانوا يعتنون بذلك الاعتناء الذي لا مزيد عليه لأن الحفظ الحرفي لسور وآي القرآن كان عندهم من أعظم العبادات وأقرب القرب.... فكان أصحاب الرسول ﷺ تفرغ وسعها وتبذل جهدها المستطاع لتنقش في حافظتها ألفاظ الوحي مضبوطة محكمة بمجرد نزوله، حتى كانوا من مزيد عنايتهم به بعد حفظ الآية من الرسول ﷺ يترددون عليه غير مرة ويطلبونها أمامه حتى يزداد تثبتهم في حفظها وأدائها كما هي).

ويمضى بعد ذلك فيسجل مراحل كتابته وجمعه بواسطة أكابر الحفاظ حسب رواية البخاري، حتى لم يبق مجال لأدنى شك في نهاية الضبط التام الكريم، إلى أن دعا الحال

زمان عثمان بن عفان ﷺ لنشر الكتاب في الجهات فصدر ثلاثة مصاحف إلى الأمصار، وقد رأى أستاذه بعيني رأسه مصحفا منها بدار الإفتاء الحنفي بدمشق [(١)].

وشهد بنفس هذه الشهادة أهم مجادلي البروتستانت وهو المستر سنوبارت في لكهنؤ ببلاد الهند. ويقول أيضاً الأستاذ موبر وهو من أمهر وأحذق خصماء المسلمين: إن جميع ما في المصحف هو نص ما صدر من بين شفتي النبي محمد ﷺ. وكذلك يقر الدكتور فل الكاثوليكي بألمانيا أنه «لا نسبة بين القرآن وبين الكتب النصرانية من حيث الضبط والدقة»[(٢)].

الثانية:

نفس القرآن الحكيم وآياته وأحكامه وتشريعاته وأخلاقياته، وما احتوى عليه من قضايا التوحيد وصفات الألوهية والنبوات والقدر والدار الآخرة وخلق الإنسان وأطواره ومصيره وقصص الأمم والأنبياء والرسل، وغير ذلك مما لا نحيط به حصراً في هذه الصفحات.

وبعبارة أخرى فإن جميع آياته الباهرة تأخذ بمجامع القلوب وترشد العقول الباحثة عن الحق إلى بر الأمن والإيمان الذي لا يعتريه شك.

تجربة علي بن ربّن الطبري:

يروى لنا علي بن ربّن الطبري هذه التجربة الذهنية: (وذلك أنى لم أجد لأحد عربي أو عجمي هندي ولا رومي كتاباً جمع من التوحيد والتهليل والثناء على الله عز وجل، والتصديق والتهليل والثناء على الله عز وجل، والتصديق بالرسل والأنبياء، والحث على الصالحات الباقيات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والترغيب في الجنة وأيضاً التزهيد في النار مثل هذا القرآن منذ كانت الدنيا، فمن جاءنا بكتاب هذه نسبته ونعته، ولــه من القلوب هذا المحل والجلالة والحلاوة، ومعه هذا النصر واليمن والغلبة، وكان

(١) محمد ﷺ نبي الإسلام ص ٨٠ المستشار محمد عزت الطهطاوى.

(٢) المرجع نفسه ص ٨١.

صاحبه ﷺ الذي نزل عليه أمياً لم يعرف كتابة ولا بلاغة قط، فهو من آيات النبوة لا شك فيه ولا مرية) (١).

أما علوم القرآن فقد اجتهد علماؤنا من أعلام الفقه والحديث والتفسير وأصول الدين في محاولة عدها وإحصائها:

فمن قائل أنها ثلاثة أقسام كالطبري «٣١٠ هـ» وهى: التوحيد والأخبار والديانات، ولهذا قال ﷺ: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**».

ثم توسع القاضي أبو بكر بن العربي (٥٤٤هـ) في بيان مضمون هذه الأقسام: فالتوحيد تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتذكير ومنه الوعد والوعيد والجنة والنار وتصفية الظاهر والباطن، والأحكام ومنها التكاليف كلها، وتبين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب.

ومن قائل أن القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً: الإعلام، والتنبيه والأمر والنهي والوعد والوعيد ووصف الجنة والنار، وتعليم الإقرار باسم الله، وصفاته وأفعاله، وتعليم الاعتراف بإنعامه والاحتجاج على المخالفين والرد على الملحدين، والبيان عن الرغبة والرهبة، والخير والشر والحسن والقبيح، ونعت الحكمة وفضل المعرفة، ومدح الأبرار، وذم الفجار، والتسليم والتحسين والتوكيد والتفريع والبيان عن ذم الإخلاف، وشرف الأداء. وقائله علي بن عيسى الرماني «٣١٠هـ».

ومن قائل أن القرآن لا يُستدرك ولا تحصى غرائبه وعجائبه، (وهو القاضي أبو المعالي عزيزي «٤٩٤هـ» لقوله تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾ [الأنعام: ٥٩] (٢).

وبعد هذه الإلمامة الخاطفة حول كتاب الله -عز وجل- التي اقتضاها المقام بسبب تداعي المعاني وتوارد الخاطر ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ [التوبة: ٣٣] نستأنف الحديث عن أبرز عقائد النصارى، وهى عقيدة التثليث، التي جاء القرآن بإبطالها والرد عليها.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ١ ص ١٦-١٩ باختصار ــ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م.

(٢) الدين والدولة ص ٩٨/٩٩ .

حول عقيدة التثليث:

تكتنف هذه العقيدة كثيراً من الغموض الذي يصعب إزالته، حتى باستخدام الأحكام العقلية المجردة (ويقولون: إن الله واحد في ثلاثة أقانيم هم الأب (الله) والابن (الله) والروح القدس (الله) وهؤلاء الثلاثة هم الله، **كيف**؟ هذا هو سر الثالوث الأقدس الذي لا يستوعبه عقل بشري لأنه فوق مستوى إدراكه) (١).

ومع هذا فإننا سنعرض لبعض الشروح التي دارت حولها بحيدة تامة، محاولين تقريب العقيدة إلى الأفهام ما أمكن:

(١) يستمد هذا الشرح من التأمل في التركيب الجسماني للإنسان إذ إن كيانه (يتألف من الأجزاء المادية المتجانسة، التي تستطيع الأنظار المادية أن ترى هيئتها الاتحادية، فمثلاً العظم واللحم والدم، من اتحاد هذه الأشياء الثلاثة يقوم الجسم الإنساني في الوجود، ولو فقد واحد منها لما تم وجود الجسم الإنساني) (٢).

ولكن إذا تأملنا هذا المثال نجده لا يتفق مع العقيدة المسيحية في التثليث. ويقول محمد تقي العثماني: (على حين أن المسيحية لا تؤمن بثلاثة أقانيم كثلاثة أجزاء، وإنما تؤمن بها كثلاثة أشخاص مستقلين ومن هناك فإنها لم تستخدم للأب والابن والروح القدس كلمة (الأجزاء) وإنما استعملت كلمة (الأقانيم) Persons أو (الأشخاص)، ولا شك أن أحداً لا يقول بأن اللحم وحده، أو العظم وحده، أو الدم وحده (إنسان)، وإنما يقول إنه جزء من الإنسان وعلى العكس من ذلك فإن المسيحية تعد من الأب والابن والروح القدس إلها، ولا يعده جزءا من الله) (٣).

(٢) التجلي أو الحلول:

عبر الأب سوجارت على ذلك بقوله: إن الرب يعلمنا بوجود إله واحد وليس اثنين أو خمسة... (وإنه تجلى في ثلاثة أشخاص، ثلاث شخصيات مختلفة، نحن نؤمن

---

(١) كنت نصرانياً، واصف الراعي ص ١١٠ مطابع الفرزدق بالرياض ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢) ما هي النصرانية؟ محمد تقي العثماني ص ٤٧/٤٨.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩.

بوجود الأب السماوي، والإله الابن ونؤمن بالروح القدس الذي غشي مريم.. إنه أيضاً، وهم كل لا يتجزأ بمعنى أنهم متفقون تماماً، وفي توحد وانسجام لا يختلفون أبداً ولن يختلفوا أبداً) (١).

وعندما أعطيت الكلمة للأستاذ ديدات، قام فأفصح عن تعجبه الشديد من قيام الأب سوجارت بتغيير الكلمة المعبرة عن الرب، حيث كان في صباح يوم المناظرة نفسه يستخدم في خطابه لمجموعة من كنيسته كلمة (المولود لله)، وهى مستخدمة أيضاً في إنجيل الملك جيمس المعتمدة بالنص (لأنه هكذا أحب الله العالم.. حتى أنه أعطى ابنه الوحيد)، والتعبير الإنجليزي الوارد بالنص يستخدم كلمة (بجتن) أي المولد لله.

ولكن بعد ثماني ساعات فقط، وأثناء المناظرة غير الأب سوجارت كلمة (بجتن) إلى كلمة (المتفرد) (٢).

وعندما سئل الأب سوجارت عما تعنيه كلمة (متفرد) أجاب بأنها في الأصل اليوناني تعنى ببساطة: (لم يكن مثله أحد من قبل، وما كان أحد مثل ابن الله، فهو متفرد، ولم يكن أحد من قبل مثل مريم التي أنجبت ابن الله.. أنها تعنى ببساطة أن أحدا لم يكن أبداً مثله من قبل، ولن يكون أحد مثله من بعد. يكون متفرداً، كابن الله، متجسداً في هيئة بشرية) (٣).

ثم أوضح أن المسيحيين لا يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة، وسخر من الذين يظنون أنهم يعتقدون أن الله متزوج ويسكن في شقة في السموات، وأنه أنجب أطفالاً، ووصف ذلك بأنه سخافات. ثم عبر عن الإيمان الصحيح عندهم حيث يؤمنون بأن الله بسبب حبّه للناس تعطف ونزل على هذا الكوكب، وعاش بين الناس ومشى بينهم، وتحدّث إليهم وفي هيئة بشر تجسد ليموت على الصليب، كالفادي تكفيراً عن خطايا البشرية. فالإنسان عاجز عن إنقاذ نفسه، ولقد فعل ذلك وقال للناس: إنكم ستقتلون هذا الجسد،

---

(١) المناظرة الحديثة ص ١٩٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٥ ويقول الأستاذ ديدات: (وبالمناسبة فإن كلمة (بجتن) تعنى أيضاً: الإنتاج يا سيدي. فالله أنتج ولده. (نفسه ص ١٨٠).

(٣) ص ١٩٥ من كتاب المناظرة الحديثة.

وفي خلال أيام ثلاثة سأرفعه إليّ مرة أخرى (وهكذا فهو متفرد في ذلك، كذلك كان متفرداً في معجزاته، متفرداً في نبوءته، متفرداً في ميلاده، متفرداً في حياته، متفرداً في رسالته، متفرداً في موته، متفرداً في قيامته، متفرداً في صعوده، وعندما يعود فسوف يكون متفرداً في عودته) [(١)].

ولكن هذا الأسلوب الإنشائي الخطابي لا يحل مشكلة الغموض، وربما كان فرارا من المواجهة التي لا بد منها. (إنه يقول -أثناء حديثه أيضا- شخص وشخص وشخص، إلا أنهم ليسوا ثلاثة أشخاص بل شخص واحد).

وعندئذ وجّه الأستاذ ديدات الخطاب إلى الأب سوجارت وضرب له المثل الآتي: «أنت وأخواك لنفترض أنكم ثلاثة توائم متشابهة، وأننا لا نستطيع التمييز بينكم أنتم الثلاثة لأنكم متطابقون تماماً. فإذا اقترف أحدكم جريمة قتل، هل يمكن أن نشنق الآخر؟ جوابك: كلا. وأسألك: ولماذا لا يشنق فتقول لي: إنه شخص آخر، وأوافقك على هذا» [(٢)].

ثم أوضح أن استخدام الكلمات يستدعى صوراً ذهنية حول (الأب السماوي المحب)، (والإله الابن) و(الروح القدس).

إذن هناك ثلاث صور ذهنية مختلفة، (ومهما حاولتم فلن تتطابق هذه الصور الثلاث في صورة واحدة، سيكون في ذهنكم دائما ثلاث صور، ولكن حين أسألكم: كم صورة ترون؟ تقولون: واحد) [(٣)].

... **وهذا لا يطابق الواقع.....**

(٣) مثال الشمعة:

وهذا المثال مشهور متداول فالله عندهم -تعالى علوا كبيراً- كالشمعة (فالشمعة واحدة ولكنها مادة ونور وحرارة، فهي ثلاثة في واحد) [(٤)].

---

(١) المرجع نفسه ص ١٩٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٥.

(٤) كنت نصرانياً ص ٢٥.

وهذا المثال متهافت أيضاً لا يعبر عن العقيدة النصرانية، لأن الأقانيم عندهم ثلاثة أصول.

والشمعة أصل واحد (أما الضوء والحرارة فمظهران حادثان طرآ على الشمعة بعد إضاءتها، فإذا انطفأت عادت إلى أصلها الواحد، وفاتهم أن هناك مصدرا ما أشعل الشمعة فما دوره في الأقانيم الثلاثة وأين مكانه من هذا التشبيه؟)[١] ..

إن هذا المثال إذن، مخالف للثالوث النصراني الذي -بحكم صياغته- يقرر تعدد الشخصيات في الإله، وينسب - كما يرى البروفيسور عبد الأحد داود -... خصائص شخصية منفصلة لكل شخص.

وقد ناقش البروفيسور هذه العقيدة من الوجهة الرياضية البحتة، ليبين عدم تطابقها مع البديهيات العقلية، والعلم الرياضي هو أدق العلوم كما هو معروف، قال: (والرياضيات كعلم إيجابي تعلمنا أن الوحدة ليست أكثر من واحد ولا أقل. وأن واحدا لا يمكن أن يساوى واحداً + واحداً + واحداً، وبعبارة أخرى فإنه لا يمكن أن يكون الواحد مساويا لثلاثة، لأن الواحد هو ثلث الثلاثة.

وقياسا على ذلك فإن الواحد لا يساوى الثلث. وبالعكس فإن الثلاثة لا تساوى واحداً، كما أنه لا يمكن للثلث أن يساوى الوحدة...

والذين يقولون بوحدانية الله في ثالوث من الأشخاص إنما يقولون أن كل شخص هو (إله قدير، موجود، دائم، أزلي، وكامل، ولكنه لا يوجد ثلاثة آلهة قادرين، وموجودين، ودائمين، وأزليين، وكاملين، ولكنه إله واحد قدير.

وإذا لم تكن هناك سفسطة في المنطق المذكور أعلاه، فإننا سنطرح هذا اللغز الذي تقدمه الكنائس، ويكون طرحنا له بالمعادلة التالية:

إله واحد = إله واحد + إله واحد + إله واحد

كذلك فإن إلهاً واحداً = ثلاثة آلهة.

أولاً:

لا يمكن لإله واحد أن يساوى ثلاثة آلهة بل يساوي واحداً منها فقط.

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥.

ثانيا:

بما أنك تسلم بأن كل شخص إله كامل مثل قرينه، فإن استنتاجك بأن ١+ ١ +١ =١ ليس استنتاجا رياضياً): [(١)].

ثم ينتقل البروفيسور بعد ذلك إلى مناقشة التثليث من الناحيتين المنطقية والعقائدية بناء على تصور أن لكل شخص في الثالوث صفات لا تنطبق على الاثنين الآخرين (وتدل هذه الصفات طبقاً للمنطق الإنساني واللغة الإنسانية، على وجود «قبلية وبعدية» فيما بينهما. فالأب دائما يحظى بالرتبة الأولى، ويتقدم على الابن. أما الروح القدس ليس متأخراً فحسب لكونه الثالث في الترتيب العددي، بل إنه أقل من أولئك الذين انبثق منهم).

ويبقى بعدئذ التساؤل الذي لا مفر منه للتمييز بين الإقرار بهذه العقيدة أو الزندقة (ألا يعتبر نوعاً من الإلحاد إذا ما أعيد ذكر هذا الثالوث ترتيباً معكوساً؟.. ألا يعتبر إنشاء الصليب، عند مشاهدة القربان المقدس أو تجاوز مبادئه، نوعاً من الزندقة عند الكنائس إذا عكست العبارة وصارت على النحو التالي: **باسم الروح القدس والابن والأب؟**

لأنها إذا كانت متساوية ومتعاصرة فإنه لا داعي لمراعاة ترتيب الأسبقية بدقة)[(٢)] .

عقيدة التثليث فوق طور العقل:

أما دفاع النصارى عن عقيدة التثليث بدعوى أنها حقائق هي وراء طور العقل والقياس، فلا مناص من تصديقها من غير محاولة الاعتماد على العقل فيها [(٣)] هذا الدفاع لم يقبله ابن تيمية في مجال مناقشة عقائدهم، فهو يرى ضرورة التمييز بين نوعين من الحقائق:

أحدهما:

ما هو باطل ومستحيل عقلياً.

---

(١) محمد ﷺ فى الكتاب المقدس، عبد الواحد داود ص ٤٥ ترجمة فهمي شما - مراجعة وتعليق أحمد محمد الصديق، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشرعية بقطر ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٢) المرجع نفسه ص ٤٦.

(٣) الحافظ أحمد بن تيمية الإمام أبو الحسن الندوى ص ٢٠٤، ط. دار القلم -الكويت - تعريب سعيد الأعظمي الندوي ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م.

الثاني:

ما يتقاصر عنه العقل، وجاءت الأنبياء لتوضحه، ولكن النصارى «لا يميزون بين ما يحيله العقل ويبطله، ويعلم أنه ممتنع، وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يعلم فيه، بنفي ولا إثبات وأن الرسل أخبرت بالنوع الثاني، ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول، فلم يفرقوا بين محالات العقول ومحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولدا وشريكاً»(١) .

وزعم الولد أو الابن لله -تعالى- دال على استخدام ألفاظ الأنبياء - لو صحت - في غير مواضعها، فإن الموقف المنهجي الصحيح المفسر لكلام الأنبياء يقتضي الاستمساك بظاهر كلامهم، فإن الابن ظاهره لا يراد به شئ من صفات الله، بل يراد به وليه وحبيبه وروح القدس لا يراد به صفته، بل يراد به وحيه وملكه، ولكن النصارى عدلوا عن ظاهر اللفظ إلى معنى لا يدل عليه البتة(٢) .

قال ابن تيمية: (فإذا وجد في كلام المسيح عليه السلام أنه قال: عمّدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس، ثم فسروا الابن بصفة الله القديم والأزلية، كان هذا كذبا على المسيح حيث لم يكن في لغته أن لفظ الابن يراد صفة الله القديمة الأزلية، كذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس، وإنما يريدون روح القدس ما ينزله الله -تبارك وتعالى- على الأنبياء والصالحين ويؤيدهم»(٣) .

الصليب والتكفير عن خطيئة البشر:

يعد الصليب أحد الشعائر البارزة في العقيدة النصرانية، إن لم يكن أبرزها؛ فإن الصليب رمز عقيدة النصارى الذي يعبر عن الإيمان بالتكفير عن خطيئة البشر وأصبح لزاما عليهم رسم علامته في كل مناسبة. يقول العالم المسيحي الشهير "ترتو ليانوس": «بمناسبة كل حال وترحال، وذهاب ومجيء وخلع نعال، واغتسال، وأكل وإيقاد شمع

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ص ٨٩، جـ٢ نقلا عن المصدر السابق.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٢

(٣) الجواب الصحيح ج ٣ ص ١٨١/١٨٢، نقلاً عن المصدر السابق.

ونوم وجلوس، وبالجملة بمناسبة كل حركة وسكون نصنع فوق حواجبنا علامة الصليب»[(١)] .

أما عن تعليل صلب المسيح عليه السلام في زعمهم فيستندون فيها إلى ما جاء في الكتب المقدسة عندهم أن «الله محبة»، وظهرت هذه المحبة في تدبيره الخلاص للعالم، لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة، ولكن الله من فرط محبته وفيض نعمه رأى أن يقرب إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم» [(٢)].

ولئن كانت رواية الصلب واردة بالأناجيل، إلا أن الدارس الفاحص عندما يقارن الحادثة بالأناجيل بعضها ببعض، يستخلص منها -على خلاف المعتقد - نفي صلب المسيح عليه السلام وإليك البيان: وردت قصة المحاكمة في إنجيل لوقا بالنص الآتي:

(وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون، وتبعه تلاميذه أيضا. ولما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكيلا تدخلوا في تجربة، وانفصل عنهم نحو رمية حجر، وجثا على ركبتيه وصلى قائلا: يا أبتاه إن شئت أن تجيز عنى هذا الكأس، ولكن لتكن، لا إرادتي، بل إرادتك. وظهر له ملاك في السماء يقويه. وإذ كان في جهاد كان يصلي بأشد لجاجة. وصار عرقه كقطرات الدم نازلة على الأرض، ثم قام من الصلاة وجاء إلى تلاميذه، فوجدهم نياما من الحزن فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟ قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة)[(٣)] .

كذلك صرح إنجيل متىّ بأن «أظلمت الأرض ظلمة شديدة».

من هذا النص وغيره -كما سيأتي - يتضح عند تنقيح الأخبار والبحث في الملابسات المحيطة بالواقعة تأكيد نفي حادث الصلب عن المسيح: عليه السلام حيث يستخلص

---

(١) ما هي النصرانية؟ ص ٧٥.

(٢) محاضرات في النصرانية ص ١٢٩ ويقول عبد الله الترجمان: (وهم يزعمون أن لاهوته فارق عند الصلب والقتل، وهبط إلى جهنم فأخرج منها الأنبياء وكان ناسوته فى القبر مدفونا حتى رجع إليه لاهوته، فأخرجه من القبر ورجع إليه، ثم صعد به إلى السماء) تحفة الأريب ص ٨١.

(٣) متّى ١٧: ٩ نقلا عن كتاب محمد ﷺ فى التوراة، والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد ص ١٦٣ وقد قابل الحادثة بما وردت بالأناجيل متّى ومرقص ولوقا.

الأستاذ إبراهيم خليل من القصة الآنفة كينونة المسيح كإنسان بشر «يصلي في جهاد، فكان ينزل ملاك من السماء ليقويه ويشد أزره، ثم يعود إلى تلاميذه، فيجدهم ساعة هذه التجربة العظمى نياما، ومن هنا حدث لبس في شخصية المصلوب» (١)، فضلاً عن أن الوقت كان ليلا؛ لأن الرواية تضمنت أن الجمع جاءوا بمشاعل ومصابيح.

وهنا يقول الإمام نجم الدين الطوفي «٧١٦هـ» (ففي تلك الظلمة أطلقت الملائكة المسيح وربطت الذي ألقي عليه شبهه مكانه»(٢)، ثم يمضي فيحلل الأسباب النفسية لعقيدة الصلب عند كل من النصارى واليهود، «فاعتقدتم أنتم: أن المسيح صلب وقوى ذلك الاعتقاد في نفوسكم: حنقكم على اليهود، وحب تقرير العلم للعدوان عليهم، واعتقدت ذلك اليهود كما اعتقدتموه، وحملهم على ذلك الاعتقاد: حب الغلبة والظفر بمن اعتقدوه عدوا لهم» (٣).

تحقيق الحادثة:

وقد أجاد علماؤنا أثناء مناقشتهم للنصارى في هذه الواقعة الهامة وقدموا البراهين التي تدحض حادث صلب المسيح عليه السلام من واقع الأناجيل نفسها، مستخدمين مناهج مختلفة، منها منهج تحليل الأخبار، حيث يتضح كذب الرواة أو شكهم فيما يروونه، ومنها موازنة بعض نصوص الأناجيل بموازنة العقل والمنطق على ضوء عقائدهم الدينية.

---

(١) محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ١٦٤.

(٢) كتاب (الانتصارات الإسلامية) - في علم مقارنة الأديان: تأليف نجم الدين البغدادي الطوفى ص ١٠٣ دراسة وتحقيق د/ أحمد حجازي السقا - مطبعة دار البيان بمصر ١٩٨٣م.

وينظر أيضا تفسير الطبري جـ ٩ ص ٣٦٩ قال: فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهما، فأخذهم ودلهم عليه، وكان شبه عليهم قبل ذلك - أي كانوا لا يعرفونه - فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، فجعلوا يقودونه ويقولون لــه: أنت كنت تحيي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون عليه، ويلقون إليه الشوك، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه، وصلبوا ما شبّه لهم، فمكث سبعا. والرواية بسندها عن وهب بن منبه.

(٣) ط. دار المعارف - تحقيق محمود شاكر ومراجعة وتخريج أحاديث أحمد شاكر.

ورغبة في الإيجاز وتحقيق غايتنا في أقرب الطرق سنختار من بين علمائنا الإمام القرافي صاحب الصولات والجولات في الجدل مع النصارى:

ففيما يتعلق برواة الخبر عن الصلب فهم قليلون، لأن الحواريين فروا عن المسيح عليه السلام لأنه لو وجد أحد منهم لقتله اليهود، فحينئذ عدد التواتر متعذر من جهة شيعة النصارى، ومن جهة اليهود فلأن المباشر منهم للصلب إنما هم أعوان الولاة (وذلك من مجرى العادة أن يكون نفر قليل كالثلاثة ونحوها يجوز عليهم الكذب، ولا يفيد خبرهم العلم) [١].

أما نصوص الإنجيل والكتب النصرانية فإنها دالة على عدم صلب عيسى عليه السلام بذاته، يقيم الإمام القرافي الأدلة على ذلك من واقع تحليله للنصوص وعرض مضمونها على قوانين العقل والمنطق.

فمنها أن لوقا في إنجيله روى كيف صعد يسوع إلى الجبل الجليل، ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا، فبينما هو يصلي إذ تغير منظر وجهه، ولمعت ثيابه كالبرق وإذا بموسى بن عمران وإيلياء قد ظهرا لــه، وجاءت سحابة فأظلتهم فوقع النوم على الذين معه.

ويستدل إذن من هذه الآيات أن عيسى عليه السلام رفع إلى السماء ولم يصلب وإلا فما معنى لظهورهما.

والثانية: إن الأناجيل ذكرت أن المصلوب استسقى اليهود فأعطوه خلا مذاقا بمر فذاقه ولم يسغه، فنادى (إلهي إلهي لم خذلتني؟)، وهذه الواقعة لا تتطابق مع ما صرحت به الأناجيل بأنه عليه السلام كان يطوي أربعين يوما وأربعين ليلة صابرا على العطش والجوع، فكيف به لم يمكث على الخشبة أكثر من يوم وليلة ولم يصبر على العطش؟....**فيتضح إذن أن المدعي للعطش غيره**[٢] ....

والثالثة:

قوله: (إلهي إلهي لم خذلتني فتركتني؟) وهو كلام مناف للتسليم بأمر الله تعالى، وعيسى عليه السلام منزه عن ذلك، فيكون المصلوب - إذن - غيره.

---

(١) الأجوبة الفاخرة ص ٥٣.

(٢) المرجع نفسه باختصار ص ٥٤.

كذلك فبالمقارنة بغيره من الأنبياء والرسل - كإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون - عليهم السلام- فإنهم يجعلونه في مرتبة أقل منهم، إذ روت التوراة أنهم تقبلوا الموت مستبشرين بلقاء ربهم، ولم يجزعوا (مع أنهم عبيده)، والمسيح بزعمهم ولد ورب، فكان ينبغي أن يكون أثبت منهم، ولما لم يكن كذلك، دلّ على أن.. المصلوب غيره)[١].

ويستند الأستاذ أحمد ديدات إلى نفي حادثة الصلب إلى الشواهد والأقوال المنسوبة إلى المسيح ﷺ، ومنها ما ورد بإنجيل لوقا (انظروا يدي ورجلي إني أنا هو، جسوني وانظروا فإن الروح ليس لــه لحم وعظام كما ترون لي، وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبين قال لهم: أعندكم هاهنا طعام؟ فناولوه جزءا من سمك مشوي وشيئا من شهد العسل فأخذ وأكل قدامهم).

ويعلق الشيخ ديدات على هذا النص بقوله: (والسؤال الذي يطرح نفسه هو إذا ما كان المسيح قد مات «مصلوباً» ثم قام ثلاثة أيام فكيف يقول لتلاميذه إن الروح ليس له لحم وعظام «طالباً» منهم أن يجسوه.

ثم لماذا أكل قدامهم وفق رواية «لوقا» المعتمدة من قبل المؤسسات الكنسية؟ فمن المعروف أن الأرواح لا تأكل ولا تشرب، وأن علمها عند الله، ولكن المسيح ﷺ من خلال هذا الموقف الذي تقول به مختلف الكنائس، وإذا ما كان هذا قد حدث بالفعل وفق ما يعتقده النصارى، فإننا نقول لهم: إن المسيح ﷺ أراد أن يثبت أنه لم يمت بعد. أي إنه لم يقتل بعد. أي إنه لم يصلب. أي إنه ليس هناك حادثة (صلب) وبما أنه ليس هناك حادثة (صلب) فنظرية (الخلاص) لا أساس لها من الصحة، وفي ضوء هذا فالنصرانية معتقد غير صحيح»[٢].

ومن الناحية اللغوية نجد للشيخ ديدات بحثاً فريداً في تحليله للمصطلح الإنجليزي الدال على الصلب وهو Crucifition حيث توصل أن أصل هذا المصطلح مكون من

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٥.

(٢) من أقواله لمندوب جريدة (المدينة المنورة) عدد الأربعاء رقم ٢٨٥ الصادرة، في ٥ جمادى الأولى ١٤٠٩هـ / ١٤ ديسمبر ١٩٨٨م ص ٧ مع العلم بأنه أصدر كتابا في هذا الموضوع بعنوان (خرافة صلب سيدنا المسيح)، وهو من مصادر دراستنا.

مقطعين هما Fiction-Cruci ومعناه (رواية الصلب أو خرافة الصلب. إذ إنه لا يوجد في الإنجليزية فعل واحد بالمعنى الذي يقابل الفعل العربي «يصلب».

ويستنتج من ذلك أنه إذا ما كان المصطلح نفسه عاجزا عن التدليل على معنى «الفعل»... «الحادثة» التي وقعت من وجهة نظر كتبة الإنجيل، فكيف يتسنى لنا إذاً على المستوى اللغوي التحقق من أصل هذه الحكاية كواقع؟ (١).

ويزيد الأمر إيضاحاً بكتابه (صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء) ليثبت أن قصة الصلب لا تعني الموت قتلاً، مستشهداً بتفسير لغوي لإنجليزي بجنوب أفريقيا وشريك لــه من أمريكا يعترفان أنه (لو كانت كلمة يصلب تعني يقتل على الصليب، فإننا لا نجد كلمة تصور مجرد الصعود على الصليب دون موت عليه) (٢).

ويقول: ولو كانت (يصلب) تعنى فقط (يقتل)، فما معنى الكلمة؟ إن قاموس أكسفورد يعطى للكلمة معنى هو (يقتل بالتثبيت على الصليب).

ولكنه يجابه هذا التعريف بسبع حالات صلب على الأقل حدثت في الفلبين ونشرتها إحدى الصحف في ١٩٨١/٥/٣ ولم يمت منهم أي شخص بالصلب ! وأغمي على أحدهم بالرغم من دق مسامير في يدي المتقدمين للصلب بالصليب الخشبي، ويختص بالذكر ما حدث للسيد بيتر فان دير بتاريخ ١٩٦٩/٨/٣ الذي صعد على الصليب وتلقى (الركلات) لمجرد الاستمتاع بالإثارة أو كما قال بنفسه لمجرد أن يثبت أن الإنسان يستطيع أن تكون له السيطرة على جسده، أنه تحمل عملية الصلب بكل تفاصيلها ولم يمت، بمعنى أنه ثبت على الصليب «لتمثيل الصلب، لا ليموت صلباً» (٣).

المنكرون للصلب:

وقد أنكرت بعض الطوائف المسيحية حصول الصلب استناداً على الأدلة التاريخية.

ويقول المسيو أرنست دى يونس الألماني في كتابة المسمى «الإسلام والنصرانية الحقة»

(١) صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء - أحمد ديدات ص ١٧٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٧، وينظر صورته على الصليب ص ٧٩.

(٣) المرجع نفسه ويقول (وإنني أتحدى أي أسقف أو قس في أي مكان، في أي وقت يوجد في لغته هذا «الفعل».

إن جميع ما يختص بمسائل الصلب والفداء هو من مبتكرات ومخترعات بولس، ومن شابهه من الذين لم يروا المسيح ﷺ وليست من أصول النصرانية (وقد أنكر كثيرون من المؤمنين بعيسى في بداية النصرانية أن المسيح نفسه هو الذي رفع على الصليب وأصروا على أن أحد أتباعه (يهوذا الاسخريوطي أو شخصا آخر يشبهه تماما هو الذى ألقي القبض عليه وصلب بدلاً منه) [(١)].

ويقول (ملمن) في كتابه «تاريخ الديانة النصرانية» أن تنفيذ الحكم على المصلوب كان أثناء الظلام، مما يستنتج منه إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا منتظرين تنفيذ حكم القتل. ويقول (باسيليوس) إن نفس حادثة القيامة وهي دعوى قيام المسيح ﷺ من الأموات المدعى بها بعد الصلب الموهوم، هي من ضمن البراهين الدالة على عدم حصول الصلب على ذات المسيح [(٢)].

ومنهم أيضاً (كوائيليس شيس) الذي أعلن رأيه برفض الأساس العقائدي للصلب، لأن (ذنب آدم لم يضر إلا آدم، ولم يكن لـــه تأثير على بني النوع البشري والأطفال الرضعاء حين تضعهم أمهاتهم يكونون، كما كان آدم فيما قبل أن يذنب) [(٣)].

والثابت تاريخيا أن النصارى في القرون الأولى، قبل الملك قسطنطين لم يعرفوا رسم علامة الصليب على وجوههم بالأصابع، وظهر تبرير ذلك برواية تحكي عن هذا الملك أنه رأى في السماء صورة صليب من ذهب، وملك يقول لــه: إن كنت تريد غلبة أعدائك، فاجعل هذه الصورة علامة قدامك «وآمن وفعل ما قاله الملك فنصر، وهو الذي بحث عن صليب المسيح حتى وجده مدفوناً، وعمل من المسامير التي كانت فيه لجاما لفرسه، وزين جبينه بصليب من ذهب، فاستمر ذلك لنا علامة على النصر والظفر» [(٤)].

---

(١) محمد ﷺ فى الكتاب المقدس، البروفيسور عبد الأحد ص ٢٢٧.

(٢) نقلا عن محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ١٠٣، راجع بالتفصيل فى هذا المصدر هذه الطوائف وتبلغ إحدى عشرة طائفة.

(٣) ما هي النصرانية؟ ص ٩٠.

(٤) الأجوبة الفاخرة للقرافي ص ١٦١ والعبارة على لسان قسيسهم وكبيرهم حفص.

ويبقى السؤال وارداً وهو: كيف يرضى النصارى بعلامة الصليب (وهو شنيع على المسيح عليه السلام وإظهار لشعائر الإهانة العظيمة الحاصلة لمن يزعمون أنه ربهم، وهذا لا يرتضيه الإنسان لغلامه، فكيف لنبيه، فكيف لربه؟) [١].

ويصرح محمد تقي العثماني بأنه لم يجد على هذا السؤال إجابة في كتابات أي عالم مسيحي [٢].

وختاما لدراستنا الموجزة حول علم الأديان المقارن، سنجعل مسك الختام منصبا على الحديث عن إثبات نبوة محمد ﷺ، وذلك في مبحثين:

الأول:

النبوءات بمحمد ﷺ في الكتاب المقدس [٣].

الثاني:

الأدلة العقلية على صدق نبوته ﷺ.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٠/١٦١.

(٢) ما هي النصرانية؟ ص ٧٥.

(٣) لم تقتصر النبوءات على الكتاب المقدس فحسب، فقد ذكر العقاد بأن (بعض الباحثين وجد اسم أحمد مكتوباً بلفظه العربي في السامافيدا من البراهمة، وبعض صفاته ﷺ وكذا كتب المجوس (التاريخ الفارسي) ككتاب زندافستا ينبئ عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين " شوشيانت " ويتصدى له عدو يسمى أبا لهب، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفوا أحد وليس له أول ولا آخر ولا صاحب ولا ولد، وكيف تنهض البادية وتتوجه للكعبة وتبسط سلطانها على فارس، وإن نبيهم فصيح ذو معجزات) مطلع النور للعقاد - كتاب الشهر - دار الهلال ١٩٦٨م نقلاً عن مختصر إثبات نبوة محمد ﷺ لمحمد إبراهيم حجاج ص ٨٣، الذي يرى أنه لا يبعد أن يكون ذلك من آثار النبوات السابقة من لدن نوح.

الفصل السابع

النبوءات بمحمد ﷺ في الكتاب المقدس

تمهيد:

يلاحظ علماء تاريخ الأديان المقارن أنه بالرغم من كثرة ذكر الرسل والأنبياء بالكتاب المقدس، إلا إنه عندما تأتي البشارة بمجيء محمد ﷺ فإنهم يخفونها أو يجحدونها ولا يعترفون برسالته، فما السبب؟

يرى جارودي أن مصيبة تاريخ الأديان المقارن إنه يحمل في الغرب علامة العصر الذي ولد فيه، ولذلك فهو يتميز بظاهرتين:

الأولى:

إنه فيما يخص الإسلام، فإن الغرب اعتمد على وجهة نظر مسيحية متعصبة وطائفية، وترفض الاعتراف بصحة الوحي الإسلامي اعتمادا على تأكيد صحة وحيها هي. وهذا ما يدعونا للاعتقاد بأن التعصب هو أحد أسباب إنكار نبوة نبينا ﷺ.

الثانية:

المُسَلَّمة الفلسفية الوضعية القائلة باستبعاد كل إمكانية للتسامي بشكل مفاجئ في التاريخ، وهي التي تنزوي في أفكار مسبقة، لتزعم أن لا شيء ينشأ إلا نتيجة ومحصلة لأحكام سابقة[١].

أما البروفيسور عبد الأحد داود فقد كان أكثر صراحة؛ لأن تمكنه في علم الأديان المقارن وتخصصه في علم اللاهوت وإحاطته الواسعة بالكتب الدينية عند اليهود والنصارى، وكل ذلك مكنه من اكتشاف عدة حقائق أعلنها على الملأ في شكل تحقيقات وبحوث علمية موثقة وتستند إلى مراجع لا سبيل لأهل الكتاب في الطعن فيها.

---

(١) الإسلام دين المستقبل، جارودي ص ٦٦ ترجمة عبد المجيد بارودي -دار الإيمان - بيروت/دمشق ١٩٨٣م.

ويذكر البروفيسور -كأحد نماذج التحريف- إنه بدافع حقد اليهود على إسماعيل عليه السلام قام النساخ وفقهاء الشريعة بتحريف وإفساد الكثير من صفحات كتبهم المقدسة فشطبوا اسم (إسماعيل)، ووضعوا اسم (إسحاق) بدلا منه، وقاموا أيضا بحذف الوصف الخاص بإسماعيل (ولدك الوحيد) لإنكار وجوده.

وقام النصارى بتحريف من نوع آخر، فغيروا ترجمة كلمة من معناها الأصلي إلى معنى آخر مغاير: وتفصيل ذلك أن الأصل في خطاب الله -تعالى- لإبراهيم عليه السلام قوله: (لأنك يا إبراهيم قبلت أن تضحي بابنك الوحيد من أجلي فسوف أزيد وأضاعف من ذريتك).

ولكن المسيحيين عندما قاموا بترجمة هذه الكلمة العبرية التي تعني (وفير) أو (كثير) من الفعل Para ترجموها إلى معنى مغاير لحقيقة اللفظ ألا وهو (الحمار المتوحش) .

وعندئذ يبدي هذا العالم دهشته الممتزجة باللوم والسخط على هذا الفعل ويتساءل (أليس من العار والكفر أن ينعت إسماعيل -بهذا اللفظ- وهو النبي الذي كرمه الله فنعته (بصاحب الذرية الخصبة الكثيرة العدد)[(١)] .

وأدته دراسته في علم اللاهوت، وتبحره في تاريخ الأديان في معرفة الكتاب المقدس ونبوءاته، وإلى الإقرار بالحقيقة التي لا محيد عنها، وهي أن محمدًا ﷺ هو الهادي، وهو (روح الحق) الذي بشر به المسيح عليه السلام [(٢)].

واعتنق الإسلام عن اعتقاد تام بعد كثرة البحوث والقراءات والمقارنات، ثم أعلن في تواضع (إني لا أعزو اعتناقي الدين الإسلامي لأي سبب غير التوجيه الإلهي الكريم الذي هداني للإسلام، وبغير هذا الهدى الإلهي، فقد يصاب الإنسان بالحيرة والضلال من تعدد التعاليم الدينية، ومن كثرة الجهود المضنية التي تجابه الإنسان في سبيل البحث عن الحقيقة)[(٣)] .

---

(١) محمد ﷺ في الكتاب المقدس، ص ٦١.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢.

(أما الإسلام فهو الدين الذي يحقق الهدوء داخل العقل، وداخل البيت مهما كانت الاضطرابات التي تهددنا)(١).

وفي وصف شامل للإسلام ورسالته وصبغته الفريدة، ومدى صداه في نفوس خصومه يعرّفه بأنه (لا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسما أو وصفا أفضل وأشمل وأكثر هيبة، وسمواً من الإسلام، فالدين الحق، لله الحق لا يمكن أن يسمى باسم أي عبد من عباده ولا أن يدعي باسم شعب معين أو اسم بلد معين، إن هذه القداسة والعصمة لكلمة إسلام هي التي توقع الرعب والخوف والاحترام في قلوب أعدائه، حتى عندما يكون المسلمون ضعافا وخانعين)(٢).

ودفعه إيمانه ذو الجذور العميقة في نفسه إلى إعلان اكتشافاته العلمية على الملأ، بل الدعوة إلى الإسلام أيضا لأنه بعد الفحص والتمحيص ثبت لديه أنه الدين الحق.

لقد أراد البروفيسور عبد الأحد -إذن- بوحي من إيمانه العميق إثبات تحريف الكتاب المقدس لنصوص النبوءات، فأتى بالنصوص المحرفة(٣)، بسبب الترجمة وطابقها مع ما يقابلها مكتوبا باللغة الأصلية، وعندئذ أذهله أن كل النصوص المعنية بالنبوءات تنصب على رسول الله ﷺ، وهذا لم يكن يتوقعه قط بحكم عقيدته السابقة، ونشأته على النظر للإسلام ونبيه بعين ملؤها الحقد والكراهية، أو عدم الإنصاف على أقل تقدير.

ولا يتسع المجال لعرض بحوثه تفصيلاً ولكن يعنينا فقط الإلمام بطريقة التحريف المتبعة، والتي بواسطتها ينكرون نبوة نبينا محمد ﷺ.

وسنتدرج لنبين منهجه أولا ثم نصل إلى تطبيق هذا المنهج على بعض النصوص الدالة في أصلها على الرسول ﷺ.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢٨.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) يرى الأستاذ محمد إبراهيم حجاج أنه لكثرة البشارات بمحمد ﷺ وتفرقها في كتبهم لم يستطيعوا إخفاءها كلها، وإن اجتهدوا لتمويهها وتأويلها، فلا تزال تدل على محمد ﷺ. ص ٨٦ من كتابه (مختصر إثبات نبوة محمد ﷺ) المكتبة الإسلامية - عمان ١٤٠٣هـ.

فمن معالم منهجه أنه أخذ (يعيد قراءة الكتب المقدسة بنصوصها الأصلية مرة بعد مرة) [١]، فوقف على أهم الحقائق التي غابت على القساوسة (ولو حاول القساوسة اللاهوتيون النصارى معرفة حقيقة كتبهم المقدسة التي وردت أصلاً باللغة العبرية بدلاً من ترجمتها، كما يفعل المسلمون الذين يقرءون قرآنهم بنصه العربي، لاتضح لهم أن الله -تعالى- هو نفس الاسم القديم السامي الخالق الأعلى الذي أوحى وكلّم آدم وجميع الرسل من بعده)[٢].

وفي ضوء هذا المنهج مضى ليتحقق من أن النبوءات الواردة بالكتاب المقدس تحققت بالحرف الواحد وصدقت على محمد ﷺ.

وسنكتفي بعرض ثلاث منها بإيجاز:

النبوءة الأولى:

ما ورد في التوراة «سفر التثنية الفصل الثامن عشر الجملة: ١٨»:

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه».

ويرى البروفيسور عبد الأحد أن هذه الكلمات ما لم تنطبق على محمد ﷺ فإنها تبقى غير متحققة، فالمسيح عليه السلام نفسه لم يدع أنه النبي المشار إليه، وكذلك يتطلع حواريوه إلى عودته لكي تتحقق النبوءة «وحتى الآن، فإنه من الثابت غير المنقوص بأن الظهور الأول للمسيح لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة «أقيم لهم نبياً مثلك»، وكذلك فإن عودة المسيح مرة ثانية لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات، وأن المسيح، كما تؤمن به كنيسته، سوف يظهر كقاض وليس كمقدم للتشريع بينما «الموعود» هو الذي يجيء «حاملا الشريعة النارية المشعة بيده اليمنى» [٣].

النبوءة الثانية:

الكلمات الواردة في التوراة فى الفصل ٣٣ الجملة «٢» تنص على ما يلي:

---

(١) محمد ﷺ في الكتاب المقدس ص ٢٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧.

(٣) المرجع نفسه ص ٣١.

«وجاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير وتلألأ قدما من جبل فاران، وجاء معه عشرة آلاف قديس، ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم».

ومن الثابت -في رأي البروفيسور عبد الأحد- أنه لم يكن لأحد من الإسرائيليين بما فيهم المسيح عليه السلام أية علاقة بـــ «فاران»، فإن «هاجر» مع ولدها «إسماعيل» هم الذين سكنوا في قفار «فاران»(١) .

وكذلك فإن «بيت الرب الذي يمجد اسمه فيه» المشار إليه في الإصحاح «٦٠ الجملة ٧»، هو بيت الله الحرام في مكة وليس كنيسة المسيح، كما كان يعتقد المفسرون المسيحيون.

وبحكم معرفته الواسعة بالتاريخ وتفاصيله، ووقوفه على أعداد المسلمين الذين دخلوا مكة المكرمة، لفت نظره تحديد عدد العشرة آلاف «فإذا قرأت جميع التواريخ المتعلقة بقفار " فاران " فإنك لا تجد أية حادثة أخرى غير هذه أمامك، وهي أنه عندما فتح النبي ﷺ مكة دخلها على رأس عشرة آلاف مؤمن من أتباعه في المدينة، ثم يعود إلى «بيت الله» وبيده اليمنى الشريعة التي حولت جميع الشرائع الأخرى إلى رماد»(٢) .

النبوءة الثالثة:

وتحتوي على جملتين كل منها تنص على اسم «أحمد» أو "حمدا Himda"

«أ» الجملة الأولى «وسوف يأتي أحمد لكل الأمم - سفر حجّي ٢ -٧». والترجمة المحرفة لبعض الكتب المقدسة في الإصحاح الثاني من سفر حجِّي هكذا، يقول «و يأتي مشتهي كل الأمم»(٣) .

(ب) الجملة الثانية ونصها «و لسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمدا Himda لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد، كذلك قال رب الجنود: ولي الفضة ولي الذهب، وهكذا يقول رب الجنود: وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٢.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٤٩.

الأول، وهكذا يقول رب الجنود: وفي هذا المكان أعطي السلام، وهكذا يقول رب الجنود».

الإصحاح الثاني من حجّي، الجملة ٧ - ٩.

ويرى البروفيسور عبد الأحد خطأ ترجمة كلمتي «حمدا» و«شالوم» من أنهما «الأمنية والسلام»[(١)]، لأن النبوءة على ضوء هذه الترجمة لا شيء أكثر من «همس غامض مبهم ولا يفهم معناه»، ثم يقول «و لكن إذا فهمنا المقصود من التعبير بكلمة «حمدا» بأنه فكرة ثابتة عن شخص أو عن حقيقة واقعة، وإذا ما فهمنا المقصود من كلمة «شالوم» بأنها ليست حالة مشروطة، بل هي قوة فعالة وديانة رسمية ثابتة ومعترف بها، وعندئذ لابد من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار فيها، وأنها مطابقة لشخصية «أحمد» وبعثته بالإسلام، ذلك لأن كلمتي «حمدا» و«شالوم» أو «شلاما» تؤديان بدقة نفس الدلالة والأهمية لكلمتي «أحمد» و«الإسلام» [(٢)].

ويرى البروفيسور عبد الأحد أن اسم «أحمد» هو أول اسم علم عرف بهذه الصيغة في تاريخ البشر «و هو بحسب اعتقادي أعظم معجزة جاءت لصالح الإسلام»[(٣)].

هذا وقد سبق أن قلنا في الفصل الأول أنه لابد من القدوة الكاملة في اجتياز طريق الحياة الإنسانية، وقد تحقق ذلك في الإسلام باعتباره خاتم الأديان ﴿**أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، وخص الله عز وجل محمداً ﷺ: وحده

---

(١) ويقول البروفيسور: (ولقد قمت بترجمة هذه الفقرة المذكورة من النسخة الوحيدة من الإنجيل الذي كان بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنة عم لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة حينذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس، والتي نجد إنها ترجمت عن الأصل العبري كلمة (حمدا) إلى (الأمنية) وكلمة (شالوم) إلى السلام - ص ٥٠.

(٢) المرجع نفسه ص ٥٠ ويقول ص ٥٢ (أما فيما يتعلق بأصل هذه الكلمات وتاريخها ومغزاها "شالوه" و"شلاما" بالعبرية، وفي العربي (سلام) وإسلام، فإنه لا حاجة بي لأن أعيق تسلسل القارئ في تفكيره، فأجرّه إلى تفاصيل لغوية، لأن أي عالم في السامية يعرف تماما أن (شالوم) و(إسلام) هما كلمتان مشتقتان من أصل واحد، وتعنيان نفس المعنى، وهو السلام والإذعان أو الاستسلام).

(٣) المرجع نفسه ص ٥٤.

-كخاتم النبيين- بوصفه «الأسوة الحسنة» فقال سبحانه: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ**﴾ [الأحزاب:٢١].

ونعود هاهنا لاستكمال إحدى الحلقات في موضوع النبوة، فنظهر البراهين الدالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ، مستخدمين في ذلك طريقتي عالمين من علمائنا: أحدهما الشيخ ابن تيمية «فيما بين القرنين السابع والثامن الهجريين: ٦٦١ - ٧٢٨ هـ» والثاني الأستاذ محمد لطفي جمعة في العصر الحديث.

ونلاحظ أن الأول استخدم مصطلحات عصره المنطقية «المسلك النوعي - الشخصي»، بينما استخدم الثاني علوم العصر كالاجتماع والأخلاق والنفس في صد حملات التهجم والتشكيك، متمسكا ومعتزا بعقيدته الإسلامية، ومتحديا كتابات المستشرقين من اليهود والنصارى وتلاميذهم من المغتربين المفتونين والملحدين العصريين.

كذلك لا بد من التنويه بمنهج العالم الفرنسي موريس بوكاي الذي عرضنا بعض لمحاته بأحد فصول الكتاب.

وهكذا تبقى طرق الاستدلال العقلية والعلمية متاحة في كل العصور متضافرة لتجلية الحق.

المدخل العقلي لصدق نبوءة محمد ﷺ

لقد حض القرآن الكريم على التفكير في أمر النبي ﷺ واستخدام ميزان العقل للتثبت من صدق نبوته -عليه الصلاة والسلام: تدبروا قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ [سبأ: ٤٦].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: «أي قياماً خاصاً لله بلا محاباة ولا مراءة اثنين اثنين، وواحدا واحدا «ثم تتفكروا» أي في أمره ﷺ وما جاء به من الهدى وإصلاح الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أحط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر السماوات والأرض، واتباع الأحسن ونبذ التقاليد وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرءوسين رغبة في الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة في الكتب المؤلفة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿**مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾ [سبأ: ٤٦] أي جنون، مستأنف

منبه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كاف في ترجيح صدقه والتعبير عنه ﷺ بـــ «صاحبهم» للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم، لأنه نشأ بين أظهرهم بقوة العقل، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ [سبأ: ٤٦] وهو عذاب الآخرة والمآل (١).

كذلك الرسول ﷺ أيضا عندما أعلن نبوته عقب صدور الأمر الإلهي إليه، استند إلى دليل عقلي، فقد ألقى إليهم سؤالا أولا - كما سيأتي حتى يقروا بأمانته وصدقه - أي المقدمة التي سيبني عليها النتيجة، فلما أقروها أعلن عليهم النبأ.

فقد نفذ الأمر الإلهي إليه ﷺ ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤] فصعد على الصفا فجعل ينادي لبني قريش حتى اجتمعوا فسألهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم كنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» (٢).

والحديث عن نبوة محمد ﷺ يتشعب بنا إذا لم نحصر حديثنا في جانب واحد من السيرة، لأنها أجل وأعظم من أن يحاط بها مؤلف أومؤلفات على سعتها، فما من مؤلف من مؤلفات السيرة إلا جاء معبرا على أحد جوانبها دون الإحاطة بها جميعاً. وفي نطاق بحثنا المحدود، سنختار مقتطفات من الأدلة على صدق نبوته ﷺ، منها وأولها معجزة القرآن الكريم التي عجز البشر وسيعجزون حتى قيام الساعة أمام التحدي الإلهي ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا**﴾ [البقرة: ٢٤].

وإننا واجدون في إثبات النبوة نفس الطريقة التي يمكن بها أن نثبت أنواعا من العلماء في البشر كالأطباء والفلكيين والأدباء والشعراء والنوابغ في ميادين المعارف والعلوم المختلفة «فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب لـــه وجوه كثير... والنبوة مشتملة على أشرف العلوم والأعمال»(٣).

والمسالك كثيرة للاستدلال على النبوة بالأدلة العقلية، نختار منها مسلكين، ومصدرنا شيخ الإسلام ابن تيمية، مع الاختصار:

---

(١) القاسمي: محاسن التأويل ج ١٤ ص ٤٩٦٦ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي - ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٢) ابن الوزير اليماني: الذب عن سنة أبي القاسم صلوات الله عليه. ج ٢ ص ١٣١ المطبعة السلفية.

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية ص ٨٢ وما بعدها.

الأول: المسلك النوعي:

وبه استدل النجاشي على نبوته ﷺ، فإنه لما استخبر الصحابة القادمين عليه فراراً بدينهم من قريش عما يخبر به، واستقرأهم القرآن، قال بعد سماعه لبضع آيات من سورة «مريم»: «إن هذا -والذي جاء به موسى- ليخرج من مشكاة واحدة» أي إنه عرف أن طبيعة الكلام تدل على وحدة المصدر.

وبنفس الطريقة سبقه إلى ذلك ورقة بن نوفل، عندما هرعت السيدة خديجة -رضي الله عنها- تسأله عن حقيقة ما حدث للنبي ﷺ فأجاب قائلا: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام».

الثاني: المسلك الشخصي:

وبه استدل هرقل ملك الروم عندما وجه أسئلته إلى أبي سفيان وهو حينئذ من أشد الناس بغضا وعداوة للنبي ﷺ وموجز هذه الأسئلة هي:

- هل كان في آبائه ملك؟ فأجاب بالنفي.
- هل قال هذا القول أحد من قبله؟ فأجاب بالنفي.
- هل هو ذو نسب فيهم؟ فأجاب بالإيجاب.
- هل يتهمونه بالكذب؟ فأجاب بالنفي.
- هل اتبعه الضعفاء من الناس؟ فذكر أن الضعفاء اتبعوه.
- هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكر أنهم يزيدون.
- هل يرجع أحد عن دينه سخطة له؟ فأجاب بالنفي.
- هل قاتلوه؟ فأجاب بالإيجاب.
- ما طبيعة الحرب بينهما؟ فأجاب بأنه يظهر على أعدائه المرة، والعكس مرة أخرى.
- هل يغدر؟ قال لا.

وكان هرقل يسأل أبا سفيان طالباً ممن معه من تجار قريش إن كذب أن يكذبوه فوجدهم موافقين لـــه في إجاباته، وأخيرا سألهم - بماذا يأمركم؟ قالوا «يأمرنا أن نعبد

الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة».

ثم بيَّن لهم في النهاية دلائل أسئلته، فقد سألهم عن أسباب الكذب وعلاماته فرآه منتفيا، وسأله عن علامات الصدق فوجدها ثابتة، إذ لو كان في آبائه ملك لقال رجل يطلب ملك أبيه، كذلك فإن تفرده ﷺ بدعوته يدل على أنه بخلاف ما هو معتاد من اتباع الرجل لعادة آبائه واقتدائه بمن كان قبله - وهذا يحدث كثيرا في المجتمعات الإنسانية - أما إذا طلب أمرا لا يناسب حال أهل بيته فإن هذا نادر في العادة لكنه قد يقع، ولهذا أردفه بالسؤال عما إذا كانوا يتهمونه بالكذب، فلما علم صدقه قال إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله، ثم أردف ذلك بالسؤال عن علامات الصدق، فمن علامات الرسل اتباع الضعفاء لهم، وسألهم هل يزيدون أم ينقصون، فقالوا بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألهم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة لـــه بعد أن يدخل فيه، وأيقن من إجابتهم بالنفي أنه نبي لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلم أن من علامات صدق نبوته ﷺ أن أتباعه يزيدون ولا ينقصون، لأن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع أصحابه عنه، فالمتنبئ الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة، وفي الحرب علم أنه تارةً يَغلِب كما غلب يوم بدر وتارةً يُغلَب، وكذلك الرسل تبتلى وتكون العاقبة لها؛ فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجة الشكر والصبر، كما علم من إجابتهم أنه لا يغدر فكذلك الرسل فإنها لا تغدر أصلاً، إذ الغدر قرين الكذب، وتعرف على صدقه أيضا من أمره ﷺ بعبادة الله وحده والصلاة والصدق والعفاف والصلة، وينهاهم عما كان يعبد آباؤهم وهذه صفة نبي.

وعلق هرقل في النهاية بقوله: «و قد كنت أعلم أن نبياً يبعث، ولم أكن أظن أنه منكم ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما يقول حقا فسيملك موقع قدمي هاتين» (١).

---

(١) ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية من ص ٨٢: ٨٦ - مطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٩هـ.

ونضيف إلى ذلك أن الأدلة العقلية والمنطقية والتاريخية، وما لها ارتباط بعلم النفس والاجتماع والأخلاق، كلها تؤيد أنه النبي الصادق حقا، وإن كان هذا يتطلب دراسة قائمة بذاتها كما فعل كثير من كبار علمائنا(١) إلا أننا نختصر هنا الكلام اختصارا لكي نبرهن على أن المدخل العقلي للعقيدة الإسلامية يتجلى في آياته القرآنية، وصدق رسوله ﷺ إذا ما نظرنا إليه بعين الإنصاف والتجرد للبحث عن الحق.

وكما تحدثنا من قبل عن تعذر الإحاطة بسيرة الرسول ﷺ في كتاب، فما بالنا بعدة صفحات؟

ومع هذا فإنه مما يتصل بدراستنا فحص الآراء التي يلف حولها بعض كتاب الإفرنج ويدورون، لنخرجهم من هذه الدائرة المضللة إلى نور الحق وضيائه، وهذه الآراء لا تخرج في مجملها عن محاولتهم - بطريقة فجة، بل مضحكة:- إما اصطناع صلة بينه ﷺ وبين الأديان والثقافات السائدة حينذاك في بيئته أو المساس بالقرآن الكريم أو النيل من صفاته الشخصية ﷺ.

وبمراجعة صفحات كتب السيرة، سنجد بحمد الله -تعالى- ما سبقنا به علماؤنا من مواجهة حاسمة مفحمة لكل ما دندن حوله أعداء الإسلام، وكانت نتيجة المواجهة في صالح الحق والعدل.

وسنعرض لهذه الآراء بحسب ترتيبها:

(١) الثقافة في البيئة المكية.

(٢) اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث.

(٣) خلقه ﷺ.

---

(١) منهم الأستاذ محمد لطفي جمعة - الذي رجعنا إليه في هذه الصفحات مع العلم بأن كتابه في السيرة يمتاز بأنه نتاج اطلاع واسع وغزير جدا - يكاد لا يبارى في العصر الحديث - مع عمق دراسته تحليلا ومقارنة وردا على علماء الإفرنج، ويقع كتابه في نحو ١٠٥٧ صفحة من القطع الكبير - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م بعنوان: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله.

١ - الثقافة في البيئة المكية

ومن هذه الأدلة أن العرب «كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم، ومبادئ التشريع وعلوم الفلسفة، وأن مكة عاصمة دولتهم وقاعدة دينهم ومقر كعبتهم ومثوى زعمائهم ورؤسائهم، وملتقى الشعوب والقبائل للتجارة والحج والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة والشعر والخطب، لم يكن بها مدرسة ولا مكتب ولم يوجد بها كتاب مخطوط، فكيف يهيأ لرجل مثله، وفي مثل هذه البيئة الجاهلة أن يجيء بدين تام وكامل، وشرع عادل عام»(١).

إن الدراسة المقارنة للعقائد والأديان والنظم تصل بالباحث إلى سمو المعتقدات والأحكام والعبادات والآداب التي جاء بها محمد ﷺ، ولم يكن من الممكن أن يصل إليها عقله وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون ذلك بوحي من الله تعالى، ثم إن ما جاء به من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم كان أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحياً.

ولو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ﷺ، وكان قد أتم استعداده لـــه باختلائه وتعبده - كما يزعم ذلك بعض المستشرقين - ما حدث لـــه من رجفة هائلة، ولما عاد إلى زوجته مرتجفا تصطك أسنانه وترتعد فرائصه ويسيل عرقه - بل كان ينزل إلى أهله فرحا طروبا منتصرا متشجعا غير هياب ولا وجل، مثل كل رجل يجد الأمر الذي كان يسعى إليه ويطلبه، ولكن الذي حدث أنه بعد نزول سورة «العلق» انقطع عنه الوحي ثلاث سنوات تباعا، وكان في هذه الأعوام الثلاثة، وهي التي يسمونها فترة الانقطاع ساكنا هادئا لم يتل فيها على الناس سورة ولا آية، ولم يدع أحدا إلى شيء ولا تحدث إلى أهله ولا إلى أصدقائه بشيء، لأنهم لم ينقلوا عنه شيئا، فهذا السكون وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه.

---

(١) محمد لطفي جمعة: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ص ٥٤٧ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م.

أما قصة بحيرا الراهب فقد ضعفها بعض العلماء - أمثال عبد العزيز بن راشد النجدي ورشيد رضا ومحمد لطفي جمعة - لأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الإسناد، إلا رواية الترمذي وليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها أن محمدا ﷺ سمع من بحيرا شيئا عن عقيدته أو دينه، ولم يكن بحيرا - إن وجد حقيقة - ساذجا إلى درجة أنه فاتح صبياً صغيراً بمثل هذه الأسرار العليا.

ومن أبعد الروايات عن الإقناع، ادعاء خصوم الرسول ﷺ إنه تلقى ما تلقاه من حداد رومي بمكة، فمن المضحك أن لا يجد النبي ﷺ معلما إلا في شخص الحداد، ولعل محمدا كان يراه في السوق فيقف عليه ليرى صنعته، ولم يفقه لغته ولا يمكنهما التفاهم، ولذا جاء في القرآن ﴿**لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ [النحل: ١٠٣].

وبالجملة لم يجد النقاد شخصا يليق في مكة بأن يكون أستاذا لمحمد ﷺ؛ لأن مكة يهود ونصارى من طبقة العبيد والرقيق لسادتهم العرب، لأن رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لأحدمن ذوي الشأن من النصارى أو اليهود أن يقيموا في مكة، وهي حرمهم المقدس الخاص بأوثانهم، وإن كانوا يتساهلون مع خدمهم وعبيدهم لأنهم في حاجة إليهم، وهؤلاء كانوا من طبقة نازلة ولكنهم جهلاء، ولا يتصور أن محمدا ﷺ يتنزل أو يتدلى إليهم ليتتلمذ أو يتلقى عنهم رسالته(١).

ومما يدحض أيضا هذه المفتريات الصادرة عن خيالات كتابها، أن ندرس تاريخ رسالة الأنبياء -عليهم السلام- منذ إبراهيم عليه السلام مع التخلص من الروح العنصرية في البحث، لذلك فإن استيعاب هذا التاريخ بنظرة شاملة كلية يتطلب - كما يرى

---

(١) وينظر د/محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم - دار القلم بالكويت - ص ٦٤/٦٥ ط ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م.

جارودي - التخلي عن النزعة الغربية الإقليمية الضيقة واستيعاب ما جاء به الأنبياء - عليهم السلام - الذين أكملوا رسالة إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويستطرد فيلسوفنا قائلا: «وحينئذ يتاح لنا أن نفهم أسباب استبدال المسيحية الناهضة باليهودية المتحجرة، كما يتاح لنا أن نفهم السبب الذي من أجله أصبحت المسيحية خيالية مشوهة، بفعل سياسة الإمبراطور قسطنطين، تلك السياسة التي قلبت المسيحية رأسا على عقب، إن مفهوم «نظام الكهنوت» الروماني المنشأ، والذي صنع فيما بعد بصيغ يونانية ثم أقره مجمع «نيقيا» كعقيدة روحية لاهوتية.. إن المفهوم الذي سرعان ما تصدع وتشظى إلى شيع عديدة لم يستطع أن يقاوم البديل التاريخي وهو الإسلام»[(١)] .

أي إنه ﷺ جاء بعقيدة ليصحح العقائد التي انحرفت على أيدي اليهود والنصارى بعد إبراهيم عليه السلام.

فكيف يقال: إنه جاء مقلدا لهذه الانحرافات، آخذا عنها؟

٢ - اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث

يقول أحد كتاب السيرة المعاصرين: «إني أتخذ من الاختلاف في الأسلوب بين القرآن والحديث دليلا علميا وعقليا وأدبيا على صحة الوحي»، ويشرح ذلك بالرد على الزاعمين انتحال الرسول ﷺ القرآن لنفسه، إذ لو فعل ذلك، لكان أدعى إلى الفخر والمباهاة والشهرة وذيوع الصيت، لدلالته على القدرة الباهرة في نظم الكلام وتأليفه والاطلاع على علوم الأولين والآخرين، وأيضا الوقوف على أسرار الكون والعالم بما لم يسبق لأحد من الحكماء والمشرعين من قبل، ولكن هذا الكذب لا تقبله نفس محمد ﷺ ولا ترضاه سريرته ولا يتحمله ضميره فضلا عن أنه لو كان القرآن هو كلامه، ما تمكن من التفكير في أسلوب آخر ينطق به في أوقات أخرى، خصوصا وأن القرآن كان يأتيه

---

(١) جارودي، ما يعد به الإسلام ص ٢٤٠.

ويهبط عليه في أحوال شاذة من كرب وضيق وعرق ورجفة، وقد تواتر الصدق في رواية صفته عندما كان يجيء الوحي على هذه الحال، وهي حال استثنائية لا يمكن فيها للكاتب أو المفكر أو الشاعر الذي أحوج ما هو إليه، أن يملك زمام نفسه واعتدال مزاجه، في حين أن حديثه وجوامع كلمه ومواعظه ونصحه، كان ينطق بها وهو على أشد ما يكون راحة وهدوءًا وسلامة بدن وسكون بال (١).

ويقرر الأستاذ محمد لطفي جمعة بعد الاستشهاد بأقواله وخطبه وحكمه التي ملأت الآفاق، وأصبحت من السنن التي شرعها الله -تعالى- على يديه - أن من أقوى الحجج على صدق الوحي المحمدي وأوضحها وأجلاها وأظهرها أن حديث النبي ﷺ الصحيح وجوامع كلمه وحكمه الوجيزة الصائبة وأجوبته المقنعة، وقد سارت كلها مسير المثل، وقيلت بجملتها عفو الساعة، دالة على حضور بديهته وصفاء نفسه وقوة ذهنه، كانت جميعها تختلف اختلافا بينا عن ألفاظ القرآن ومعانيه (٢).

٣ - خلقه ﷺ

فإذا صعدنا النظر إلى خلقه ﷺ سحرتنا الآيات الباهرات بحيث يصدع لها كل إنسان سليم الفطرة، خلا قلبه من الدغن وشهوات الهوى والزيغ والبحث في سيرته، فلا تجد إلا كل خلق عظيم ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤] وقد تفرد بهذا الوصف بلا منازع دون الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم جميعا - وعن الرحمة في قوله عز وجل: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: «هذا خلق محمد

---

(١) انظر: محمد لطفي جمعة، ثورة الإسلام وبطل الأنبياء ص ٥٤٧، ٥٥٠: ٥٥٨ - مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٩م.

(٢) نفس المصدر ص ٥٧٤.

ﷺ، نعته الله عز وجل» وسئلت السيدة عائشة -رضي الله عنها- عن خلقه فقالت: القرآن [١].

وسنختار في هذا الحيز ثلاثة نماذج فقط من بين مئات الشواهد الدالة على خلق النبوة الحقة، وهي التي أوردها الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم»:

(١) جلست جواريات يضربن بالدف في صبيحة عرس، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غد فقال: ﷺ «**لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين**» رواه الإمام البخاري. ومصداقه في كتاب الله تعـــالى: ﴿**قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ**﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ**﴾ [الأعراف: ١٨٨].

(٢) وكان عبد الله بن أبي السرح أحد النفر الذين استثناهم النبي ﷺ من الإيمان يوم الفتح لفرط إيذائهم للمسلمين وصدهم عن الإسلام، فلما جاء النبي لم يبايعه إلا بعد أن شفع له عثمان ﷺ ثلاثا، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: هلا أومأت لنا يا رسول الله، فقال ﷺ «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون لـــه خائنة الأعين**». رواه أبو داود والنسائي.

(٣) ولما توفي عثمان بن مظعون ﷺ قالت أم العلاء - امرأة من الأنصار - رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال: ﷺ «**ما يدريك إن الله أكرمه؟ فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: أما هو فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفْعَل بي**» قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا. رواه البخاري والنسائي. ومصداقه في كتاب الله

---

(١) الأصبهاني: أخلاق النبي ﷺ وآدابه ص ٢٠ - تحقيق أحمد محمد موسى - مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٢م.

تعالى:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩].

لم يتخف إذن وراء الدهاء أو السياسة، ولم يسمح لنفسه أن يقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت، وهو لا يخشى من يراجعه فيه، أو حُكْمَ التاريخ عليه إذ - منعه خلقه العظيم وتقدير المسئولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

ومهما جال الباحث في صفحات السيرة النبوية فلن يعثر إلا على الصفاء والصدق والإخلاص في كل قول من أقواله ﷺ، وفي كل فعل من أفعاله، بخلاف سيرة صنوف البشر جميعا، إذ نرى الناس يدرسون حياة أساطين الفكر والأدب والفن والشعر، فتعطينا صورا معبرة عن عقائدهم وعوائدهم وأخلاقهم وأساليب معيشتهم، ولا يمنعهم زخرف الكلام والشعر وطلاؤه عن استنباط دخائلهم والكشف عن حقيقة سرائرهم، وذلك أن للحقيقة قوة غلابة تنفذ من حجب الكتمان، فَتُقرأ بين السطور وتُعْرف في لحن القول، ومهما تَصنَّع الإنسان العادي فلا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبعه، وما عدا سيرة النبي الصادق ﷺ إذ كان الناظر إليه إذا حسنت فراسته يرى أخلاقه العالية تلوح في محياه، ولو لم يتكلم أو يعمل، ولهذا شرح الله صدر الكثيرين دون أن يسألوه، منهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته: قالت لـــه السيدة خديجة عند بدء الوحي تطيبا لنفسه المكروبة بهذه الكلمات الدالة على صدق حدسها فوصفت خلاصة أخلاقه: «أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

كذلك منهم الغريب الذي عرفه بسيماه في وجهه. قال عبد الله بن سلام ﷺ «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه وقيل: «قدم رسول الله، قدم رسول الله» فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب» رواه الترمذي بسند صحيح(١).

تم الكتاب بحمد الله

(١) انظر د/محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ٣٢: ٣٥ - دار القلم - الكويت (نظرات جديدة في القرآن) ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

الفهرس

مقدمة	٣
تمهيد	١١
الفصل الأول: منهجنا في البحث	١٥
الفصل الثاني: البرهمية أو الهندوكية	٣٩
الفصل الثالث: البوذية	٦٥
الفصل الرابع: «الزرادشتية أو المجوسية»	٩٥
الفصل الخامس: اليهودية	١١١
الفصل السادس: النصرانية	١٦٤
الفصل السابع: النبوءات بمجيء الرسول محمد ﷺ	٢٠٤
الفهرس	٢٢٣